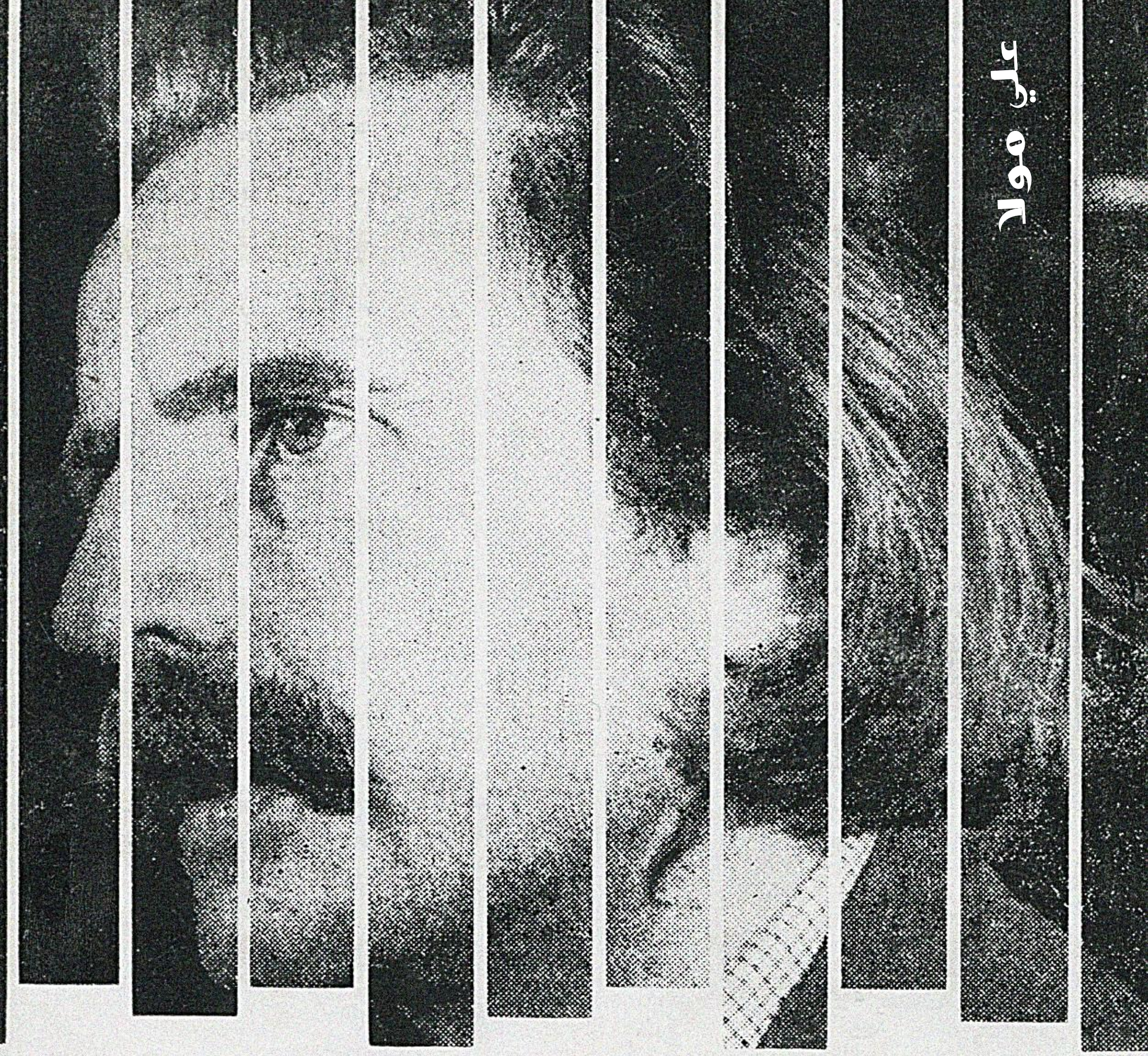


ريجيس
دوبريه

مذكرات بورجوازي صغير بين نارين واربعة جدران

ترجمة
د. سهيل ادريس

دار الآداب - بيروت

مذكرات برجوازي صغير ...

الطبعة الاولى
آب (اغسطس) ١٩٧٧

تمهيد المترجم

بعد مقتل تشي غيفارا ، اعتقلت السلطات البوليفية الكاتب والمناضل الفرنسي ريجيس دوبريه ، وحكمت عليه بالسجن لمدة ثلاثين عاما . ولكن انقلابا حدث عام ١٩٧٠ خفف عن دوبريه قيود الزنزانة في « كاميري » ، فسُمح له بأن يقرأ ويكتب ، قبل ان يؤدي تدخل الحكومة الفرنسية الى اطلاق سراحه ..

وهذا الكتاب هو ثمرة افكاره وتأملاته في السجن ، وفي كثير من المقاطع ، يخاطب الكاتب نفسه متحدثا عن كثير من هموم المناضلين والمثقفين ، ويقوم بنوع من النقد الذاتي ، من غير ان ينسى انه ينتمي في اصله الى « البورجوازية الصغيرة » .

وحين لقيت ريجيس دوبريه ، في ربيع ١٩٧٧ ، وحدثته عن رغبتي في ترجمة كتابه الى العربية ، قال انه يعتقد بأن الكتاب صعب ، ويتطلب فهمه ، فضلا عن التركيز، ادراكا مسبقا لكثير من البواعث والاحالات .

وكان جوابي اني كنت اعلم ذلك ، وأن هذا بذاته ما يشكل الاغراء ، ان لم اقل التحدي ، لنقله الى العربية ، لا سيما وان قراءنا أصبحوا يعرفون دوبريه معرفة جيدة عبر كتابيه « ثورة في الثورة » و« دفاعا عن الثورية » .

ولست لأخفي على القراء الآن ، وانا أضع هذا النص المترجم بين ايديهم ، اني عانيت في فهم بعض مقاطعه ،الغامضة حتى الابهام ، ما لم اعانه في نصوص فرنسية كثيرة اخرى ، فكان يصعب علي ترجمتها باديء الامر ، ولكن اسرارها كانت تتكشف لي مع اعادة قراءتها تكرارا .

ولايماني بأن على المترجم ، فيما هو ينقل النص الى لغته ، ان يحافظ حتى على طريقة التعبير لدى المؤلف بكل ما تحتمله هذه الطريقة من خصوصية وفرادة وتميز ، فقد حرصت على الابقاء على كل ما يكتنف النص من غموض او ابهام للقاريء وحده ان يفك اسرارهما ويستجلي خفاياهما. ان المترجم ناقل نص وليس مفسره .

ومع ذلك ، فاحسب ان القاريء سيصيب متعة اكبر ، حين يتوصل ، باعمال الفكر والخيال وكل طاقة ابداعية لديه، الى ادراك مقاصد المؤلف والوقوف على طاقته الابداعية . وانا على يقين من انه اذ يربط في هذا الكتاب افكارا متفككة ، ويملأ فراغات جمل مجزأة ، ويشد اوصال العبارات بملاط خفي يحدس به المؤلف ولا يجهر به، سيسعد بقراءة مذكرات ريجيس دوبريه في سجنه ، داخل تلك الجدران الاربعة التي يكاد يعتبر نفسه جزءا منها ، ولا تكون كلماته الا جروح الصمت عنده . .

المترجم

المقدمة

الاعتقال انقاذ . ذلك معروف منذ باسكال : « ان جميع مصائب البشر تأتي من كونهم لا يستطيعون ان يظلّوا مرتاحين في غرفهم » . ولكن السجن ، فوق انه امتياز او نعمة من العناية الالهية ، هو تدريب ، انقلاب للستراتيجية العقلية التي لا تملك نفسها بطرفة عين . ان سنوات الراحة الاولى تفقد المعتقل الجديد توازن حساسيته ، بدافع من ذعر او ارهاق ، في حين ان التغيير المفاجيء في نقاط ارتكازه يطبع لديه ، على غير علم منه ، حسّاً مدوّخا بالعالم وبنفسه . والعادة التي تفل مخالبنا غالبا ، تصبح مع مرّ الايام مسنّاً تسن به حواسنا . ان اللذة عملية تناقض لا كثافة ، عملية نِسَب لا ابعاد . فمن يقضي حياته في عتمة زنزانة ، وهو يتأمل

مستطيلا من الشمس تقطعه قضبان كوّته على البلاط في ساعة محددة ، متحولا من الاقتحام فالتحرك الجامد الى التبخر اللامرئي ، يشعر بمثل ما يشعر به متعطل يتنعم بشوي جسده على شاطيء زاخر بالبشر . والتعذيب نفسه ــ حين لا يتجاوز حدود اللياقة ، بلا آلات كهربائية ولا مدة مفرطة الطول ، وهو تأدب يصبح نادرا ــ يضفي على مجرد احساس المرء بجسمه ، اذ يستعيد الاستعمال الطبيعي لاعضائه ، مُتعة مثيرة . وان نقصا في السكريات لمدة طويلة يجعل مضغ قطعة من الخبز الذّ من حلوى بالتفاح مشربة « بالروم » يمضغها حنكان يتردد صاحبهما الضجر على مقصف محطة « ليون » . كما ان توحّدا متطاولا في زنزانة ، من غير رؤية انسان حيّ خلال شهرين او ثلاثة ، يحوّل زيارة نصف ساعة (من قريب او صديق او عدوّ) الى احتفال اشد تألقا من اية حفلة رقص تنكرية في قصر آل روتشيلد . لنتوقف هنا : ان الملذّات الاصلاحية قد تدقرطت بما فيه الكفاية ، على غرار عُطل نهايات الاسبوع في « الباهاماس » . على ان هناك سيئة واحدة : فان وعيا مشحوذا اكثر مما ينبغي يصبح ، اذا طال الزمن ، شفرة مدية ماذا يفعل بها المرء ان لم يوجهها الى نفسه ؟ حين يتحمل فرد ما وحدته تحمّلا منهجيا ، فانه لا يجد مخرجا آخر الا الانتحار . وان احصائيات الوفيات في المعتقلات والسجون المركزية تؤكد ذلك .

اما بالنسبة الي ، فبعد فترة من التخمّر مليئة بالمصادفات ، وبعد ان تجاوزت العام الثالث ، كانت بعض التغييرات التي طرأت على توزع السلطة السياسية ، اي العسكرية ، في بوليفيا ، قد ادت في الاشهر الاولى من عام ١٩٧٠ الى تراخ في الاخلاق داخل ما كان قد عُمّد باسم « سجن الامة العسكري » ، وهو في الواقع قفص دجاج اقيم وسط فرقة مشاة تعسكر غير بعيد عن حدود الباراغوي . وقد تمّ تجاوز كل المحظورات ، حتى حظر قراءة المؤلفات السياسية ، بفضل بعض التواطؤات وتلك الحيل التقنية التي يعرفها جميع المعتقلين . والواقع ان حرسي كانوا يرون ان الافكار الرديئة التي كانت قد افقدت مختي الصواب ، كان ينبغي ان تزول مع المطالعات الرديئة. ولم يكونوا على خطأ : فما ان عادت الى الظهور ، حتى كنت فريسة لاشد الافكار ايذاء ، كما سيرى القاريء جيدا هنا .

وهكذا ، بفضل جمع عدد من الكتب عبر الزيارات التي كانت تقوم بها رفيقتي كل ستة اشهر تقريبا وحماسة سفارة فرنسا في « لاباز » ، تحوّل العقاب الجزائي لفترة قصيرة الى تدريب للدرس والاستبطان من الصعب توفره في الحياة العادية . فهل هناك افضل من: ورق وقلم حبر وطاولة ومراقبين شاردين ، وليس ثمة بعد تهديدات جسدية؟ ولئن كان المجال الحيوي شديد الضيق، فقد كان المرء على الاقل سيد وقته ، متحررا من هذه الانذارات التلفونية او البريدية المقرقعة ، ومن تلك الجماعة التهديدية ، جماعة الوسطاء والوكلاء والدركيين

والعلاقات واصدقاء الاصدقاء الذين يجعلون من بشر مزعوم انهم احرار بحركاتهم هذه الدمى المنهمكة الحائرة التي تتدافع على ارصفتنا . ولكي املأ بطالتي ، اناالمتوحد الى ابعد حد، اخذت اسوّد يوما بعد يوم دفاتر مدرسية. أهي مفكرة بلا راس ولا ذنب ؟ ام مذكرات حميمة ، شبيهة بتلك التي كانت تخطها سابقا في « الاحياء الجميلة » فتيات يرتدين اثوابا من التول ذات دائر خفيف دقيق (لقد تغير الزمن ، واحسرتاه ، ومعه الاخلاق) فوق مكتب من الاكاجو في غرفهن ذات الستائر المزرقة ؟ ان البطالة امّ العيوب جميعها .

في نهاية حزيران ١٩٧٠ ، كان من شأن استئناف الكفاح المسلح في البلاد وتنحي نزعة اصلاحية متذبذبة امام عودة اكثر العسكريين فاشية ، ان غيرت التصرفات لدى الحرس ، وغيرت لدى المجرم ردود الفعل . كان لا بد من أن يدافع المرء عن نفسه من جديد ، ساعة فساعة . وهذا ما وضع حدا نهائيا لهذه التدفقات البوحية الماضية والحاضرة والمستقبلية ، وعلّق تعليقا ناجحا ذلك التحقيق البسيكولوجي الوقح الذي ما كان يمكن ان ينتهي الا نهاية سيئة لو استمر حتى غايته . وبعد ذلك ببضعة اشهر ، اعادت انتفاضة شعبية الى الحكم لبعض الوقت جنرالا تقدميا ما لبثت الولايات المتحدةالاميركية ان قضت عليه . وقد كان من حظي ان يُطلق سراحي قبل ذلك . وهكذا اعدت الى غاب المدن والى دوار المنشآت الجماعية، والى واجبات السياسة المخلصة .

ان المرء هو دائما جاحد حيّز ما : حيز الداخل حين

يكــون خارجا ، والعكس بالعكس . وسواء كانت نعمــة او نقمة ، فانهــا خاصية تلـك المصايف اللاارادية فـــي الاسوار التي يسمّرك فيها القـــدر ــ مستشفـى ، او كرسي مريض ، او دير او سجن ــ ان تترك فيها وحـدك فوق جزيرتك، بلا منافذ ولا تراجع ، انفا لانف مع الزمن، انت نفسـك . ان الوحدة عدسية مكبرة لا ترحــم : فـهي تضعك في وجه حقيقتك المكبرة مئة مرة ، وانت تراهـــا تنتفخ يوما بعد يوم كأنهــا دمّل . وانها لمواجهة ثنائيـــة شاقة ينبغي تعزيمها بالوسائل الممكنة . او بترها بالكتابة، هذا المشرط الذي يزوّد به المثقفون منذ ولادتهم . حيــن يؤخذ المرء في الفخّ ، فيقطع عن العالم الخارجي وعن كـل اتصال انساني ، فكيف له ان يخرج منه ؟ مستحيل ماديا التقدم افقيا (كان طول زنزانتي ثلاث اقدام ، وساحـــة التنزه سبعا) او التسلل (في هذه الصحراء مــن البشر والشجر) : يبقى اذن الخط العمودي ، في الاتجاهين ، والخيار بينهما لك . اما « المختارون » ، الاغنياء بثرواتهم الروحية ، فيثبون نحو « السماوات » ، خارقين السقف، متوجهيــن الى « الاعظم » . واما الآخرون ، الخليط الذين انا منهم ، فيتجهون نحــو الاسفل ، محاولين انتــزاع بلاط اللاوعي بحثا عن اناهم الصغير . وايا ما كان ، وســـواء أكــان المرء ميــالا الى الوثب او الى الحك ، مدفوعا الــى التصوف او الى الانوية ، فينبغي له ان يفر الى جهة ما . ان الوقت مفرط الطول ، والحياة مفرطة القصر .

ولكن مــا يكــاد المرء يزهد في الدنيا وتفاهاتها ، حتى تبرز تفاهــة اخرى ، وها هو حب الذات يبني مسرحا

سرّيا بشخص واحد يكون في الوقت نفسه آلاتيه وممثله وجمهوره . وربما كانت مفاجأة النفس نوعا آخر من الهستيريا والعوز ، شكلا من الاستعرائية . هذا لا يمنع ان يكون انسان مهجور ، بلا مرايا يتطلع فيها الى نفسه ، اقدر من انسان آخر على التخلص من انعكاساته ليتفحص قفا الديكور ، جسم الجريمة الحقيقي ، جسمه الخاص معكوسا . وان المرء يصبح « موسعا » في وقت مناسب ليرى الاصطناعي وهو يعود على عجل — ليرى « التسلية » ، كما يقول الآخر . وهأنت ذا « محرّر »، ممثّل على هوى العصر ، تطلق جميع الصيحات الديكية الذائعة ، وتردد الكلمات والحركات التي ينتظرها منك الجمهور ، او فكرتك عن الجمهور . ولن تعوزك الحجج الصالحة ابدا لتدير ظهرك لحقيقتك الضائعة : احتشام، حسّ السخرية (وهو تراث وطني جدا ، كما هومعروف)، اعتقاد بان للعالم الموضوعي الاولوية وانه لا حاجة به الى تململاتنا حين ينادي بالثأر عند بابنا هذا القدر من الصياح الدموي . مكان للسياسة او للخطاب السياسي : لا بد من الخدمة . ولكن خدمة من ؟ وكيف ؟ ان الخطاب مفيد حين يكون حقيقيا ، وهو حقيقي حين يمليه من يعلنه — « متحررا من كلمتي الحقيقية المتلجلجة التي لم تُقل بعدُ قط » . وهو يصبح زائفا بمجرد ان يمليه المُرسل اليهم، ان يمليه همّ ارضائهم او الاستجابة لاملهم فيه . ولئن كانت اكبر خدمة يستطيع انسان ان يؤديها لآخر هي ان يساعده على ان يكون نفسه ، فلن يخدمه اذا تحوّل ، هو نفسه ، في نظره ، شخصا آخر .

ان المصادفات تجبر الانسان احيانا على أن يرتدي

لباسا لا يكنّ له حبا خاصا . ولكنه اذا مثل الدور نفسه وقتا اطول مما ينبغي،واذا انتهى به الامر لان ينساق لذلك الى درجة الانفعال به ، فان التنكّر يصبح كذبة ، والجراة روتينا احيانا . ان المصادفة ، سعيدة كانت ام شقية، ينتهي بها الامر ، اذا استُغلّت اكثر مما ينبغي ، لان تحل محل الضرورة الحميمة ، كما يمكن لاسم مستعار ان يُنسي المولعين بالكذب اسمهم الحقيقي . ان في الكتابة السياسية تمثيلا ما دامت دعوة وتحريضا ، ما دام عليها ان تؤثر وتُقنع وتدفع . ان على من يريد ان يغير العالم الحقيقي ، مع الرجال الحقيقيين ان يُغري ويوهم . وحين تفعل مبالغة الخطاب فعلها ببراءة ، فانها تتيح تسامي المهمات المطروحة من غير ان تفقد شيئا من صدقها . اما حين يقوم الممثل برحلته ويجعل من خطبته المسرحية مورد رزقه ، فانه يهرج تهريجا باردا خلف قناعه : تلك هي الطريقة التي يصبح بها المرء شخصية مسرحية صغيرة . فما دامت « كلمة » جماعية تغطي خفية كلمةكل فرد ، وما دامت « الاسطورة » تصلح لتجميل التاريخ المباشر لا لتحريفه ، فان الموضوعية المحايدة للغة السياسية يمكن ان تعتبر شكلا رفيعا من اشكال الخضوع . ولكن ماذا يحدث اذا اصبحت هذه اللاشخصية نفسها ، بلا مقدمات ، شكلا عصريا من اشكال الاستعرائية ؟ الا يزال بوسع المرء ان يصب حياته وفكره في القوالب القابلة للتبادل « للمراجع » و « الاستشهادات » من غير قدر جيد من الهستيرية ، المأخوذة هنا بمعناها السريري : التصنع، الانتقال العرضي للمؤثر ، المماهاة المزيفة التفاخرية للذات؟

او اذا لم تكـن بعدُ حياة المرء هي التي توظف في مقولبات مماثلة ، فما هي قيمة الكلام الذي لا تكـون فيه الحيـاة او الموت بعـد داخليـن في الاعتبار ـ كلام لا قيمة له ، كلام لا معنى له ، كلام لا يسيء ولا يحسن لمن يصفه ، ولا يُحرّ ولا يبرد من يبتلعه ، اليس ما يسمى طقسا ، هذا المجموع من الطرائق الذي يسمح لمجتمع او كنيسة او لحزب ان يتماسك على قدميه وهو يحجب عن نفسه موته؟ اذا كان التاريخ يجري في مكـان آخر ، واذا تم الطلاق بين علم الاخـلاق والسياسة ، واذا اصبحت الاصطلاحات التي لا بد «للمدينة» من ان تعرف فيهـا قانون عملها ضروبا من النفاق والخداع تتدبق فيهـا هي بالذات ـ عند ذلك نفهم لماذا اصبـح ميسورا الى هذا الحدّ ان يغيب المـرء عن كلمته ، ان يختبىء وراءها : ان قانـون اللذة هو في تلـك الحالـة قانـون « الجهد الاقل » .

الاّ يكون في اوروبا بعدُ لغـة سياسيـة صحيحة ، مليئة ، نزيهة ، مشاركـة ، وان يستطيع التاريخ المصنوع وحده ان ينضبط بلا حيل في خطب المؤرخين العلمية ، والا يمكـن بعدُ للتاريخ الذي ينبغي ان يصنع اليوم ـ وهو ما نسميه السياسة ـ الا يكشف عن نفسه الا بأن يختبيء وراء استعارات الدبلوماسية المحترسة ومهارات التكتيك ـ ذلك موضوع أشد وعورة من ان يجازف الآن بالعكوف عليه . وان المرء ليخشى ان يسقط فيه . هـل تحيـل اللغـة « المناضلة » اولا الى نفسها ، لا الـى غرضهـا ، كالشأن الكنسي ؟ وهل تبدأ كلمـات السياسة تصدي كالقواقـع الفارغة ، كقبب قصر مهجور ؟ اتكـون قد فقرت مثل هذه

الحفــرة بيــن الذيــن يجازفون بحياتهم في عملهم والذين لا يجازفون بشيء في خطبهم (الا بتكذيب للوقائع يكــون مــادة لخطاب آخر ، وهكذا دواليك) لو لــم ينحرفعندنا انحرافا مفرطا بعض الشيء مجرى السياسات الحقيقيةعن مجرى الصور الكبرى الاصليــة التي مــا فتيء يتزيــا بها بدافع من عادة ولكن من غير ان يخدع عالمه ؟ كـم تكلف محاولة القاء جسر بيــن الضفاف من تقلّصات وتشنجات او من حيل او من اكاذيب ! ان مأساة تاريخنا تكمــن في ان لغته تتخذ لهجة التمثيلية . من ذا الذي قال : « اية فوضى ، يا الهي ، اية فوضى !لست وحدي من فقــد صورته . ان قرنــا برمته لا يستطيع بعد ان يقارن روحه بما يرى . ونُعدّ بالملاييــن ، نحــن الاولاد الضالّيــن النابتين من الطلاق العظيم ؟ » احزروا ، وستفهمون مــن ايــن يمــر هذا التمزّق ، وعلى جسد مــن ، وعبر اي حشــد .

ليس هناك ، الى اقصى ما تعيه الذاكرة ،سببجيد او رديء حمل انسانا ما على اتخاذ موقف ما . ان الافكار والحجج والمحاكمات لا تكــون قدوة ، ووحدها الكائنــات الحيــة تدل على الطريق ، وليس من شيء يعمــل الا بدافع التقليد ، حتى ولو كان رفض تقليد احــد . ان الجميــع يملكون افكارا . افكارا خليطــة وكثيرة معا ، هي الافكــار نفسها ، ما دام الجميع يقرأونالصحف نفسها، ويتصفحون الكتب نفسها ، ويتفرجــون على البرامج التلفزيونيــة نفسها . ان وسائل الثقافة الشعبية تفكّر لنــا ، ولكــن كم هو عدد الافراد المثقفيــن الذيــن يحملون فكرة واحدة

ملء الذراع ، حتى النهايـة ودون تسوية ؟ بالاختصار ، فان اخوية الاشخاص الرصينين ، المحترمين ، المسؤولين الخ .. كانت ستواصل كما في السابق اعتمادها على رفيق درب صغير آخر ، وتمتماتها مقفل عليها في جوف درج الى الابد ، لو لم يكن من حظ الرفيق المذكور ان يلمح في وقت واحد ، وهو يضيع في دهاليز الفن الغربي المتفسخ ، طيف شخصين « كاملين » يعيشان متوحدين مع حقيقتهما الخاصة . لتكن محدودة ومفيظة ، الى ابعد حد ، بل حتى كريهة لكثيرين واحيانا على استحقاق ولكنها حقيقتهما ، هذا كل شيء . واسمي « كاملا » من تشهد اعماله واقواله انه شخصية وليس شخصا مسرحيا ، وانه لا يحاول ان يحمل الآخرين على اعتباره انسانا آخر ، وانه لا يهادن ما يسميه « متى » « الحرب الداخلية » ، لازمة الحرب الاخرى . ان اهمية « الكاملين » تكمن في آن الناقصين ما ان يلمحوهم حتى يجهدوا للحاق بهم . وهكذا كان عليّ ان التقي وان اصطدم بوجهين بلا قناع ، وجهين حقيقيين غير مموّهين ، لكي اجرؤ ، بدافع من مفارقة ، على ان اجابه صراحة ظهري المنسي — مع احتمال ان افقده — : ظهر البورجوازي الصغير الكلاسيكي الذي لا يسرّه اطلاقا ان يكون كذلك . وانا اقصد بعبارة « بورجوازي صغير » ، المستعملة اكثر مما ينبغي في غير محلها ، جميع الخجولين الذين يتركون لكلام الآخرين ان يسرق حياتهم .

ما دمنا قد آثرنا ان نكون صادقين ، فلنتحدث عن المحضر الرسمي . وقد حدث ذلك دائما في سيارة

تاكسي . ان كل انسان يعرف ان جميع الاحداث الجديرة بالذكر (اعني هذه الافكار المستحيلة التي تعبر برأسك فتغيّر حياتك ، تحملك على تغيير حياتك) تخطر لك في القطار او في السيارة او في الطائرة . وعند الاقتضاء، وانت تتبضع ، فيما انت سائر . اما بالنسبة الي ،فما ان استقل اية وسيلة نقل ، حتى انتظر الصاعقة ، وانا اعرف انها ستنقض . وتأتي الصاعقة .

الضربة الاولى للصاعقة : بعد عشاء غني ، وجدنا انفسنا ذات مساء ، انا ومتّى وميشو في سيارة تاكسي كانت تقلنا من بولفار سان جرمان نحو تلك الضفة اليمنى البليدة ، لندخل « مسرحا » يقع في احد تلك الشوارع غير المقصودة ، شارع يمتليء بالنوادي الليلية للاميركيين والمخازن الجنسية البائسة، والمطاعم الشرقية المزيّفة. وبمساعدة الكحول الذي يدفع الى انتهاك الحرمات، اقترحت على هنري ميشو ان يصبح شيئا ما كنجم سينمائي . فنظر الي بذلك الذهول المؤدب ، وان كان غير مجرد عن الفضول ، كرجل صغير اخضر يهبط من كوكب المريخ ، عند ركن شارع ، ليسألك كم الساعة . وكان المسرح مغلقا بسبب المرض . ولم تتجاوز الامور هذا الحد . وفيما بعد ، ذات ليلة من كانون الاول ١٩٧٣، كنت مع هنري ميشو على الرصيف الخالي لجادة الاوبرا نواجه بشجاعة ريحا ثلجية ، وفصّل لي ميشو ، على ذلك النحو الخاص به من البرهنة الحلزونية ، الاسباب التي كانت تجبره على رفض اقتراحي . ولما كنا خارجين من مسرحية رديئة رأينا فيها اربعة ازواج يتعرون بلا

دافع ظاهر وهم يشوّرون ويصيحون بنص ما كان بحاجة الا لان يُقال بلهجة حيادية متجردة ــ عرض من شدة اللطف بحيث كان يريد جهارا ان يستعير من المسرح المدعو بالاسم نفسه بعض القسوة ــ واذ لم تكن بنا رغبة بأن نستقل سيارة اجرة على الفور ، فقد اجمعنا بلا جهد على ان المسرح هو شكل مزيّف نهائيا ، وان الصورة وحدها ــ في السينما او الرسم ــ تستطيع بعد الآن ان تؤدي كل ما يطلب اليوم ان يكشف عن نفسه كما هو . وتركتني ، وانا منساق بهذه البديهية ، امضي الى ترديد طلبي ، مع احتمال المعاناة من الحرم الذي لا يعوّض . وكان يبدو لي فاضحا ، مؤلما ــ ولنقل مؤسفا ــ ان تتلاشى الكلمة المنطوقة لواحد من اثنين او ثلاثة مغامرين من عصرنا ــ الكلمة الصادقة ، المتزنة ، الممزقة كأي نص من نصوصه ــ ان تتلاشى معه ، والا تستطيع الاجيال القادمة ، كما يقال بفخامة ــ اقصد شخصين او ثلاثة في فترة قرن او قرنين ــ ان تعرف ماذا يشبه ذلك ، الا تستطيع ابدا ان ترى رأس ميشو . ان حديثا مفلّما او مقابلة او تحقيقا مصوّرا تسمح على الاقل بتحديد ملامح الشرغوف الاعلى ، او الخليّ الامرد ، او الراهب البوذي المتجاهل الاذى ، او سمّه ما شئت ، فلا أهمية هنا للكلمات . انه ما اغرتني البساطة باعتباره تذبذبا للارادة او مخططا للقبول ، تكشّف عندئذ كتصميم لاكثر من عملية رفض متوقعة ، مع تعديلات ومقاربات متلاحقة .

وسأحاذر ان اريد هنا وصف مسيرته الطويلة والدقيقة . ولنكتف بالقول ان جميع الاسباب التي

جعلت ميشو يعتبر مبادرتي مضحكة، ويعتبر من السذاجة ارادة التقاط صوته وملامحه ، ومن اللؤم انتهاك غفليته او اختفائيته ، اقنعتني بانني اذا لم اذهب لافتش في ادراجي، فلن البث طويلا حتى اصبح انا نفسي مشعوذا . ان ميشو الحقيقي هو ريشة . ان روحه في جسمه ، ولكن جسمه هو في ما يكتبه ـ تلك العملية من الاصفاق او من التكافؤ الارتجاعي التي تضفي على اللغة شرفها بالذات . وقد ادركت امام سيد لم يكن قد رفع القلم قط انه قد آن لي ان انشر اوراقي . الا يفش المرء وهو يصنع « الادب » (كما يصنع آخرون المسرح او الخطب) ،والا يضحي بتعبيره من اجل البلاغة ، وبعينيه من اجل النظر، وبكلمته الداخلية المتلمّسة من اجل ثنيات لفة راعشةاو مقنعة : ذلك ما يمكن تسميته « اخلاقية » ثورية . وليس يستوي عندي او لا يستوي ان أذكر بأني بدأت هذا الاستكشاف قبالة محطة سيارات الاجرة القائمة عند زاوية « سانت هونوريه » و« الكوميدي فرانسيز » .

الضربة الثانية للصاعقة : سأكون اكثر ايجازا ،لان هذه الضربة كانت اطول . واكثر مجازفة . ولنلخصها بعبارة قصيرة رمتني بها جون بيز ، ذات مساء من الشهر نفسه ، ولكن في سيارة اجرة اخرى كانت تقلنا الى اختتام « مؤتمر امنستي العالمي ضد التعذيب » . وكنت احاول ببلادة ان اشرح لها (وكنت لا اعرفها معرفة جيدة بعد) لماذا لا تبدو لي الاغنية السلاح الاكثر فعالية ضد التعذيب . وكان ينقصني ان ارى امرأة شابة دقيقة العود طويلة الشعر الاسود تنتصب امام منبر للسادة

المسنين وتغنّي ، بلا غيتار ولا مصاحبة موسيقية ،انشودة كئيبة يعبرهـا الامل مع ذلك ، تشبه لحن سير عسكريـا شبهـا غريبا . وكانت تلـك طريقة لاختتام مؤتمرتساوي جميع المناقشات السابقة. كان حشد من الاسرى والمعتقلين المذلّين في اربعـة أركان الدنيـا يثأر وينتصر في تلـك الالحان المنبثقـة من عمق الحنجرة . انها لسلاح مخيف هي الكرامة المنزوعة السلاح . لقد كنت اشاهد ، مـرة اخرى ، لحظة كاملة تمتزج فيهـا روح انسان وجسمه في حقيقة بسيطة . ان جون تغنّي ما هي ، وهي مـا تغني، بالشجاعة الساذجة نفسها التي تدفع ميشو ــ الذي يكـره الغناء مع الاسف ــ الى ان يتهجى منذ خمسين سنـة وجوده ، مـن غيـر ان يغش . تلـك العبارة اذن : « ان المغنّي أهمّ من الاغنيـة » .

هذه اذن هي المسبّبات التي اقنعتني بان اعطي الكلمة كذلك لكل ما يتمتم في اعماق نفوسنا ــ متنافرا ،متذبذبا، بـلا شكل . وبأن انشر هذه النتف التي لم تكـن مرصودة للنشر ، بل لان تتماسك في الحياة . خطـوط متكسّرة ، خطوط هاربة ربمـا تتلاقى عند نقطة انسجام يودّ المرء ، اذا بلغهـا يومـا ، ان يلقى عندها بعض اصدقاء . وسيبدو ان التعذيب والنضال والغناء قد هجرت هذه الاجترارات المنفـرة بعض الشيء ، مكررات المتوحّد هذه . ولعلهـا ان تكون ، في اضطراب الزمن ، اهداب الطحالب والنفايـات والزبد التي تخلّفهـا الموجـة ، وهي تنحسر ، علـى الرمـال .

بـاريس

كهوف مدانة او شقاء المحكوم

ان مـا تطرده هو ما يتسلّط عليك . ولدى أعدائك ، لا تواجه أبدا الا ّ نفسك . قل لي من تتجنّب ، اقل لك مـن انت . على ايّ خوف في الكهف بنيت انت نفسك ، محدّبا وبلا هلـع !

السجن يكون ، حين لا يستطيع المرء بعدُ ان يصعد من كهوفـه .

بيـان « اللاواقعيـة » الاول ؟

كل شيء يحمل على الاعتقاد بأنه ليس ثمة في الفكر تلك النقطة التي فيها تكفّ نظرية المجموعات الرياضية والشهوة الجنسية ، والمرحلة القصوى من الرأسمالية وجمود الحياة في الساعـة السابعة مساء ، واوامر التضحية الثورية ولـون الشمس الازرق ، والاطاحـة بالبورجوازية العالمية و«موسيقى الموتى » لموزارت ـ أقول كل شيء يحمل على الاعتقاد بانـه ليس ثمة في الفكر تلك النقطة التي تكفّ فيها كل هذه الامور عن ان تُدرَك تناقضيا . والحال ان مـن العبث ان يلتمس أحد لنشاطي الحقيقي دافعا آخر غير الامل في تحديد هـذه النقطـة .

معارضة تدنيسية. ولكن كلمة «فوواقعية» (سيريالية) اذا اختصرت منها السابقة الكريهة « فوق » ، بعد ثلث قرن ، فاني لا أرى ما عسى داعية من دعاة الواقعية يستطيع ان يُظهر من شيء آخر ، اليوم ، آذار ١٩٧٠ . كان السورياليون يختالون دفاعا عن « الآداب الجميلة » . اما نحن ، فنشرب النخب ـ لان هذه النقطة خدعة . فعند هذه النهاية ، لا يصل المرء الا ميتا . ولكنه اذا كان متيقنا تماما انه لن يبلغها ابدا، فلا شيء يستحق الحياة .

ان « السعداء » يحذفون واحدا من هذين التعبيرين ، الحميمي او الموضوعي . اما العاقلون فيعلّقون ، مرة والى الابد ، أحدهما بالآخر ، لا يهمّ أيّهما . واما الذرائعيون فيناوبون . واما الحمقى ، وأنا احدهم ، فيرفضون ان يختاروا .

ان حمير « بوريدان » الذين لا يريدون استبعاد شيء، لن يلبثوا طويلا حتى يُستبعدوا هم انفسهم ، من كل مكان .

انصاف لا متساوية حتى الافراط ، تاريخنا المقطّع

« عزيزي بيار ، لا ، لا ، لا تشك بي ابدا . ان الرسالة التي احسست فيها بذلك القدر الكبير من العذاب اللامجدي آلمتني كأنها شتيمة ، كأنها جريمة . أتراني أخطأت اذن بأن اكون ضعيفة الى ذلك الحد بين ذراعيك ، أتراني اخطأت

اذن بأن أريك كم كانت قبلتك تسعدني
ما دمت الآن لا ترى فيّ الا المتهكتة !..
اود ان احدثك اليوم كما لم افعل من
قبل قط ، وكما لو انك ، من جهة
أخرى ، لم تكن مقاتلا في خطر ، رجلا
تنبغي مراعاته ، وتدليله ، والرثاء له .
اصغ اليّ ، يا صغيري ، ستكون لي
تلك الشجاعة من اجلنا نحن
الاثنين ، من اجل حبنا ، من اجل
سعادتنا المقبلة ، تلك التي سنتذوقها
حين تعود . افهمني جيدا ، انني لا
اريد ان تعضك الغيرة هكذا . لا اريد
... يجب ان تطرد ذلك ، اريد هذا
واطلبه . اني اكنّ لك الحب الاعمق ،
والارق ، والارصن ، واحب قبلتك ، لا
القبلة ، يا بيار . قبلتك . تذكر..»

(اقتبس هذا من ايلوار ، في « طرق الشعر ودروبه الضيقة » . وهي رسالة امرأة مجهولة موجهة الى جندي في الجبهة اثناء الحرب العالمية الاولى ، وقد عثر عليها بين الرسائل الضائعة التي لم تصل الى المرسلة اليهم . وتحمل الرسالة على ظهرها اشارة مقتول » .)

لن يتذكر احد بيار ، ولا عشيقته ، والناس لا يبالون بذلك ، على اي حال . وينبغي الا يُبالي بذلك . فقد كان هناك مليون رسالة مشابهة منذ ذلك الحين ، وكل واحدة فريدة في نوعها . وتلك الاحلام والوان العطش والجنس

المستهلكة تضفي مع ذلك هذا اللون المنفّر من الرماد ، على جميع لوحات الشرف التي نرفعها لهذا الجيل او ذاك ، لحقبتنا او لحقبة الامس . ان الاجسام ضبابية مهتزّة ، والافعال هي التي تحسم . ولكن ماذا يمحو الآثار التي يخلّفها انسان على عصره ؟ الجوهري : هو نفسه ؟ او اللاجوهري ؟

ان الماً جسديا واحدا ـ حيّا واحدا قطّعته قنبلة في خندق او حيّاً آخر في غرفة تعذيب ـ يرفض كل محاسبة عقلانية ويجعلها فاضحة . ومع ذلك فان وحدة القياس لحقبة ما ليست هي الفرد ، واذا شئنا ان نتبيّن الامر بوضوح ، فينبغي ان نقيّم بالجملة ، وفق مقاييس اخرى . ان قائدا لا يحصي خسائره ليستبدل في وحداته اكثر الكائنات قابلية لعدم الاستبدال ، لن ينتصر في اية معركة . لماذا هو مستحيل ان نضع في المواجهة او على كفتي ميزان واحد شخصا ومعركته ، انسانا والناس الآخرين ؟ ان العالم يموت في كل انسان يموت . وليس من شيء يموت ابدا . ان ما هو الكلّ ، بالنسبة اليّ ، هو ، بالنسبة للكل ، حجّة للتغيير باشباع روتين البهجة والغيرة واللحم الذي يذبل . وجماع الحياة لا يتأكل ابدا بحذف حيّ من الاحياء، بل يبقى مساويا لنفسه ، مستعدا للعب على آخرين .

هل كان ثمن موت بيار انتصار « فردان » ؟ سؤال احمق ، لن يمنعني شيء من طرحه ابدا . ان حبة الرمل تلك التي حملتها ريح الحرب لا تساوي شيئا ، وفي الوقت نفسه تساوي اكثر بكثير من معرفة ما اذا كانت انكلترا او المانيا هي التي ينبغي ان تراقب الاسواق الاستعمارية . فيا ايها

« البيار ّات » الفريدون في نوعكم ، والزهيدو الثمن ، انكم ملايين لا تثير الاهتمام ، وانتم هذه الهنة من المطلقات التي لن تدركها ابدا شبكات التاريخ او النظرية التي لا تصعّد خيوطها الى النور الا ّ السمك الكبير المرئي جيدا المسمّى حروبا وثورات وابطالا وازمات ، الخ ـ وكلها منتوجات تؤكل وهي في حقيقتها عديمة الطعم !

ان بيار لا يساوي اكثر ولا أقل ّ ، ان قيمته تكمن « على نحو آخر » . والغريب انه ليس بالامكان الانتقال من « عزيزي بيار » الى « حرب ١٤ ــ ١٨ » كما يمكن الانتقال من العنصر الى المجموع ،من البيدق الى رقعة الشطرنج .ليس بالامكان جعلهما تحت النظرة نفسها ، ولا لصق الجزء بالكل ، ولا لصق بيار بالحرب الكبرى : ان هناك دائما شيئا يعرج ويهتز ويرتج ّ . والمأساة(او مهزلتي أنا) انه سيبدو لي ابدا على قدر متساو من الظلم والاعتباط والزيف ألا نميل ذراع الميزان الى جهة الكفّة التي يوضع فيها جميع « البيار ّات » و « الجاكات » و « البولات » الذين يحلمون بنسائهم وهم يعانون الوان الغيرة المطلقة والوساوس التي لا تقارن فيما بينها ، فيما هم يغفون اغفاءات مضطربة في خنادقهم ، او ان نميل ذراع ذلك الميزان من جهة الكفة التي وُضعت فيها حرب ١٤ ــ ١٨ الامبريالية كعتبة للقرن العشرين وممهد لثورة اكتوبر .

اثنان لن يكونا واحدا ابدا

اذا جهدت هذا الجهد كله لاميّز الوظيفة التاريخية

للكائن الفردي (في ادنى حادث ، عند ادنى مناضل ، الخ)، فذلك خشية ان اراهما يصابان بالعدوى ، يسخر احدهما بالآخر ، يقضي احدهما على الاخر ، في نهاية المطاف . وانه لصعق كهربائي متبادل أحسّه كتهديد خفيّ ، قادر على قلب جميع معتقداتي وعملي (او لاعملي !) الحاضر ، ما أفعله او أتصنّعه ، ولنقل « دوري » السياسي . هذه الاحتياطات تدل على همّ « علمي » جدا بأن أفلت من التشوّش الثقافي ، من العواطفية ، من انتروبولوجية المعاش الوجودي ، الخ : بالفعل ، حتى لا يؤدي انقطاع التيار الى تشوّشي انا بالذات. انني اراوغ هذا التسلّط وذلك الرعب (السخري ، باطل السياسي) : الوان من الخداع والتهرب تسند واجهة « المناضل » .

تسلّط مزدوج : فالحب والموسيقى والذكرى هي هزئية وباطلة بالنسبة للمهمات المطلوبة والتي « يحدّدني » نجاحها او اخفاقها ، وذلك الدور الذي « اقوم به » في شبكة الاحداثيات الموضوعية التي هي احداثيات عصري ، لا يحتمل الحب ولا ذكرى الطفولة الا كضرورات فيزيولوجية ، الا كالمقابل ، اللامكترث والعارض ، لقيمتي الموضوعية . وفي الوقت نفسه ، هناك بدهية ، ليست أقل قوة ، تدلّني على ان الحنين الى عطر الياسمين الهندي او الى استدارة نهد تحت الراحة ليسا هما فحم حياتي ، بل هما اللهب الحقيقي، ليسا هما الرماد ، بل النار التي تتلف جميعمعطيات التاريخ وستُعدم حقيقتي كمناضل ـ كمراهق يحرق لعبه الطفولية في الموقد. ولست ادري بعدُ ، في النهاية ، ايهما الطفل وايهما البالغ ، ما هو جادّ ، والباقي . انني

اتذبذب بين الاثنين ، متفحّصا على هـذا النحـو طبيعتـي « كمثقف ممزّق بيـن « العمل » و « رأس المال » ــ استدارة تدعـو الى الشفقة لاسقاط اخلاق الانسان على قدميه . ان الامور ليست على هذا القدر من البساطة ، كما يقول لينين ــ ــ الذي اوحت لي بساطته دائمـا اعجابا حاقدا علـى نحـو غـامض .

لا شـيء سياسـي كلّيـا

ليس من عمل الا مانويّا (الخط الفاصل اللينيني) ، فليكـن . والحال ان الحساسية والفهم لا يمكن ان يكونـا كذلك . وانا اميل تلقائيـا ومزاجيـا الى حل المسألة علـى هذا النحو : انني بنضالي اقسم العالم بين اصدقاء واعداء . هذا اكيد ، وانا اقبله . وهو مفيد ، واني اجعله مهمتي ، الواعية واليوميـة . ولكني لا « ادرك » ابدا هذه الفئـات تمامـا ، ولا أفرّدها . انـا أعلم اني احرّك مجردات . ان ذلك الرجل هو عدوي السياسي (او العسكري) ، ولكنـي اترك له بابا للخروج نحـو الداخل (بصفته فردا) . يُسهم فـي ذلـك :

١ ــ « اسمانيتي » : فالفرد ليس قابلا للمفهمـة . ان مفهوم البورجوازي يدلّ على جميـع هؤلاء البورجوازيين ، اذن على ذاك البورجوازي بصورة خاصة، ولكن في هذا الاخير اكثر ممـا في الكلمة التي تشير الى طبقته ، في التجريـد المناسب الذي يسمح بتحقيق هويته على ساحـة القـوى الاجتماعية المتصارعة ،

ب : ليبرالية كامنة : فعن طريق الامتيازات التي امنحها لخصمي ، انسحب على مهل من المعركة السياسية ، اتخلّص، احسب حساب النار . ايكون في ذلك ميل الى التسوية ؟ ام هي فردانية بورجوازية ؟ كان لينين يهاجم بعنف، ويعطي نفسه بعنف (ولكنه حفظ الصداقة لمارتوف بعد خصومتهما السياسية) . وبالمقابل ، فان استقلاليتك المعتزّة تسمح باستقلاليتي المعتزة ، اعط تُعط .

ج : خلفية لا أدرية قديمة ـ طريقة معينة للاحتفاظ بالحكم تؤدي الى الشكوكية . من يدري اذا . . حتى ان المرء لا يعرف ابدا ، في نهاية المطاف !

د : تمييز كامن ، مقنّع ، روحاني طبعا بين الظاهرة (السياسي) ومفهوم الشيء (نواة الكائنات المظلمة والتي لا ترى ، غير القابل للحكم) .

ولكن ماذا لو كان عليّ ان امارس مسؤوليات عملية ،ان ادافع عن دولة اشتراكية مثلا ؟ الا يتوجب عليّ آنذاك ان احاكم خصوما ، ان ادمرهم كليا ؟ لا يمكن القول :« انني ادينك كمخرّب وكمناهض للثورة ، ولكن ليس لي من مأخذ عليك بصفتك فردا ، شخصا غير قابل للارتهان . » ان عمود المشنقة او السجن لا يمكن ان يشطرا بهذا القدر من اللطافة . وعدالة الحكم لا تتماسك بعدُ امام استعجال العدالة الثورية . من اجل النجاة ، لا بدّ من الحكم، واذن لا بدّ من القتل ، جملة . ان دليل كون موقفي نظريا، هو انه لا يملك اية موضوعية . طبعا لانه عاطفي وشخصي : واذن لا سياسي .

كل شـــيء سياســـي

ان زمن حياة ما لا يؤسف له ولا يُحسّ به كالذي يفر او لا يتوقف عن الجريان ــ « أوقف طيرانك » وسطحيــات اخرى ــ بل كقطار فائت ، كاختيار خائب ، كدرب خاطيء . ان الحياة تتسلل بيــن اصابعنا كمــا السلطة بين ايــدي السياسيين عديمي المهارة . ان « ما ليس سابقا بعدُ يعنــي ما فات اوانه لكي . . ». الا يعرف المرء مجابهــة لحظــة الازمة ، الا يجرؤ :ذلك هو جذر السياسات الرديئــة . امــا جذر السياسات الجيدة فهو : « الآن او ابدا . ان كـــل تأخير يساوي الموت » (لينين ، أسبوع قبل اكتوبر) . وعلينا نحــن ان نحمل القرار ــ في الوقت المناسب .

ان حياتك (هاتان الكلمتان تضحكانني حين تلتصقان : فلست واثقــا من اني اعيش ، ولا حتى من كوني انسانا تحق له نعوت ملكيــة من مثل « حياتي » و« زوجتي »و« رأيي » و « حزبي ») ــ ان حياتك قد لاقــت تشعّبات ، كجميــع الحيوات ، ولكنها تاهت فيهــا . كنت في كل مرة تتهرب من ازمة التحديد : فأنت لم ترد ان تقوم بالقفزة ، ان تجازفبكل شيء ــ ان تتعرض لان لا تكون الا كاتبا ، فيلسوفا ، مغوارا . ولانك كنت تستشعــر بان القوى تعوزك ، تصورت انك تملك اكثر ممــا ينبغي من القوى لتوظفهــا كلهــا في طراز واحد من التعبير ، في عمل واحد . ولكي تقنّع « نقصك » الحقيقي، احتميت وراء فائض افتراضي ، وهو بمثابة الاعتراض الاقصى على « هذا فقط » . انــك لم تشأ ان تزول ابكر مما ينبغــي حتى يعيش يومــا كاتب ، وهكذا تنجــو . وانت لا تستطيع ان تكتب كمــا تريد وتتمنى ، لانك بعد كل حساب لا تأمل ولا

تثق بجدوى اللوغوس . وحين تباشر ، رغم كل شيء ، تفكيرا نظريا ، فانك لكي تبرر عجزك عن المضي به الى غايته ، تعترض على نفسك بأن ارتعاشة صوت بشري ،او صرخة مكتوبة بصورة سيئة او مجرد اغنية ، كل ذلك يصدي اصداء أبعد ، يذهب الى اعمق من جميع المعارف الموضوعية . وحين تبدأ صفحة تود ان تشبه أغنية ، يظهر لك ان آخرين قد سبق ان كتبوها الف مرة ، وبشكل افضل ، وانك تخون واجبك بمواجهة الهدف القذر عالم الامبريالية الموضوعي، وان كلمة تساوي ما تساويه حياة من يتكلم ــ الذي لا يساوي ، على اي حال ، الا ما يساويه موته . ان تحليل معركة الآخرين لا اهمية له ولا جدية فيه الا اذا مات المحلل وهو يحارب ، لانك انت أيضا لا تؤمن الا بالشهود القادرين على ان يُقتلوا . وبالاجمال ، فان ما لست اياه يلاحق ما هو اياك كالندم ، كالذي كان ينبغي ان يكون ، وفي النهاية ، اذ تحيل نفسك دائما الى الآخر ، فانك تكف عن ان تعرف من ينبغي ان تكونه . وتمر الايام ، وحياتك معها ، دائما الى جانبها .

سحر الكلمات المضبوط

لو كان المرء يعرف دفعة واحدة كيف يُسمّى ، لما كان يضيع وقته باعتبار نفسه شخصا آخر . بطاقتي الاولى(تلك التي كان ينبغي ان تسلّم لي عند خروجي من الطفولة) : « عاطفي حتى التطرف ، ضعيف ثقافيا ، ميّال الى عدم الانسجام ، فاقد الارادة ، متوزّع ، ولكنه ليس رديئا على

صعيد العصب البصري ، ساقان جيدتـان ، كلوتان صلبتان الخ . » وفي اسفل بطاقـة الهوية ، فـي الخامسة عشرة ، يمكن تصوّر لائحة من النصائح الغاية منها ، بعد عشرين سنة، اذا أخذنا امكاناتنا بعين الاعتبار ، الحصول على مردود امثل. من مثل : « اكتب ثلاث صفحات شهريا . احب هذه المرأة ،لا تلـك : اعط نفسك بضع دقائق من السكر قبل الموت ، ولكن حذار خصوصا ان تفكر لحظة بان تخلد في اذهان البشر ، الخ . » نصائح تافهة ، ولكنها مفيدة .

. . . .

حتى الهموم الارصادية التي لا يهدئها الا الكلمة وحدها. لقد حدّثني الحارس عن موجة من الجفاف تجتاح البـلاد . وبعد ان عرفت حالة الجو ، اعادتني كلمة « جفاف » الـى الهدوء . كان انقطاع المطر هذا ، وتلك الليالي التي لا تطاق، شأنهـا شأن النهار ، تحت ذلك السقف من الزنك الذي يعكس في منتصف الليل درجات الظلّ الاثنتين والاربعين عند الظهر، كان ذلك يذلني ، يميّعني ، يوقعني في الذعر . ولكن كلمـة الحارس تعطيني مفتاح هذا الترديد الذي لا يفسّر ، كقضية تعزّيني بنتائجها . لم يكن لي بعـد ان اهتم بشدّة الحرارة تلـك ، فأنا اعرف اسمها ، وكل نهار وكل ليل « متطابقان » مع تعريفهمـا . وان مـا يقلق الآن هو ان يهطل المطر .

. . . .

كلمة « انحسار » العجائبية ، احتجت الى ثلاثة اعوام لاجدها ، لاجرؤ على ان اجدها . تلك هي اخيـرا «مسمّاة» جميع الخيبات و « التعقيدات اللامتوقعـــة » و« المهـل

الضرورية » ـ هذه المراوحات الثورية التي لا تُصدّق ، اليوم في اميركـا اللاتينية . هذه الكلمة « انحسار » قد نظّمت هذه « الاخفاقات » وجعلتهـا منطبقة ، قابلـة للتنبؤ ، ومُرضية بعض الشيء . انهـا تكاد توقـع في التطرّف المعكوس : فالحق ان نصرا مـا يقلقني اذا حدث ، كطلقـة مسدس في هذه الجوقة من الحسرات والنسيانات المعجلـة التي أحضرها (في الداخل وفي الجوار) منذ اعتقالي .

. . . .

كلمة « الحب » ، الكلمة السيدة ، القفزة الحاسمة في المجد والالم الخاصين بهذا الباب الالفيّ . الكونت موسكـا ، حين رأى فابريس والسانسفيرينا ذاهبين معا : « اذا لُفظت الكلمة ، انتهيت :وبعد ان تكون قد لُفظت ، لن يبقى لهما الاّ ان يفعلاها . » الكلمة ليست تعميد الفعل ، بل هي توليده . يجب ان يُنظر في ذهن فابريس صعود الكلمة الحاسمة ببطء بينه وبيـن خالته ، تلك الكلمـة التي احس بأنهـا اذ تَلفظ، فان علاقاتهما كلها ستتغيرلونا وحسّا واتجاها. ويجب تصوّر مناقشة موسكا الداخلية حولمعرفة ما آذا كانتكلمة«غيرة» ينبغي او لا ينبغي ان تَلفظ امام الدوقة الخ . .

ان مـا يجعل من ستاندال الكاتب السياسي الممتـاز (باعتبار ان الحب قضية سياسية) هو ان جميع آثاره تدور حول : ١) علاقات « التمثيل » و« الكينونة » ، وعلاقـات « الرياء » و « الطبعية » ، والمصطنع والصادق ـ علاقـات دقيقة تشكل غالبا دائرة مفرغة (كيف يقوم شخص مثـلا بتصريح غرامي فيمـا هـو يحتفظ بكل طبعيته وخاصـة بتأثيره على المحبـوب : مسألة خطيرة) . ٢) اختيار اللحظة

المناسبة ، الازمة ــ الانفجار : لحظة السعادة التي ينبغي التقاطها في اللحظة والتعبير عنها على الفور ، محك النجاح في الحب ، وفي السياسة ، وفي الادب وفي الوجود ، ٣) القلق امام الكلمة الصحيحة ، الفرار امام مجيئها ، حتى اذا اصبحت هناك ، فعلا تاجزا ، تأتي الشجاعة الضرورية لاستخراج جميع النتائج العملية . ايكون حبا ؟ هل أحبها ؟ نعم ، انني اذن احتاجها ، وبأسرع ما يمكن .

يجب ان يعالج المرء جدليا ، بصفته لينينيا ، « ازماته » الشخصية ومحنه العابرة . وحتى لا يفر ، يجب ان يظل ذاكرا ، في هذه اللحظات ــ المشاعب ، ان الفرار الى امام هو الطريقة الوحيدة لانقاذ المكتسب . فلانقاذ مكتسب فبراير ، يجب الارتماء في ثورة اكتوبر (والا فالعودة الى كورنيلوف) . ولانقاذ ثورة كوبا ٥٩ ، يجب الارتماء بثورة كوبا ٦١ ، تحقيق القفزة ، الانتقال الى الاشتراكية ، (والا فالعودة الى باتيستا) .

على المرء ان يواجه ما يتطلب تنظيما ، عملا دائبا يوميا في التنظيم الحميم ، عملا لا يكلّ ولا يعود الا بمجد قليل ، احصاء النقاط القوية والنقاط الضعيفة لديه . انه ، بادىء ذي بدء ، اكتساب معجمه الخاص ورقابته : كيف أسمّى ؟ وما عساها تكون الكلمات التي تليق بي ؟ واية تسميات احبّ ان اكتسب ؟ »

ان اهدافي الحربية ، في نهاية المطاف ، ستكون بضع « كلمات » مستحقة ، نعوتا مكتسبة بشرف : نزيه ، مستقيم ، متبصر ، مقاوم ، منطقي ، غير مساوم .

ثوري محلول الانضواء ، ولكنه ينضوي بدقة في تيار التقاليـد التاريخية . ان تيار نهـر ما يفترض تغييـــرا للمستوى الطبيعي . وفي التاريخ كذلك انحدار ، فمع الماضي العالي ، المستقبل المنحدر . اننا « نهبط » من الماضي .ولكن بالامكـان استعمال الطاقـة الطبيعية لمجرى ماء بشكـــل اصطناعي وردّها ضد ذاتها : حاجز ، سـد ، تحريف . يجب ان نستعمل الطاقة التي تضعهـا تحت تصرفنا قوى الماضي من اجل ان نقنّيهـا نحـو اهدافنا الخاصة ، وعند الحاجة، من اجل ان نسيطر على هذه القوى ونعدمها ، ولكـن ذلك سيكـون دائمـا ، على وجهمن الوجوه ، اعداما ـ ذاتيا .

ذلك كان شأن الشيوعيين الصينيين في استعمالهـــم للاخلاق الكونفوشيوسية وطريقة تفكيرهـا ورياضياتهـــا للقضاء على ارث الكونفوشيوسية . ان الطاقـة عمل فطرة ، فهي موجودة باستقلال عن ارادتنا ـ ولكن مراقبتهـا عمـل تاريخ (كطراز تقني لتحقيق غاية سياسية) . وبالاجمال ،فانه يستوي في الحماقة تمجيد او كره كل ما يتصل بالتقاليد ، وتمجيد او كره فيض الانهار او حقول الفحـــم الحجري او شلالات نياغارا . ان في ذلك، تحت شكلي الرفض أو العبادة، سلوكا سحريا ، ثقافيا . اما السلوك السياسي ، العملـي ، فيكتفي بطرح السؤال : « ما دام هذا قد حدث ، فما عساي افعـل بـه ؟ »

ان فك الانضواء ليس هو يوتوبيا عمل حر ،« فيالهواء»، يدعي انحلاله من اي ضغط موضوعي ، من كـــل الارث

الاجتماعي . واقل من ذلك رفض ضغوط التنظيم . فهـذه الضغوط ليست فقط محتمة ، بل هي محرّكة . لان الانسان انمـا يمكـن ان يكون منتج تاريخ بصفته فقط منتجـا لتاريـخ مـا .

ان فك الانضواء يتلخص بما يلي : الاعتراف بأن هناك « أبا » ، مع عدم منح « الابوّة » سلطـة الاسطورة . او على الاصح ، اذا كان ثمـة اسطورةحيث يكون ثمة « أب »، فحذار اتخاذ الاسطورة سببا كافيا ، وانما اتخاذهـا جهـلا ضروريـا ـ جهلا ليس على الاطلاق خارجيـا ، هامشيا ، مجنونا ، جهـلا في قلب الاسباب التاريخية ،بل اتخاذهـا جهلا ينبغي الا يستعمل بسبب ذلك غمامة او قناعا او حجة.

فك الانضواء = عمـلا عنيدا ، نقدا ذاتيـا ونقـدا ، مستمرا وغير متساو ، لفك الارتهان ، مصحوبا بوعي الطابع الضروري للارتهان . وهو وعي ليس بالضرورة مأساويا (فهذا يتوقف على نموذج الضرورة الذي يُنسب الى « الارتهـان » ، أهو نسبي ـ تاريخي او انتروبولوجي ـ مطلق)٠ .

ابتـذال الشعـراء

الشعر امرأة . وهناك لحظة في الحياة نتصرف فيهـا كالنساء تجاه الكلمـات . نغلق المصاريع ، ونشعل كتـب الشعراء كشموع ملوّنة ، فتأتينا صور وايقـاعات لنلتقط « اللحظة » ونحفظها . وبين الخامسة عشرة والثامنة عشرة (تقدير شخصي) تكـون لحظـة الهرب والرغبة الاولى . وما اشد ما يجنـد الحب اللغـة ويشعل النـار في مكتسب من

القــراءات الجديدة ويدفع الى الجراة والذكاء والاختراع . الحب او على الاصح عتبة قوى الجسم وصدرها واكتشافها. والروح تصبح كذلك شيئا من مادة ومن ضرورة ، فتأخــذ تغني بدقة لفــة من اللفات . واذ ذاك ، نكون كلنــا شعراء ، نفتذي بالشعر ، وتصبح الحدود بين التقليد والخلق ، وبين المعلوم والجديد ، تصبح ذات مسام . نكتب كايلوار ، كرنيــه شار ، كأبولينير ، وهو بالاجمال اضمن وسيلة لنصبح عنــد الاقتضاء ايلوار او شار اوابولينير ، اي شاعرا جديــــدا ينتهي به الامر ، لفرط مــا يجتر شعر الآخرين ، الى اعــادة خلقه . كل شيء يتوقف على العناد ،على اللاوعي، على انعدام حس السخري الذي يسمح بان يمد المرء ، فيما وراء المراهقة، لحظــات النشوة الكلاميــة هذه التي تتوحد بهــا السعادة مع سعادة التعبير . واولئكالذين يبقون اوفياء لمراهقتهم ،فيما هم يحوّلون الى عمل منهجي هذه الحمّيات المتقطعة ، يملكون الحظوظ كلها بأن يصبحوا « شعراء » . ان الشاعر الكبيــر يردد طوال حياته طريقته في مباشرة هذه « اللحظات » ،فهو يعدل النغمــة نفسها ، وينغّم اللحن الاساسي ذاته . وهــذا التكرار هو الذي يفدو اسلوبه ، وهو الذي نحب ان نطمئــن الى ان نجــده فيه ، حين نفتح آثاره عرضا . مزيــج ما من المفاجأة والرتابة ، من الآنية والاطراد ، شيء غير قابلللترجمة وهو مع ذلك مرموز ــ تلــك هي صيغة الشاعر التي تسمــح له ان ينتقلَ الى الخلود . لا بد من وقت ما ليستطيع المرء ان يعامل طفولته ، هكذا ، بجدية ،طوال حيــاة برمتها . ان انبهارنــا امام رامبو مصدره انه ترك لنــا عناية ان نكتشف رموزه ، اذ انه لم يملــك الوقت ليضبطها هــو نفسه . اذ

ذاك يظهـر انفكاك عنصري المركب الشعري ومقوّميه بفعـل مساعدة القاريء . فالجملة المفصولة عن نهايتها وعن تنقيطها تتحول الى نداء للنجدة ، ولكـن ايضا الى نـوع من السخرية والاستفزاز المزدري (= ليفهم مـن استطاع + من يحبني يتبعني). وهذا هو ايضا ،على نحو ما ، التأثير «اللوترياموني» .

ليس الشعر على الاطلاق امتياز الشعراء ، بل هـو حالة استثناء مأخوذة ومحوّلة ومحضرة (تحضيرا جديا) بقاعدة . انه لحظة عرفناها جميعا ، ولكن بعض البالغين فقط استطاعوا ان يقيموا فيهـا نهائيا . ان الشاعر تجحظ عيناه حبا طـوال حياته ، وهو يحب كل يوم المرأة التي يحبهـا كما لو انهـا كانت المرة الاولى المرأة الاولى ـ وقصيدته اليوميـة هي هذه المفاجـأة نفسهـا . وهـو ان لم يكن دائمـا مفترع الامس ، فلا حاجة به بعـد الى الكتابة ، كمـا اني اشك في ان تستطيع كتاباته ان تكون في متناولنـا وان تفعل فينا لو لـم نكـن نرى فيها صورة ما كان بامكاننـا نحـن يومـا ان نكتبـه ، انعكاس حالة هي حالتنا « او تكاد » . ان اللغة الشعريـة ذكرى . وما يوحدنـا بالشعراء هـو انهم يتكلمون باسـم ماضينا ، باسم وهم ، باسم طمع من ماض (ما همّ ان كـان هذا الماضي ماضينا حقا ام لا . واجمل من ذلك اذا استطاع الشعر ان يقنعنـا لحظـة قصيرة بما لم يكـن ، ويجعلنـا نعتقـد انـا نحـن ايضا قـد كتبنا سابقا « اغنية المحـبوب التعيس » بعد أوّل خدعة نُصبت لنـا) ان ما يجمعنا بهم هو الصلـة التي تشدّنـا الى هذا الجـزء من نفسنا الذي كبته البالغ ، وقـوة الاشياء ، والرقابات ، وكليشيهات الحياة اليوميـة والمشتركة ، واسباب العقل الجيدة والرديئة الذي

يصنع التاريخ . ولو لـم تقطع هذه الصلة لما كانت بنا حاجة الى الشعراء ، ولخسرت جاذبية الجهاز الشعري وظيفتهـا . ولكـن هذا الانقطاع كان كليا ، ولو لـم تكـن اللغة الشعرية غير مستهلكـة بصورة مؤلمة ، لكانت غريبة عنا ، وما كـانت لتكـون تنـا هـذا التدريب الشاق والباهر للذاكرة . ان قصيدة جميلة تتهم : « هـذا مـا كنت ، ايها القاريء ، غير اميـن لـه . هذا مـا لـم تجرؤ على قوله ، هذا مـا خنقته في حنجرتك حشمتك وخمولك . اترى ، لقد ظللت انا امينا على اندفاعات مراهقتك الضارية . انني آحلامـك وجنسك ومتطلباتك ، وكل ما تَخرسه . اتحداك ان تنساني . انـي انا الذي فقدته ، انني ندمك » .

ولمـا لم يكن بامكـان المرء كل صباح ان يستيقظ على « العالم الجديد » ، ان يفتح عينيه ، عيني العاشقالمندهش ، على الاشياء والكائنات ، فهناك غالبـا بعض المصطنع والمَجهد والتمثيلي في قصائد الكبار المجبرين على أن يمثلوا دورالشاب العجوز ليستمروا في اندفاعتهم . هناك مثلا مهارة ايلـوار احيانـا في تصنعاته العشقية . وبلاغية عيون السا ، اطروحة ذات مفاجئات ، كمـا يقال ذات تنوعات . ولكن ينبغي ان نتذكـر انه يجب بذل الكثير من الصنعة والاجتهادوالدورات والاستعارات لكي يُعـاد ، باللكمـات ، تكويـن واقع المباشر والاحساس الجديد ، ولكي يقام تمثال لحظة معاشة . كثير من الصنـاعة للالتقاء ، من الجهة الاخرى ، بالطبيعي . ان الاشخاص المبتذلين الذيـن يؤكدون انهم يحسـون ، من غير ان يستطيعـوا التعبيـر بدقة ، لا يقولون شيئا فقط ،ولكنهم كذلك يُحسّون اقل . ان البراءة ، في الفـن ، مهارة . ان

على المرء ان يكون متصنعا بعض الشيء ليستطيع ان يقول حقيقته .

الغاية : حمل المراة على محمل الجد – الوسيلة الوحيدة للتخلص من العشقيّة والنفاذ الى اخلاقية للجسد – على محمل « الحب » ، على محمل « الشعر » ، ولكن بأحرف صغيرة دقيقة ، من طراز « ايلوار » ناقصا الطراز .

يجب على المرء أن يشيخ داخل مراهقته ، وان يتطلب من نفسه رغائب جديدة ، وان يتصرّف بحيث لا يظهر شيء الاّ منبثقا .

كل شيء نسبي

في نظر المطلق ، اي بالنسبة لمن يتوجب عليه ان يحكم بعد ثلاثمئة سنة ، ليس هناك اي تفوّق اخلاقي في انفاق الوقت بالكتابة الصباحية في زنزانة على انفاق الوقت في نحت قطع من احجار الشطرنج تؤخذ من ذراع مكنسة امام باب بيت . واذن ، فان عليك ان تبتلع احتقارك الذي ليست مشروعيته الا مباشرة ، ومعاصرة لقيم الجوانيّة المسيحية او المسؤولية الاخلاقية التي هي قيم اللحظة . والواقع ان القضية بالنسبة لك ، كما بالنسبة لفلان ، ليست الا ان تنسى الزمن ، وان تهدّيء عذاب الانتظار . الفرق الوحيد هو انك تعرف بلا شك معرفة افضل ان ليس شيء هناك للانتظار ، وان الجوهري يكمن في الجهد الذي يبذله المرء ليخفي عن نفسه هذا الشيء . انك تعي ، في جديتك ، ما هو سُخري ، وتحمل على محمل الجدّ همومه السخرية . وربما كان كل شيء يرجع الى سيطرة ما على مفردات

لفـة ، الى فـن ما للتمويه يميّز الانسان « المشترك » عـن المثقف ، الانسان العادي عن الحيوان المريض .

السينما اقدم فــن في العالم

اللاوعي ، الطفولة ، الحلم ، كل ما ينتسب الى أسّ الشخصية العادي ، يفكـر بالصور ، او على الاصح ، يعيش بالصور (تطور بدائي) . ان الكلمة والكتاب يذهبان ، امـا الصورة والفيلم فيبقيـان . وان خطأ السينمائيين التعبيريين ، وعلى نطاق اوسع ، الفقـر الايحائي لفن العجيب في السينما يأتيـان من انهمـا يريدان تزويـد الصورة بمحتوى حلمي ، ومنحهـا صراحـة صفات الفكر اللاواعي او نصف الوعي . وذلك حشو يتجـاوز كونه غير مجد الى كونه مدمرا للذات . ان تلـك الصفات عَرَفية ، وهي تفقد الصورة اثرها الفريد الاستثنائي الذي هي مدينة به لابتذال محتواها بالذات (والاثر يأتي من مكانها في المتوالية ومن تتابعها وكذلك من التأطيـر والاضاءة ، الخ) . ذلك اننـا نحلم صورا « طبيعية » مقتبسة من الحياة اليومية . ومـا يعوّل عليه هـو تركيبهـا وتبديلها ومـا هـو غير متوقّع في الوصلات . ان اجادة تصويـر الواقع هو اكثر الامور حلمية . وتستطيع صفحة وجه ان تكفي لتغيير عاداتنا ، وتغريبنا والحفر في اعمق اعماقنـا . من اجل ذلك ، بلا شك ، كانت الصور التي قاومت فـي مخيلتي افضل مقاومة ، وكانت اشد الصور لصوقا وحميمية وامـانة ولم تغادرني قط ، هي التي لا تمثل اي طابع عجيب او شاذ او مجاوز الحد : جون كرافورد واضعـة مرفقها على المشرب ، ابطال « جول وجيم » ممتطين الدراجـات تحـت

الشمس (انني اسمع الضحكات ، واشم الصنوبر والبحر وحتى رائحة شعر جان مورو المحلول ، ومداهمة البحر تلك القلقة قبل الوصول الى الشاطيء) ، اليدا فالي تحت وشاحها الاسود ، واقفة كأنها حورية حب «أرينية» (ثوبها ازرق بستل من قماش القرينول ، كما اظن ، وثمة ضبابة تطفو في البندقية ، جو احمر او خبّازي)، اورسون ويلز في الظل داخل غرفة ذات سقف منخفض بصوته القبري (مستوى بتأطير مائل في « لمسة الشيطان ») ان هذه الصور الحاضرة اشبه بتبليغات من الحياة تأتيني من الماضي ، من حياة سابقة اسطورية لانها بسيطة جدا وطبيعية ، تمنحني اليقين بان وجودي الحالي ، وهذه الجدران المهدمة، وهذه الشمس التي لا تنتهي ، وتلك الرتابة هي كلها مصطنعة وبلا اهمية ، وانها لا تُعتبر من الحياة (سنوات لا بد ان تُخرج من مجموع السنوات التي سأعطاها ، ولن يكون لها حساب لتحديد مبلغ نفقتي في صندوق تقاعد الفاشلين) ، وانها ليست في نهاية المطاف الا حلما رديئا ينبغي الا يكترث له . تلك الصور القليلة المحفوظة ،هي ما كنته وما لا ازاله ، بعد كل حساب : فانا « جوني غيتار » او « جول وجيم » او « سانسو » .

قياس الفن السابع

١ ـ الخيالي = الحاضر = المجرد من القيمة (وهو ما لا اود ان اتطابق معه،ما لا بدّ لي من ان اكونه دون ان اريد ان اكونه ، ما لا يستجيب للمثل الاعلى ، اي للفكرة التي اخذتها عن حياتي بين ١٤ و٢٠ عاما)

٢ ـ الواقع = ما هـو في مكـان آخـر من غير ان يكـون غريبا عنـي = لا وعيي ، داخلي الآخر = قيمي التي هي في حقيقتهـا صور .

٣ ـ الواقع هو صورة .

الغائبون الاعزاء ، اخوتنا المضحكون

الايديولوجية (بمعنى الكلمة التحقيري او الساخـر) هي دائمـا ايديولوجية الاخرين : ما المقصود بذلك ؟ ان المرء لا يسخـر بنفسه ؟ المقصود هو : ان من طبيعة الايديولوجية ان يكـون المرء فيهـا اعمى ، بمقدار ما لا يستطيع الا ان يكون اعمى بالنسبة لنفسه ولزمنه ولطبقته ولعائلته . اننا نلتصـق بالايديولوجيـة المحيطـة كالاسفنجة . وهي من اجل ذلـك لا تمنح نفسهـا ولا تعرّض نفسها كما هي ، وانمـا كمجرد « حس سليم » ، وهذا بديهـي . « انا ، يا سيدي ، لا ايديولوجية لي ، ولكني اعتقد . . » تلك هي الصيغة المحتومة للخطاب الايديولوجي . ومـا ان يكف البديهي عن ان يكـون بديهيـا ، حتى تتجسد الايديولوجية : ذلـك ان المرء لا يكون بعدُ ضحيتها . فقد حلّت محلها ايـديولوجيـة اخـرى . ولقد انتهت حقبة من التاريخ او من الفكر . فأصبح مباحـا الاستهزاء بهـا . وهكذا يكون لتبصرنا تجاه الحقب التامة قفا بالضرورة هو عمانا امام وجه ما في حاضرنا من ايديولوجي . فكيف لنـا ان نكشف ، عندنا وفينا وحولنا ، المضحك الذي لا يُضحك والاجوف الذي يخلّف حس الامتلاء ؟

انها لظاهرة غريبة مثلا ، ان ظاهرة شيخوخة النصوص تطبع محاور حُقب الالتحام ، اي التوافقات . متى يصبـح

نص ما « غير قابل للقراءة » ؟ ومتى يحمل نص ما على الابتسام ؟ رومان رولان ، او مالرو في عهد خَطب قاعة « بلايل » : لم يعد ممكنا حمل ذلك على محمل الجد ،فقد انتقل الى المتحف ، وان المرء ليتساءل : كيف حدث ان تم هذا ؟ ومن جانبنا ؟ رومان رولان في موسكو عام ٣٥ ، رئيس رابطة مناهضة الفاشية ، ومالرو ــ تالمان ، وديمتروف ! .. ولكن بعد عشرين عاما ، حين يقرأ الناس نظرياتنا حول « التأثيرات المميزة للبنية المفصلة على الحقل المميز » الخ ، وكل لفظيتنا النظرية ، فسيضحكون بتشنج. لا اوهام بعد. فالنصوص البهلوانية اصبحت معروفة .

يجب التمييز بين نماذج اللغة : فقد يكون النموذج نفسه من اللغة (حين يشغل الافكار نفسها والتنظيم المفهومي نفسه ، وحتى الكلمات نفسها) ثقيلا او خفيفا . هناك « خطاب فارغ » و « خطاب ممتليء » : بداهة اصغاء . فمثلا، فلان يكرر « التوسر » ، ولكن على طراز الفراغ . وهذا الفراغ يعكس على خطاب « المعلم » ، المليء مع ذلك ، فراغه الممكن كتهديد سري معروض ومكشوف فجأة . ان المرء لا يستطيع بعد ، بمعنى من المعاني ، ان يقرأ التوسر بالطريقة نفسها بعد ان يكون قد استمع الى قروده ــ التي تشيخه وتدخله فجأة الى الماضي ، وتقطع خيط السذاجة المعاصرة . وربما كان البعض الآن ما سيصبحه هو بعد اربعين عاما .

ان نصوص حقبة معينة ليس لها كلها السن نفسها . فالشيخوخة تتم في « الايديولوجي » باسرع منها في الفني او في « الادبي » . ولكن للزمن الادبي كذلك حيله وانشطاراته: انه الادب « الصغير » ، الطراز الاصفر الذي يقاوم

اكثـــر . فـالابهـة والاسلوب الفخم والنصوص البارعـة اللغـة سرعـان مـا تُنفّس . وان ما يمس الحياة الحميمة وفن التراسل والمذكرات ، وما يكتب من غير اهتمام بالجمهور ، يبقى افضل . ان البلاغي ينهار . اما الوصفي ، والحكائي بشكل دقيق ، والقريب من الحسي المعاش ومن المظاهر ، « فيصمد » . واما التفكري والخطابي و « ادب الافكار » والدعايـة الاخلاقية فيتجعد في عشر سنوات . ان الاهتمام بالجمهـور ، ودافـع القراءة ، والتماس التأثير (فالنضالية في الادب هي دائمـا تمثيل فاشل) تربط الادب بالدائرة الايديولوجية وتلقحه على هـذا النحو ببذرة الضعف الخاصة بهذه الدائرة .

لقد كُتبت روايـة « جان كريستوف » في الحقبة التي كان بروست يجمع فيها مراحل « الزمن الضائع » . وقـد ماتت الرواية الاولى ، وظلت الثانيـة حيّة . ومع ذلـك فان « العبقرية » خالدة ، كما يقولون ، خلـــود « القلب » . ان القضية قضية الكتابة اكثر منها قضية الموضوع . هل هناك ابلى من عالم بروست ؟ وما ينقص رولان هو ارساء التحليل في المعاش . ان الحياة اطروحة ، ابتهال ، حرف بداية ، وليست موضوعا . ان نشيد الحياة بلا حياة ، كما ان الابتهال الى الفكر هـو ابدا بليد ، ورقـة الروح مبتذلة . القاعدة : ما هـــو رفيع مسطح . والرفعة تأتيه من وهم بصري يضرب كـــل معاصرة . واذ تُعيد المدة (او التحوّل الايديولوجي) ترتيب المنظورات ، فـان ما هو « رفيع » يسقط مسطحا .

ليس هناك من عامّ الا في المفرد : لقد كرر « جيـد » ذلك ، ولكنه لم يبلـغ ابدا الا العمومية ، حالة العامّ حيـن لا يُلتقط في المفـرد .

واذن ، فان مـا يمكـن ان يكـون لازمنيا في الفن هو

ما يُلمتس في فرادة حقبة خاصّة يفكر فيهـا بسذاجة . اثبات تافه . ولكنه متناقض :

ان بروست يسخر من سانت ــ بوف لانه لم يستطع ان يحقق برنامجه النقدي الذي يقوم علـى ان يتعرّف ويكشف للجمهور ويضع يده على كبار كتّاب عصره . ان يميز ، عنـد لحظة الحصاد نفسها ، القمح من الزؤان . ان يخط الخط ــ ان يميّز . وهو برنامج ممتاز ، يملكه كل منا في ميدانه . وقد لاحظ بروست ان سانت ــ بوف قد وضع ستاندال على الرف الثاني بين « سيناك دوميلهان » و « فيك دازير » ،الى جانب « التون شي » ومن لست ادريه بعد . لقد كان سانت ــ بوف ، الفرنسي بشكل سافل ، كاتب عدل . اما بروست فكـان يعرف ان يميّز الرجال العباقرة ، الزهور الفريدةفي عصره الادبي . وكانوا يسمون بول بورجيه ، بويلبف ، هنري دو رينيه ، فرانس وفرانسيس جيمس . وفي الاعلى : باريس وبيير لوتي . . ان هذا ليدعو الى التفكير .

التفكير في الآتي : ان الايديولوجية هي دائما التي نخرج منهـا ، ايديولوجية الماضي . امـا بالنسبـة للحاضر ، فالايديولوجية هي غاز لا لون لـه ولا طعـم ولا رائحة . . كالاوكسجين . انهـا هواؤنـا النقي ، وبدونه نموت . وهؤلاء المـؤلفون الذيـن ذكرهم بروست كنموذجيين ، كبديهيين ، ينتسبون جميعـا للادب الايديولوجي (اذا بحثنـا وجدنا انه ليس من ادب بلا ايديولوجية طبعا) وهذا ما يتيح لبروست في مرحلة ثانية ، ان يقولب معهم ايديولوجيـة ادبية (ليست هي ايديولوجيته ، على الاقل سطحيا ، انظر نهاية « الزمـن الضائـع » .)

ان زمننـــا ليس هو ابدا زمننا . فنحن مرتهنـــــون للمعاصر ، والايديولوجية هي ارتهانه ، طراز حياة المعاصر ، طريقتنا في الا تراه . سحـــر الرؤى المباشرة : ان زمننـــا يسجل على النقطة العمياء لشبكية العين . ان مـــا هـــو الاقرب هـــو الابعد . وحين نأخذ عن هذا الزمن رؤيـــــة واضحـــة ، بانورامية ، يكف عـــن ان يكون زمننا . سنراه جيدا ، ولكـــن بصفته « حقبة » ،هذه الكوكبة من النجـــوم المضحكـــة ، ذات المواقف المؤثرة ، والكلام الكبير اللامجدي، والاحداث غير المفهومة ، والاوهام والازياء المضحكة . كـــان ذلك « ما قبل الحرب » ،عام ٣٦ ، ١٤ تموز ، الحقبةالجميلة: صدمة صغيرة في رأسنا العامر بالصور القديمة والنصوص والجمل الجاهزة. صحيح اننا نبتسم ،ولكن ذلك كان ممزّقا. اننـــا نشفق ، ولكـــن علينـــا نحـــن بالذات يجب ان نشفق. تلـــك الاخطاء ، تلـــك الحيوات الفاشلة ،تلـــك الآمـــــال الخائبة ، تـــلك النظارات وتلـــك الفلالات ــ سنصبح هـــذا كله ذات يوم . لا شيء الا شفقة مَرِحة .

(بهذا المعنى ، يكون الخبر التافه في جريدة هو الشكل العصري للخلود،لعدم البلى. ونموذجه :« صفحة الرياضة » : هـــي مختلفـــة دائمـــا ، فيمـــا هـــي دائمـــا نفسهـــا فالرياضة التي هي نشاط محرّر علـــى احسن وجه ، حسي وايجابي ، تصبح في عبادة الرياضة والانتصارات الرياضية ، تجريدا محضا ، منهجا لنسيان السياسة ، لنسيان الحسي في الزمـــن) .

ينبغي هنا ان تحل كلمة اخرى محل « ايديولوجيـــة »، اذا اخذنا بعين الاعتبار الاستعمال العلموي الذي صنعه منها

اليوم اصحاب التنظير ، على طريقة سبينــوزا ـ ماركس . وسيكون كلود سيمون اقرب فلسفيــا الى ايجاد « الكلمــة الجيدة » : فعند غيابها يؤلف آثاره الرائعــة ، التــي هــي البديل عــن كلمة ناقصة . ربمــا « ميثولوجيا » ؟

لان بالامكان ، بكل بساطــة ولكن ليس الامر على هذه البساطة ، العودة الى المسألة الاساسية ، مسألة السينمــا كميثولوجيــا عشقيــة جماعيــــة : اليست هنــاك مرارة وتناقض ان يتوجب علينا ان نهتم بكواكبنــــا النموذجية او نسائنا الذائعــات الصيت (لنقــل بريجيت باردو او مــن يشبهها) حين نكــون قد رأينا كواكب الافلام الصامتة وحتى مارلين ديتريش على زمن ستراندبرغ ، تلك الدمى المجعّــدة المكلسة التــي لا نرغب فيهــا اليوم حتى في حالة الازمــة ؟ ان المرء لا ينتعظ من اجل النسبي . فالشهــوة تطرح المطلــق او تذهب . من اجل هذا يتطلب العشق تجريدا كبيرا ، فقرا في الاسلوب وامحاء للاجسام ، وخاصة في زينة الرأس التي تؤرخ لاكثر الاجسام عريا ، التي تنادي الكتابة لا التصويــر (فنقل « حكايــة او » الى الشاشة سيكون جريمة تستحق اللــوم) . والحال ان هذه الكواكب المضحكة ، هذه المادونات من اللحم ، كانت المطلق لرغبة جماعية ، تاريخية . ولكن هذه الصور المنخفضة القيمة لم يبق لهــا بعــد رواج (وطبعــا الركائز كذلك ، النساء انفسهن ، ولكن الامر لا يهــم هنــا : فالمأخذ هو على الايديولوجي فــي الخيالــي المحض الــذي يبرز بروزا افضل في السينمــا التي هي من الخيالــــي المحافظ) . وهذا السقوط للصور هو اشد قسوة واكثــر اقلاقا من سقوط الوجوه نفسها التي لا تفعل الا ان تكفّــر

عـن قانـون بيولوجي ، لا تاريخي . او شيء آخر : ان نزعة تاريخية رخيصة ، ونسبويّة غيـر مستنيرة يمكنهما ان يرضيا بان يكون الحب والرغبة مسلكين تاريخيين ، وبأن تكـون الصميمية جماعية وان يكون الفعل ايديولوجيا كالاقتراع . ذلك انه من اجل ان يكون هذا الفعل (الجنسي) ممكنا ، من اجل ان يكـون فقط ، فيجب ان تلفظ الارادة الاساسية ، ان تراد هذه الخديعة : « ان تكون مارلين هي المرأة بصورة خالدة » مارلين ، او ريتاهايوارث او كاترين دونوف .. او انعكاساتهن في هذه الحياة الدنيا ، على ارصفتنا (والحالة هذه : على ارصفتهن) .

« بافيـز » او الأنا المغفـل

الافراط في صفات الملكية في ما اكتبه ، اشك في ان يعني امتلاك الجسم او العالم ، هذا الامتلاك الذي يرى فيه « بافيز » دلالة النضج . واخشى ان يكـون كذلك « أنا » المراهقة ، انا الذي يفتش عن نفسه في الآخرين لانه لم يجد نفسه بعد . وهو الذي لا يبحث الا عـن نفسه ، وهذا مطلب من شدة الصعوبة عليّ ، في هذه اللحظـة ، بحيث ان ليس عندي سواه . واذا كان المرء لا يجـد نفسه الا عبر الاصدقاء والنساء واللقاءات والرفاق ، فكوني لا شيء عندي من هـذا يحكم عليّ بأن ابحث عـن نفسي وحدي ، اي ان العب لعبة استفهاميـة ، أود على الاقل لو استبعد منهـا الغرور . ان للمكدّين وحدهم أنا ، انظر ماياكوفسكي . ان السّريين ، والاستبطانيين يملكـون أنا على العموم ، وهذا مختلف جدا .

فـان من يبحث في نفسه عـن الفرد ، ينتهي به الامر الـى حرث فن . وانا المعتقل ، المحكوم بثلاثين عامـا من التقصي البسيكولوجي ، قد وصلت الى هذا . تنقل، كما تقتضـي الفضيلة ، « انه ذنب الامبريالية » .

يبدو ان الذيـن يصلون الى علم النفس هم الذيـن يدفعون التجرد دفعا بعيدا ، بل يدفعون الاهتمام بشخصهم الصغير ابعد من مجرّد الاناني(ان التجرد هو الافراط في الاهتمام،العمل الباهر في روتين التقصي) . وانا اقصد بالتأشير البسيكولوجي ذلك الذي ينحل في اقتراح عامّ ايجابي :جميع الرجال ميتون ، والنساء هنّ كذا ، والشبان هم كذا ، الخ. ان هذا الطراز من التأشير هو الذي يصنـع الاخلاقي ، و « بافيز » اخلاقي ، اخلاقي كبير . ومما يثير الفضول ، ان الاخلاقي يبلـغ المحسوس البسيكولوجي (مقابل التنبـه للتفاصيل المادية لدى الروائي) ومن اجل هذا، كما اتصوّر ، استطاع بافيز بسهولة أن يمر من القصيدة الى الرواية ، مرورا بالمذكرات الحميمة . انهـا في كل مكـان هبة المراقبة الذاتية والكتابة الاستبطانية اللتين يرافقهما الاحساس ان هـذا الانا « المتعذر استبداله » يمكـن بالمقدار نفسه ان ينتمي الى افراد آخرين : من هنا كانت احالته الى هذه « الشخوص » الوهمية ، لكون الكاتب لا يهب نفسه نموذجا للاخرين ، وانما عينة من نموذج ، ليس ككائن فريد ، كحالـة نوعية ، بـل كمثال . وبالرغم من كبرياء بافيز ، ولانه كان يراقب نفسـه كطبيب سريري اقل منه كتقني للوضع البشري ، فقد كـان متواضعا . كان يعتبـر نفسه كلوازم ، كقطعة من آلة كـانت مهنته ان يعيد تركيبهـا في قصصه بعد ان يكون قد فككهـا

في مذكراته ، من غير ان يتخذ مع ذلك نظرة مجردة ، من غير وضعة : انه مشدود كليا لقطعه المفصولة (ملاحظاته المبعثرة، وتعابيره يوما فيوما) ،انه في آن واحد عامل ومادة اولية . تقني شغوف بالشغف الغرامي : وينتهي الامر بألا نعرف بعد اذا كان اشد معاناة لمصاعب مهنته او لاخفاق غرامياته. انه توحد الانسان والفنان توحدا خارقا، توحد عالم النفس والروائي ، الملتحمين في عذاب واحد .

هناك عرق آخر ، فرنسي على نحو نموذجي . يتصنع التواضع وهو منتفخ بالازدهاء . يهب نفسه في الحقيقة كنموذجي بلا زيادة، وليس كنموذج من مجموعة . وهم يسمون كذلك اخلاقيين ، ولكنهم لا ينطقون بغير العموميات : فافكارهم عامة اكثر منها عالمية ، ذلك لانهم لا ينطلقون من اناهم الفريد ، من حياتهم الشخصية ، الزهيدة ، المعذبة – كما هو شأن بافيز ، صراحة . ومن عجب انهم لا يصبحون روائيين ، ولا يستطيعون النفاذ الى الخيالي الحقيقي ، او ان رواياتهم وقصصهم تتحول الى الخرافة الحكمية . انهم مدرسو البلاغة عندنا . مثلا : جيد وكامو . انهم ، على نحو ما ، مفرطو الانانية ، او ليسوا انانيين بما فيه الكفاية . فهم لا يحسنون المضي بعيدا بعدا كافيا في مراقبة اناهم بحيث يكف هذا الانا عن ان يكون اناهم . ان شخوص قصصهم الخيالية ليسوا آخرين – ولنفهم من « آخرين » تضخيم الانا الحقيقي للمؤلف – بل هم نسخ الفكرة التي يصنعونها عن انفسهم ، عن اناهم الثقافي او الاخلاقي . ان الفرق بين الكاتب الجيد والكاتب السيء يكمن في درجة حقيقية الانا وصدقه ، الانا الذي يصلح نموذجا او بؤرة ارجاع

للشخوص والمواقف والدروب المختلقة ـ نقصد أنـا الكاتب. ان هؤلاء المواطنين المتجملين لا ينظرون الى انفسهم بعيـن التقني ، بل يفترّون ويداعبون انفسهم بالكلمات المحفوظة . انهم يصنعون الوعظ الاخلاقي ، فليسوا هم اذن اخلاقيين، لان هؤلاء لا ينحازون . ان بافيز لا ينحاز في ايـة لحظـة الـى بافيز ، حتى ولا الى جانب المعارضة لبافيز . فليس مدهشا ان يكـون بافيز قد استطاع ان يصنع من بافيز شخصيـات قصص ، حتى شخصيات النساء في « نساء فيما بينهن » . كان فيها من غير ان يكـون منحـازا ، كـان فيهـا بمـا فيه الكفاية ، في عذابه ، وفي انفلاقه ، من اجل ان يمـوت منها ، ولكن ليس بما فيه الكفايـة من اجل ان يعيش منهـا (كمـا يعيش قوّاد من قحبة ، وشحّاذ من عاهته ، واندريه جيد من اندريه جيد) .

ان هذا العرق افرنسي لا يرسو ابدا على الحسي . انه يضع نفسه بنفسه على المسرح ، من غير ان يفكر بحكمـة « دوليـن » ، بالرغم من انه يفكر كثيرا . ان « التلاعـب بالكلام » هو حمل العموميـات على محمل الجد ، وهو الخضوع لاسلوب او لمفردات لغـة او لسلوك او بالاحرى للفكـرة المسبقة التي يراد اعطاؤهـا عنهـا جميعا . اما « التلاعـب بالموقف » ، ولمـا لـم يكن هناك موقف على العموم ، كمـا انه ليس ثمـة موقفـان مرادفـان (ليس ثمة معجـم للمواقف الدرامية) فهو وصل بالحسي ، بالفريد . ان الكلمات تابعة ، تبعيّة الادارة (المالية للادارة السياسية) .

ان النموذج الادبي الحقيقي هو « نحن »(= انا + هم).

وهذا ما يعطي شخصــا خياليا تفرّده وشموليته . ان القضية الموجبة الشموليــة هي مساحــة فريدة او بالاحرى معمّقة حتى الانسانية . وان الـ « هم » ليست مضافة الى « الانا » بل هي الانا المحفور ، المفتّش ، المنظّف الى حد ، اظهـــار الـ « هم » في داخله .

اما من جهتك الحزينة ، فأنت « مفكك » (والحق أن انعدام الموهبة يكمن في هذا التفكك). فهناك مــن جانب ، الـ « هُم » العارية ــ هي السياسة ،تحليل موقف ، النظرة المبرهنــة (هذا مــا نحسن صنعه) وهنــاك من جانب آخر « الانا » العاري ، بلا شرعية شموليـــة ولا قيمــة لــه الا بالنسبة اليّ ــ هــو الادب (او ما ادعوه خطأ بذلك ، لنقل: مــا يُسمح لي ان اصنع منه) مخطط حالة روحية او ذهنية او جسدية ، وهو ومضة التصوير (هذا ايضــا ما نحسن صنعه) الجميع يحسنون صنع ذلك . ان الموهبة تبدأ مـــن اللحظــة التي يتحد فيهــا الانا والـ « هم » على هذا النحــو او ذاك . وتبدأ العبقرية (لنقل : السيطــرة ، وما هو جدير بالخلود) من اللحظــة التي يكــون فيهــا احدهمــا فـــي الآخر ، من اللحظــة التي لا يكونــان فيهــا الا واحدا . والامر نفسه حين نرى ، وقد تساوت الاشياء ، ان الموهبة يمكــن ان تسمى أيضا الخيال . انه الشيء نفسه .

ينبغي اجراء تحليل سياسي في رواية غرامية ، او العكس بالعكس : « شارتروز دوبارم ». وصنع رواية بوليسية في كتابة تأملات في الحياة ، او العكس بالعكس : فوكنر . ودراسة استبطانيــة في لوحة للاخلاق الاقليمية ، او العكس

بالعكس : بافيز . ولكـن ينبغي الا نصنع اطلاقـا احمر على احمـر او اسـود على اسود .

ان الاخلاقية تجر الى الخطابة ، والمسرحي ، والمغالاة ــ لان هذه الاخلاقية المزينة بعلم النفس لا قيمة لها ،وهي كلام خليط : فزيف النبرة ، والتبرهات الصارخة ، وانعدام الطبعي، وعدم دقـة التعابير ، والنزعـة التعليميـــة ، والتفخيم ، وبالاختصار ، انعدام الفن ، كل ذلك هـو الدلالات الاكيـدة على نقص في الفكر او على فكر مزيف (وقد كان سناندال على حق في هذا الصدد) . ان العرق الفرنسي يخطب لنفسه ، والمثقف الفرنسي هو مُشاهد نفسه ، فهو يعيش ويكتـب محاولا ان يجد نفسه في وقت واحد على المسرح وفي صفوف المشاهدين ، وكتّابنا « البسيكولوجيون » يصفقون لمصائبهم ولآلامهم لاوجاعهم الروحية . ان هـذه ليست ازدواجيـة التقني او المراقب ، بل ازدواجية الممثـل الرديء ، الكائـن الاخلاقـي .

وكمـا ان « الخطب » فيها نحنُ متعاظـم ، ففـي الادب نحـنُ متواضع ، ولو كان مقتنعا ب « انا ». وهـذا التواضع هو الذي يمنح الادب قيمته .

ان في بافيز ــ الاسطورة ما يزعج ، خاصة في فرنسا حيث يُطلب من انتحار ان يوثّق عملا ادبيـا ــ رومانتيكيـة الفقير . وبديهي ان ادب بافيز (القصائد والاقاصيص) هو الذي يوثق انتحاره ، اكثر من « مهنة الحياة » . والحـق ان بافيز في فرنسا هو اسطورة طلاب في الآداب يتجنبون هكذا قـراءتـه . ان بافيز مراهق مزيف ، ونحـن نفهمه حقيقة

وقد تجاوز الثلاثين ـ وسأبلغها بعد عام اجمالا ـ الفج المزيف . انه كاتب الممر ـ الذي لا ـ يمر ، محصورا بين « شيطان الصباح » و« شيطان الظهر »، بين الابله الفتي والرجل المحنك . وربما كان بين هذين الشكلين من قوة العمر (سيكون المرء قويا بالوهم في العشرين من عمره ، وقويا بزوال الوهم في الاربعين) وقت يقصر او يطول من العمر الضعيف . وعلى اي حال ، فان المرء يترجم ذلك بالمقلوب حين يقدم شهادة الليسانس . ينبغي ان نعرف ماذا يعني الا يستطيع المرء ان يشيخ وان يشيخ رغم كل شيء ، لا لنقدر فيه المنتحر بل تقني الانتحار، وبكلمة ادق ، تقني مفهوم متطلب للحياة يفرض ، كنتيجة طبيعية ، ان يقدم المرء لنفسه موته .

رفاقي

أهزأ بالمثقفين ، ولكنني لا استطيع ان استغني عن رفقة المناضلين . ذلك هو شيء آخر اكتشفه في هذا السجن . ان السمكة لا حاجة بها الى الماء ما دامت في الماء . حتى اني كنت احلم ، من قعر احواض دار المعلمين ، بأن اذهب فاقفز على اليابسة ، وانا في حالة تقزز من الاسماك الصغيرة ، مثيلاتي ، بما تبدو عليه من اكتفاء ولاوعي وايمان بالقدرة الكلية للتصور ، وانسداد اقنيتها المنوية والحب الهائل الذي تتبادله (في قلب منافساتها بالذات والاحتقارات التسلسلية التي تجعل السمك الكبير بعيدا عن السمك الصغير). ثم جاء الثوريون المحترفون ، الافضل والاكثر

قابلية للحياة والاكثر حياة ، ولكنهم نوع آخر من السمك في اخر المطاف ، بنقائص مزاياهم ، ولا سيما عدم الاكتراث ذاك ، المطبوع او المكتسب ، بكل ما لا يخدم مصالح الثورة « المباشرة » . ولما لم تكن الموسيقى والجنس وعيون النساء ورائحة الاوكالابتوس وقظاظات الحلم غير ذات نفع للعمل الثوري ، فقد كنت سمكة ذات مشكلات ، متململة ، « منبوذة » بغموض ، متذبذبة ، نوعا من خنثى ، من خرافة برأس قرش ، باسنان سمكة الباراكوره ولكن بقلب طفل ، مع الاسف . ومع ذلك ، فانهم ، وقد كانوا وسيكونون اخوتي ، وليس لي من اسرة اخرى .

انهم اولئك الذين يستطيع المرء ان يغفر لهم وجودهم (بكروشهم وبرازهم وسحنهم القذرة) لانهم « لا يغفرون ذلك لانفسهم » . الذين ينظرون الى انفسهم من الجهة الاخرى ، من جهة غايتهم : العمل او الله او الاشتراكية . الذين ليسوا هم انفسهم الا مادة خاما للاستعمال ، للطي ، خاضعة لما هو غير موجود ، الكهنة أو الرفاق اوالفنانون . الذين هم مجبرون على ان ينشطروا ، لانهم يضاعفون حياتهم بفكرة ما عن الحياة ، وهم يُحترمون آنذاك باسم الآخر الذي يتسلط عليهم ، الآخر الذي هو مطلب ضروري وليس حجة . ما يدعو الى الغرابة : أني احسّني مرتاحا مع الكهنة . لا مع النموذج المقاوم للاكليروس ، فلا رغبة لي بالضحك . ان الكاهن سيّد يستطيع المرء ان يمازحه حول البفتاك او حول الدمل الموجود في الفخذ ، لان هذه ليست القيم القصوى لحياته ، وهذا بذاته عظيم . ان الكاهن اخ عدوّ . والرسّام كذلك ، لانه فريسة رسمه ، بفارق بسيط

من الاخضر او الاصفر يراهَن فيه على كل شيء (فـان غوخ والالوان ، غبريال والتنّين) . معهم تعود اشياء الحيـاة العادية فتصبح طريفة ، اي محتملة . فكاهة ممكنـة حـول الآلام الخفيفـة كمـا مع تشي غيفارا حول المعدة الخاوية ، مع ٧٠٠ وحدة حرارية يوميـا (كانت حياته في خطـر !)ان الكاهـن اخ ، وانمـا هـو كذلك بمقدار مـا هـو فكـه . والفكاهـة تجاه امور هذه الدنيـا الفانية غير قابلة للاحتمال بـلا ايمـان بشيء هناك ، فيمـا وراء الحياة . باعتبار ان الاسلـوب العظيم يتلخّص في الا يُظهر المرء من ايمانـه الا مُنحدره الفكاهـي" .

عام ١٩٤٠ الـذي لا يمحـى

الدليل على انك ثوري رديء وفرنسي مفرط الطيبة : انك تُحسّك شخصيا منخفضا بسبب خمول بورجوازيتك . ان عار ايار ١٩٤٠ جعلك دائمـا خافض الرأس . ولا شك في ان انعدام حس" الطبقـة عندك يهيج هذه الغصة القوميـة . ولكـن بايـة سعادة كنت ستستبدل بتشرشل جميع امثـال ويغان ورينو من قادتنـا آنذاك . اجـل ، ايها السادة ، ان كل امريء مسؤول عن طبقته القائدة . عبثا ما حاولـت الاستعراض الكلاسيكي : لقـد كان اولئك القذرون متطابقين مع المصالح التي كانـوا يدافعون عنها ، ولم يكن للبروليتاريين الواعين دخل في ذلك (وسبب هذا ان الحزب كان مطاردا) فأرخص اولئك ثمن الوطن، كما ينبغي ، لينقذوا سنـداتهـم ومصارفهم . لا بأس : اننـا نحتمل تاليران وفوشيه في عام

١٨١٥ (اناقـة ، سيطرة في الكراهية ، أو بكـــل بساطة : سياســة جيدة) وننسى بازيــن وتورشو ، لان « الكومونة » انبثقت من بالون غامبيتا وحصار باريس ــ ولكن هلام ١٩٣٨ ــ ١٩٤٠ (وحتى ١٩٤٣) يثير الغثيان . انك تخفض الرأس امام أيّ رعية انكليزي بسبب فضائحه الباهتة التي يخيـل اليك انه يحمل منها ، مهمـا كانت قَبولاديّة ، اثـارة مـن مسؤولية . لا شيء يُحزنك اكثر من الطليعة، ومـن الحرب العجيبة وما تلاها ، دالاذييه ، ميونيخ ، غاملين ، رينـو ، فرنانديل ، الباخرة نورماندي ، سيسيل سوريل ، دو فيفييه ومناظـر غومون ــ باتيه .

لتسقط المحبة !

المحبّة : احبوا اقرباءكم كأنفسكم . واذا لم نكن نحب انفسنا : اكرهـوا اقرباءكم كأنفسكم . ولكن المحبة الوحيدة المقبولة هي : لا تحبّـوا اقرباءكم الا اذا لـم يكونوا يحبون انفسهم . ربمـا كان هـذا يعطي النتيجة نفسها ، ونكون على الاقل قد قمنـا باختيار بين المرشحين للحنان .

لقد بدت لي الخلاصية المسيحية دائما كأنها اللااخلاقية ذاتهـا . ان الاخلاقيــة هي ان يختار المرء اصدقاءه ، الايقبل ايـا كـان رفيقا له او صاحبا ، كمـا ان الشرف هو الا يقبل المرء ان يعيش كيفمـا كان . ان الكائن اللااخلاقي هو الذي يرفض الفرز ،لا يضع اي شرط للصداقة ، والمهم لديـه ان يتصالح مع حضور بشري ما ، ايا كان ،المهم لديه ان يفلت من وحدته ، من نفسه ، من ضجر ذاته . بـلا اعتبار للطبـقة ،

للايديولوجيـة ، للايمـان ، للحزب : صديق حتى معاعدائه (« على صعيد شخصي لاننـا جميعا بشر » ـ نعم معالاسف، الجميع معدة ، وذنب بين الفخذين ولسان للكذب) .

ولكنه التقسيم نفسه بين المناضلين (او المثقفيـــن والفنانين والكهنة الخ) وبيـن الآخرين . الاولون يضعـون شروطا للحياة ، وبالتالي شروطا للذين يختارون انيقاسموهم الحيـاة . والآخرون يريدون ان يعيشوا بأي شرط ، ولما لم يكونوا يستطيعون ، لمـا لـم يكـن أحد يستطيـع ان يعيش وحده من غير ان يشاطر انسانا فنجان قهوة على الاقل يوميا، وبضع كلمـات عن الوضع السياسي وصحة العائلة الطيبة، فـلا بد لهم بالضرورة من ان يبتسموا ويمزحوا مع قتلـة رفاقهم . ان المحبة في جانبهم ، وهؤلاء الواقعيون هم بـلا شك مسيحيون افضل من الاولين . والكاهن الذي تحدثت عنه ليس لديه شيء من المحبة بهذا المعنى : انه الكاهـن ـ الجندي ، دومينيك والمانويون ، توماس مونزر والبابويون .

اليست الاخلاقية المفهومة على هذا النحو تصلبمراهق يتجاوز الحد ؟ والاشخاص الذيـن ينجحون في ان«ينضجوا» الا يصبحـون محبين اكثر فاكثر ،لا اخلاقيين اكثر فاكثر ؟ ان هنـاك شيئا طفوليـا ، عاطفيـا جدا ، عصابيا في الوضع الذي اصفه بانه اخلاقي : تناقض وجداني ، وربما مزاجي . ليس ثمة تدبير نصفي ، تسوية فاترة : فامـا ان احـب او ان اكره ، هذا كليـا او ذاك كليا . انني غير قادر على تعلّـق محسوب ، نسبي ، موضوعي . واذ أحب ، اضمّ وامتلك ، واذا وجب ان اضل واعمى لكي امتلـك ، فانا اضل واعمـى

بحماس . واذ ابغض ، اقصي ، أنفي بغيظ . موقف انفعالي يهيىء للنضال السياسي تهيئة لا بأس بها . (من اجل هذا ينبغي ان ادرك لماذا ينسيني الحضور الجسدي للعدو بشكل فردي صفته كعدو سياسي ــ ولماذا يصعب عليّ ان اطابق تمييز العدو بصورة عامة مع هذا الفرد او ذاك بصورة خاصة ــ ولماذا ايضا استطيع ان انتقل بمثل هذه السهولة من التعصب الاكبر الى الفهم المؤذي أشدّ الايذاء للدوافع والاسباب التي تحدو بالعدو الى مقاتلتنا ، في ظرف معيّن ، هذه القدرة المشؤومة على ان اضع نفسي موضعه حتى اراني بعينيه ، كما هو شأني هنا في لحظة المحاكمة . لقد كان بامكاني ، نفسيا ، أن اضع نفسي موضع المدعي العام في اللحظة نفسها التي كنت فيها ، من مكاني ، سياسيا ، اشتمه ــ تناوب او تناقض يخلان اخلالا خطيرا بالمانوية الاخلاقية والعاطفية اللازمة لكل نضال سياسي جدير بهذا الاسم . ولكن هذه مسألة اخرى) .

من اين يأتي هذا التصلب ، هذا التحدي « للوقائع » و« للحس السليم » و« للمصالح المفهومة جيدا »؟ يأتي من كون المراهق فريسة الخيالي . ان هذه الصلابة الظاهرة مشتقة من ضعف عصبي ، من بوفارية خاصة بسنّ احلام الطموح، سنّ القراءات الكبيرة . ان المرء ليتطابق مع وجوه تاريخية او روائية كبيرة ولكنها كلها حصرية ، ماثلة في وقت واحد ك « ينبغي أن تصبح هذا » و « لا ينبغي لك في اي حال ان تُخل بهذه الرغبة » .

يرجع المرء دائما الى النموذج ، يكبر في مكان آخر ،

خارج ذاته ، فهو ليس ابدا نفسه . ولا قيمة له الا بالمعايرة . واذ ذاك يكون النضج بان ينسحب ببطء من حقل الخيالي ، وان يترك الساحة لواقع ما هو ، وهو واقع حزين ، وان ينطوي بنظام على شخصه المادي الوضيع . هذا في حال النضج الجيد . وهناك ايضا الانسحاب في بلبلة واضطراب ، ريح الرعب الذي يرافق سن الخامسة والعشرين ، الانهيار الكامل (وهو ما اكافح ضده ، تعينني في ذلك الاوامر اللينينية : « على البولشفي ان يتعلم فن الانسحاب بلا يأس » .. « اذا لم يكن المرء مستعدا للزحف على بطنه ، في الوحل ، فليس هو ثوريا ، وانما ثرثار .. ! »

وتمتزج بذلك مسألة الآجال الالزامية ، والمحاسبة الفنية ــ الخلقية لزمن الاحالات الخيالية . . بالرغم من أنها ، اذا اخذت في الواقع ، تعمل كاستيهامات . وان وضع حد لممارسات المعايرة ، يعني في العلاقة الزمنية : الكف عن تعداد الاعوام التي تمر واحدا بعد الآخر . يجب على المرء ان ينسى ان الزمن هو المقياس الوحيد للقيمة (وذلك هو شأنه بالنسبة للمراهق) ، ثابتة تقييمه الخاص .

من وجهة نظر سن السابعة عشرة ، ينطلق سباق ضد الساعة له جانبه المثير للاسى كما ان له جانبه المثير للسخرية . لقد كانت « المثل العليا للانا » ، نماذج المماثلة ، تفرض بعض الازمان الاولمبية . فالمنافسون الذين سبقوك في الحلبة يكونون قد سجلوا ازمانا فريدة ، فلا مجال للتراجع . وحتى السابعة عشرة ، كنت تعيش مطمئنا على نحو ما ، ولم تكن ملزما بأي شيء خارق ، وليس ثمة ما هو

ضائع بعـد ضياعا نهائيا ، فالامل سليم . هناك طبعا موزار على البيـان القيثاري وهـو في الخامسة ، ولكن الصورة شاذة ، وبعيدة ، فضلا عن ان الموسيقى ، كالنعمة ، تصفر حيث تشاء . ان موزار الطفل لا يعنيك ، فالجميع يعرفـون ان الاطفال المدهشين لا يرهصون بشيء حسن ، فهم بلهـاء متخصصون او اخراجات مشعوذ . اما في سنّ السابعـة عشرة ، فالعقارب تبدأ بالدوران جديا ، وكل عام بلا عمـل يُعاش كأنه هزيمة ، دركة جديدة في السقوط نحو القبر . في تلـك السن ، كانت « السفينة السكرى » مكتوبة : انك لن تكون اذن رامبو . لننتظر قليـلا ، فان ذلك يستدرك . ١٩ سنة هي سن « الشيطـان في الجسد » . انت في التاسعـة عشرة ، فلن تكون راديغيه . في الواحدة والعشريـن ، فـي غرفة فندق ، كان ايزيدوردوكاس يؤلف على البيانـو اغنيته الاولى : اذا فهمت القضية ، فلن تكون لوتريامون . اين تراك قد فقدت رشدك لتفوّت هذين العاميـن الرئيسيين اللذين يفصلان راديغيه عن لوتريامون ؟ لقد قضيتهمـا في محادثات مقهوية منهوكة ، وترجمات عن اللاتينية رديئة ، ومضاجعات بـلا شاعرية . حسنا . ولكن هنـاك « هوش » في عامين ، جنرالا في الثالثة والعشرين . واذا أضعت ، عـَرَضا ، فرصة مناسبة ، يبقى بونابرت ، بعد ذلك بعام امام طولـون . واذا كـان طالعك نكدا ، يبقى لك ان تمثل « المواطن كان » فـي السادسة والعشرين ، او ان تقوم بالهجوم علـى « مونكادا » حوالي الحقبة نفسها من حياتك (بالاختيار او حسب الفرصة التي تواتي ، ثورة في السينما تساوي ثورة كما في السينما ، فليس هذا مـا يعوّل عليه ــ انه مجرد تفصيل تقنـي) .

اخفاق ، اخفاق ، وكل شيء مستهلك . لقد أنهيت السادسة والعشرين ولم تكن لا « هوش » ولا « بونابرت » ولا « اورسون ويلز » ولا « فيديل كاسترو » . انك تكتشف انك وستبقى « تارتمبيون » ، عامل البريد ، او المبرز في الفلسفة او المحكوم عليه بالسجن . واذا لم يؤثر فيك الاكتشاف تأثيرا يتجاوز حده ، واذا عرفت ان تخضع وان تنطوي برباطة جأش على مربى الفريز في فطور الصباح ، وعلى قراءة « لوموند » بانتظام وعلى بسمة زوجتك اللطيفة ، فقد اصبحت شخصا جادا ، شخصا كبيرا ، « احدا » ما . ايا كان ، ولكن « واحدا » لا اثنين ، لا مقطّعا قطعا ، بل كتلة واحدة : كان تارتمبيون حكيما يعتبر نفسه تارتمبيون .

اما نحن الطفوليين ، الخائبين ، فنحتاج حقا الى شجاعة تفوق القدرة البشرية لكي نستطيع ان نعتبر انفسنا ما نحن . ر.د . (١) . وليس شيئا آخر غير ر.د ، وهذا ما لا يطاق كليا . السجن لا يُطاق لان ر.د. موجود فيه وحده ، بلا منفذ . وحين يبحث ر.د عن نفسه (لا بدّ للمرء من ان يملأ اوقات فراغه) فانه يبحث عن شخص آخر يضعه مكانه . ولديه فكرة بأنه افرط ما يبحث ، فسوف يبني ر.د. افضل ، منظّفا ، اكثر وعيا ، وبكلمة واحدة ، قابلا اكثر لان يُطاق .

لنكن عادلين . فقد كان « ريشار سورج » ، في حالتك ، النموذج المشكّل الاكبر ، منذ وقت طويل ، وكنت تجهل عمره . كان يتمتع دائما بشباب المناضل الذي لا تمسّه

---

(١) الحرفان الاولان من اسم المؤلف . (هـ.م) .

الاحداث ، شباب الذين لن يشيخوا لانهم يُعدمون قبل ذلك ، بالفأس ، في احد الاقبية .

ان الشيخوخة تدفع بلا احساس نحو المحبة ، نحو اللااخلاقية ، نحو فئة اللامناضلين ، بحيث يكف المرء عن الانشطار ، ويأخذ نفسه كما يأتي . انه لا يتطلب من نفسه شيئا بعد ، ويصبح لنفسه مثله الاعلى الخاص . وسوف يتأكد عند ذاك ان كل انسان تجاوز الثلاثين هو وغد حقير .

لتحيي الجبة !

عودة « السفير البابوي » والمرشد العسكري ، جلسة رائعة للمونسنيور ب . يُسر رجال الكنيسة في موقف صعب: الفا عام من التجربة والمهارة وتملق العدو لبلوغ هذه الحصافة التي هي تافهة بالمظهر ولكنها قوية بالحقيقة . كنا نحن البلهاء ، المتوترين ، الحذرين ، القليلي الدبلوماسية حقا ، الغرباء الغريبين المصطفين بُكما بعضنا الى جانب بعض . وفضلا عن ذلك ، فان نزقي جعلني أفهم ، بعكس المقصود ، فكرة لـ ب : فن تفريغ التلميحات الاشد ضراوة بشكل عذب : وتحية للبيب . غير انه لم يكن ثمة الا ضباط افظاظ تجاهنا ، كما لا بد وان ذلك كان يحدث غالبا للكنيسة منذ الفي عام . في هذه الحالة ، يجد امهر الدبلوماسيين نفسه وقد أصيب بالخيبة ، وتبقى القوة للقوة . ان التفاوض غير ممكن الا اذا كان المتفاوضون على مستوى واحد ، وكانوا يتفاهمون بالاشارة . اما الا تستطيع الكنيسة

ان تنطق بكلمات كبيرة ، الا تستطيع ان تضرب مواجهة بقبضات مكشوفة ، فان ذلك يضعها في موضع الدونية تجاه السلطة المدنية (والحالة هنا : العسكرية) . لا شك في انها ستجيب : الى مدى قصير فقط . يعني ذلك على مدى ثلاثين عاما ، وهي مدة « عقوبتي » تماما ، نقطة ماء في محيط الآلام البشرية الذي تحلّق فوقه امنا القديسة الكنيسة . ان الكهنة بالاجمال يرون بعيدا ، لانهم يريدون، يتخيلون انهم يرون عميقا (كنسية اللامؤمنين) فليسوا هم اذن على عجلة من امرهم . انهم يتأملوننا كما لو اننا خالدون: من هنا كانت سخريتهم المهذبة ، وعذوبتهم ، وحفاوتهم الصالونية في اشد المواقف مشقة وصعوبة . لقد رأى الرب آخرين من هذا الطراز . اتكون هذه لا ابالية مقنّعة ؟ ام انها الحشمة ، ولياقة عدم حمل شيء على محمل المأساة ، وهما حشمة ولياقة تضفيهما عليهم ، منذ اسلافهم ، التربية الحسنة (اللاتينية، الانجيل) والحس بعجزهم تجاه الدنيوي، والهم بألاّ يشقّوا على احد ولا يشقوا على انفسهم ؟ ام تكون الدماثة والجذل المرح الذي يخفي اللامبالاة ، ام انها اخيرا ارادة محسوبة تأخذ على عاتقها ان تقنّع اندفاعاتها ؟

انهم ينعمون من خمرة بوردو بالمذاق المخملي وبالطعم الثمري وبروح المصالحة ، كما لو انهم يخرجون في كل ساعة من ساعات النهار من غداء مروي بخمر الميدوك . وينعمون كذلك بالرقة ، وبهذه الحاجة الى التآخي المرح المتحفّظ الذي توحيه بداءة سُكر خفيف جدا لدى « الناس المتميزين » . انه شعار « كل شيء سيُدبّر » الذي ربما

كان يشكل قوام العذوبة الكهنوتية ، قوام هذا التفاؤل الذي لا مبرر لـه والحكيم في وقت واحد ، هذا التفاؤل الـذي يعرف رجال الكنيسة في جميع المناسبات كيف يشيعونه . ان مـن المعروف ان العفـة تنقـل الـى المعدة شبـق الاساقفة . وللاسباب نفسهـا التي تجعـل العلماني يبقـى غير قابل للفهم اذا لم يحرص المرء على فهم حياته الجنسية، فـان الاكليروس سرّ خفي يتوضح كثيرا على ضوء نظامـه الغذائي والهضمي . عصارة مَعِدية بلا حموضة ، وانقباضات استدارية بلا مباغتة ، عذبة الايقاع ، واغشية مخاطية داخلية جيدة التشحيم ، مزيتة بأنبذة جيدة ـ ذلك هو سرّ العذوبة لدى الاساقفة ، سر وقارهم الباسم . (ربمـا كان عليك ان تدخل في سرّ الكهنوت ، وتطمح الى الاسقفية لتشفـي قرحتك . فستزور معتقلين وتقول لهم كلامـا جيدا مليئـا بالسمو ، وستصبح رجـلا محترما وهامـا ، تحلّق فـوق المصائب وتستدير حولها . المزعج فقط : ان عليك ان تلمّـع حذاءك كل صباح ـ ولكن هناك خدمـا . وان تغسل الاذنين غالبا . وان تلبس الجبة بكل هذه الازرار التي تحلي صدرها . وان تسهر على الا تمر فوق فوهات التهوية في المترو . وان تحاول في الصيف الا ترتدي سروالا . المهم ، سنرى الباقـي فيمـا بعـد)

ان في مخالطـة اوساط الكنيسة شيئا كثيرا يتعلمـه الانسان . فالتعمق الانساني الـذي كـان ينعم به مؤلفـو القرن التاسع عشر يأتيهم من كونهم قد عاشروا الرجال ذوي الثوب الاسود (حضارة زراعية ، كهنوتية + وظيفـة المؤدب + الابرشية) ـ راجع ستاندال . وليس بالضرورة على معنى

رديء : فقد كـان الاب « بلانيس » واحدا من اندر الافاضل بين الرجال ذوي العقل السياسي من علمانيي ذلك الزمن. انه ينبوع اثراء نفسي حرمنـا الزمن المعاصر من امثاله .

وبصورة اعم ، فان الاكتشاف التدريجـي للجسم ، وتعريته البطيئـة تساوقا مع تظليل لوينات الاحساس . ولما كانت قوة الاحساس ورقته يتساوقان ، فاننـا نصبح فـي وقت معـا خشنين اكثر فاكثـر ، ومرقين اكثر فاكثر ، ومرتاحين (بتوتر منخفض) . هنـاك شغف اكثر ، وفساد اكثـر ، وتلويث كلي اكثر في نزوة او تعلّق او شهوة طاغية. كـان الفيلم الذي يكشف ، ذات لحظة ، عرقوب الممثلة عـام ١٩٠٥ ، يوصف بأنه « جريء » ومتحفظ : اننا نفهـم اذن غرامـا لـ « سوان » وان يكـون كل شيء احيانا معلقـا برطمـة تظهر على شفتي « اوديت » . ان الكائن الذي يغطي جلده ، ويهذّب لغته ، ويغلف في مصطلح موضوع سلفـا جميع حركاته واقواله ومواقفه ، هو وحده من يرسل مباشرة رائحـة قوية . فهـو يجر الاخرين الى ممارسة التنبهالادق والاشد تمييزا لادنى تغييرات عبارة مـا ، ولكل مـا يمكن ان يشكل اشارة او يرسل معنى خفيا . ان السيادة المريعـة للياقات تنمّي شغفـا حادا بمـا هـو غير لائق ، بالفريد ، بالتشوش . فحيـن تبرز لنا فتاة نهديها ، فليس ثمة شيء كثير للفهم : انه اعـلان اكثر منه اشارة : اعلان متواطـيء ومرتبط بالفعل الذي يلي مباشرة . وحين كانت آنسة فيعام ١٨٤٠ او ١٩٠٠ تُظهر عرقوبهـا دون الحذاء ، كـان للدماغ ما يعمل به ، لان ذلك كان اشارة ذات معان متعددة ، اشارة مشتقة من مصطلح اجتماعي مركّب ، بقوانينه الملزمة من حل

الرموز ، والتحقيق ، وجواب الرسالة ، الخ : كان كل شيء ممكنا ، السهو ، الدلال ، الشرك ، البوح ، التمهيد ، الدعوة ... ومن غير ان نعود بعيدا الى « اميرة كليف » ، فان مادة روايات القرن التاسع عشر قد اصبحت بالنسبة الينا لغة صينية . فلأنهم كانوا يفكرون اكثر ، كانوا يرسلون رائحة اقوى ، ولا بد انهم كانوا يتوترون مدة اطول ، على نحو اقسى ، ومع اشعار : كان الحب يتطلب سيطرة طويلة على مصطلحات الاغراء ، يتطلب فنّا للتواصل ولتحليل ردود الفعل ولسلوك الآخر وسلوك الذات ، وبالاختصار ، كان الحب (في « المجتمع » — الرفيع طبعا ، المجتمع الذي يكتب) قضية من قضايا السياسة العليا ، قضية استراتيجية . لم يكن ضابط مدفعية من امثال « لاكلو » يحتقر ايراد قواعدها . والحقيقة ان النفاق السائد كان افضل حليف للصدق ولقوة العواطف التي كانت تحييها وتعززها التفاصيل والعقبات التي كانت تعارض الاشباع . ولقد دفع ستاندال ، على غير ادراك منه ، حين اقام عبادة للطبيعي ، وللطاقة ، ولجرأة الاحساس — دفع قسطه للنفاق وللاكليروسية ، وللثوب الاسود الذي كان يمقته . ذلك ان المرء لا يضاجع جيدا الا حيث يسيطر الكاهن ، رجل الثوب الطويل .

وربما كان هذا ما يلحم « بونويل » بالعالم الكاثوليكي: فحتى « العصر الذهبي » ، و « الكلب الاندلسي » يدينان بكل شيء لليسوعيين وللمطارنة المتوجين اسقفيا الذين يسمحون وحدهم، مع رجال الشرطة و « الانا الاعلى » ، بالحب المجنون، « بالخط المستقيم النقي لكائن يلاحق الحب » . ان ما يجعل الزواج وكل مشركة للعلاقات الغرامية (عائلة ، دعاية ،

مطبخ) مضادين للجنس هو نفسه ما يجعلهما مضادّين للتجديف . ان مشروعية الحب شبيهة بان يكون سويا ، ففي هذا موته . انه يتنفس وهو سرّي ، قلق ، استثنائي ، عابر .

ان الشحنة الجنسية تكمن في النقيضة المرفوضة والمقبولة معا : ان النساء اللواتي يرافقن « الناصري » يقمن بفعل الحب امامه ، وضده ، ولكن كذلك معه ورغما عنه — فالحق ان التباس العلاقة مقلق . والتوحد النهائي للناصري ، حين تمر من امامه المركبة ذات الحصان التي تحمل محميته ورجلها القوي : فقد كان صالحا في طهارته ، كمميز للحياة الملوّثة ، الملوّث هو هو في نهاية المطاف . ولكن يجب ان يكون موجودا ، هو الانجيلي ، الطاهر ، ليكون الحب مغريا كالاثم ، خطرا كالجريمة ، لا يقاوم كالشرّ ، مثقلا بالدم وبحرارة سرية وبظل . ان « بونويل » هو معارض اسبانيا في داخل اسبانيا ، ولكن الحب الوحيد ذا القيمة يشبه كذلك معارضة من الداخل . فلكي يحافظ على هذا التوتر الجنسي ، توتر الحياة هذا المعارض للموت المرفوض والمقبول فيه ، يجب عليه ان يبقى في الداخل ، وان ينعش ويحيي المتع الشاذة ، وان يهيج البراءة باقامةالاثم الى جانبها تماما.

ينبغي الا يُسمح للكنيسة ، لاية كنيسة ، ان تقدّس او تصدّق على ما في الحب من « مطارَد » ومن هشّ ومن قبيح . ذلك هو الرهان كله . ولكن يجب ان نتذكر ان « الكنيسة » قائمة في المواجهة ، وان نثيرها ثانية ، عند الاقتضاء .

« موسى والوحدانية » : فرضية لا جدوى منها عن قتل « الاب » . انهـا لا تكفي لشرح تناقض « الرب » الابوي ، ثم العام ، ثم الحصري ـ الـ « يهوه » الغيور . ان فرويد يقر التحدد التضافري للظاهرة الوحدانية ، ونحن كذلك نقره ، ولكننا نعطي الدور الاول للظاهرة السياسية ـ التفسير الوحيد القادر على تحليل تحولات الوحدانية على مدى طويل : فمع الامبراطورية الشاملـة للسلالة الثامنة عشرة ، بعد تصفية طويلة ، تفرض عبادة « أتون » الشاملة نفسها . ومع الاطاحة باخناتون والعودة الى تناثر الاعراق المصرية ، يتلاشى « اتون » . ثم الاشوريون والبابليون الخ .

ومع ذلك ، فان انعدام المعارف التاريخية (او بالاحرى تبني وجهـة نظر اخرى غير التاريخيـة) يسمح لفرويـد باكتشاف سر من اكبر اسرار التاريخ ، اعتنى المؤرخون بكبته وهو مفارق تمامـا بالنسبة للحس التاريخوي السليم : تعزيز عنصر التقاليـد عبر الزمن . ان الماضي يمكن ان يصبح اكثر فاكثر حسما بمقدار مـا يبتعـد ! ويمكن أن ينبثق من جديد ، ان يبرز مرة اخرى ! ص ٩٥ : « نحـن هنـا امـام واقعـة ملحوظـة : فهذه التقاليد ، بدل ان تضعف مـع الـزمن ، تزداد قوة عبر العصور . . » رض مبتسر ، دفاع ، كمـون ، انفجار العصاب مع عودة المكبوت جزئيا : ان مخطط العصاب الرضي مع تعلقاته وآليات تكراره ، ربما أعطى مفتاح مسألة « المخلفات » وتجديد نشاط عنصر سابق اسقط رسميا ، تلك المسألة التي تطرح على الماركسية : عبادة الشخصية فـي

الاتحاد السوفياتي (تجديد نشاط العبادة الدينية لشخص القيصر المقدّس ، المتحدر هو نفسه من البابوية القيصرية البيزنطية ، وتذكّر ان قسطنطين قد حل بشكل آخر المسألة نفسها التي كانت تطرح على مثل « هليوغابال » ، باعتبار ان المسيح كان لبنة اقوى من لبنة « ميترا » او «ايزيس») او هو اخيرا ان تعود الى الثقافة السوفياتية المعاصرة خطوط مهجورة للنزعة السلافية ولتمجيد الروح والارض الروسيتين ،هذه الارتكاسة الحقيقية الشعبوية والتولستوية التي ادت الى ادانة ماياكوفسكي باعتباره كوسموبوليتيا وفردانيا .

وينبغي ان نضيف على الفور (من اجل البلهاء ، ولكن البلهاء مقيمون بيننا ، مثلهم في ذلك مثل قتلة « فريتزلانج ») ان عودة المكبوت ليست امرا محتوما ، وانما هي امكانية يجب الا نستبعدها مسبقا ، لا اكثر . انه عنصر درامي ، وليس مأساويا ، للواقع التاريخي : فالشعوب ليس محكوما عليها بالتكرار العصابي للرضّات او الصدمات او التجارب السائدة لماضيها ، ولكنها ليست معفاة ابدا من ان « تعالج » ماضيها الذي لا يزول من تلقاء نفسه بأن يكف عن ان يكون حاضرا بالفعل . ان النزاع محتم ، وليس كذلك العصاب والفشل .

والحق ان الطريقة الوحيدة لحل النزاع بشكل مرض (ثوري) هي ان نعرف لماذا لا يمكن ان يُطرح : ان الماضي (البنى العليا لطراز من الانتاج باطل ، ونماذج طراز للعيش قومي ، وكل ما يمكن تسميته وراثة تشكّل اجتماعي) يبقى

يمارس عمله خفيـة في الحاضر الواقعي ، فهنـاك مقاومـة « في » التقـدم نفسه وليس « للتقدّم » . ان الانتصاريـة الاشتراكية ، المرحلة القصوى للتطورية البورجوازية ، تؤدي بطبيعتها الى الانهزام والى الانهزامية ـ فيمـا هي تقنّعهما بالانتصارات ، وهنا يكمن اسوأ الشرور، لانهـا حين تنكـر وجود النزاع واستمراره ، تحرم نفسها من وسائل وضع حدّ له . لنقل بالاحرى : من ان توجد لـه حـلا تسوويا مرضيا بصورة موقتة . (ان المرء لا يشفي نفسه من طفولته ، بـل يحاول على الاكثر الا يعاني منهـا أكثر ممـا ينبغي : فحين نسلّط النور عليهـا ، تكف عن ان نكابدها ونستطيع ان نؤمل ان نستند الى آثارهـا لنواجه ، بالغين ، الواقعالخارجي)ان آليات التكرار انمـا تكتسب طابعها الاستقراري ونزعـات سلوكهـا الثابتة بصفتهـا غير مقودة على نحو وآع الىاساسها الواقعي ، الى اصلها التاريخي . وبالاجمال : اذا لم ترد مأساة، فتصرّف كمـا لو انهـا تتهددك دائمـا . اعلان الى المتفائلين بـ « حس التاريخ » وبالايام القادمة المضمونة المغنّية .

مقايسة : ان على الجموع ، لكي تشفى من « الاب » ، ان تتبع علاجا بواسطة نوع من اب هو القائد ، الزعيم (لينين، مـاو ، فيديل ، هوشي .) والقضيـة ، بالنسبة لهذا القائد، هي استعمال تلـك القوة النفسيـة المكثفة التي تتركز عليه ، عبر التحويلات والتحويلات المضادّة التي لا مفر منهـا ، لكي يحيّدهـا ويردهـا على نفسها . ان هدف الزعيم الثوري : هو التصرّف بحيث لا تحتاج الجموع بعدُ الى زعيم ، كمـا ان غايـة الكادر الشيوعي ان يزيـل التمييـز والتفريق ، وبالضرورة ، المراتب بين الملاكات والجموع . و « التصرّف

بحيث » = خلق شروط اقتصادية ، عن طريـــق القرارات السياسية ، بحيث ان المجتمع ، الخ . والحق ان هــذا ، اذا تساوت جميع الاشياء ، يميز الزعيم الثوري عن الزعيـــم البورجوازي الذي يهدف ، عبر زعامته ، ان يديم ، الـى ما لا نهايــة ، الشروط الموضوعية والذاتية التي تجعل حضــور زعيم ما امرا ضروريا .. و « اذا تساوت جميع الاشيــاء » = في حقبة لا تستطيع فيهــا الانسانية بعد ان تجــد نفسها ثانيــة الا بأن تسقط نفسهــا على « أب » آخــر ، كلّــي القدرة ، معصوم عن الخطأ ، أب أعلى . لقــد ربّى فيديـــل الشعب الكوبي ، وعلّمه عمليــا كيف يصبــح أبــاه بالذات ، وكيف يأخذ بيده الخاصة تاريخه ـ ولكن الماضي الذي هــو بسبيل القضاء عليه ، والمستوى المنخفض للنضج السياسي الذي ساعد على تجاوزه قــد جعلا منه ، وهو يقوم بذلك ، ورغمــا عنه ، الوجه الكلي الحضور « للاب » : جدلية لا مفرّ منهــا . ان رجــلا مثل ديغول لــم يربّ الشعب الفرنسي ، بل على العكس : فليس من جدلية في هذه الحالة ، واذن ، فلا عــودة ممكنة للمكبوت . ان انعدام الجدلية هو بالتأكيـــد ضمانة ضــد الفاجعــة المحتملة ، واذن ، ايضا ، ضــد كل انتصار محتمل ! ان فيديل يضع تاريخا جديدا في السير ، مع جميع التناقضات التي تؤوي قوى الماضي فــي الحركــة نفسهــا التي تتجاوزها . ان ديغول ، بالرغم من جوانبـــه الايجابية التي لم تزل بعد غير ملحوظة كليّا (الــدور الاول للجانب السياسي ـ ، مثلا) يمدّ في اجل الركود القديم .

ان وقت التخمّر ، وفترة الكمون ، وتأخر النتيجــة بالنسبة للسبب ، كلهــا وسائل صالحة للتحليـــل والشك

التاريخيين ، وحثّ على اليقظة والعمل : فليس ثمة ما هو مكتسب مرة والى الابد. ان الهدوء الحالي بركان ينام. فيجب سبر الماضي والرضوض المخبوءة ظاهريا لتقدير صلابته. مثلا : براغ نوفوتني (ملاحظاتي عام ١٩٦٥ ، وملاحظات شي غيفارا عام ٦٦ ــ كانت الكارثة تكمن على بُعد نظرة، على مسمع من اذن المحلّل) .

العيش بانتظار ان تعيش

لماذا يستحيل عليك ، ماديا ، ان تعيد قراءة نصوصك القديمة ــ قصص « الذكرى السنوية » مثلا ؟ للسبب نفسه الذي من اجله تخيفك المرايا . انك لا تستطيع ان تحتمل ان ترى ، سوادا على بياض ، ما هو أنت . وضوء النهار كذلك يحملك على الفرار . منذ عهد قريب ، كنت تسدل الستائر وتضيء مصباحك في الساعة الثامنة صباحا. وآنذاك تستطيع ان تحلم كما لو انك لم تكن بعدُ احدا . ومع ذلك ، فانت تقرأ دائما مرة اخرى ما كتبته « على التو » ، لانك تستطيع بعد ان تغيّره، فليس من شيء نهائي ، غير قابل للاصلاح . وآنذاك انت امام فكرتك اشبه بمساعد خبّاز امام رغيف لم يُخبز بعد ، فهو طريّ ، بلا قشرة ، او اشبه بمن يستطيع قبل ان يولد ان يُعدّل في قسمات وجهه على هواه . ان هذا لجبن . انك ترفض ان تضطلع بما كنته سابقا ، اسمك في الصحيفة ، باسم ما أنت الآن ، مجهولا من الجميع ومن نفسك . ولكنك لا تستطيع ان تلتقط هذا الحاضر وتحبه الا حين يكون قد مضى تقريبا ، ما يزال دافئا بشكلك ، ولكن

اصبح غريبا . وهذه الكلمـات نفسهـا التـي تكتبهـا الآن لا تقلقك بعدُ لانك عالم انك تستطيع ان تصحّحها بـأن تضيف اليهـا كلمـات اخرى . انه يروقك الاّ تكـون لك هوية ،وانما ان تستطيع الـى مـا لا نهايـة ان ترفض الاسماءوالصفات. انك تودّ لو تنظـر في المرآة الى نفسك فترى الناس جميعـا ولا احـد بدلا من هذا الوجه المقفل الذي تحتقر ان تحبـه اكثر ممـا ينبغي . بالاختصار ، فانت لست مسرورا مـن نفسك ، ولا شيء في الدنيـا يساوي عندك هذا الاستياء . انك نسخة انيقة من الجبان القذر ، وان كانت نسخة شائعة بمـا فيه الكفايـة .

وسرعـان مـا تتدارك نفسك ، وتستشعر متعة قلقة بعض الشيء بيـن اللحم والجلد ، وتمضي بحثا عن الكائـن الحقيقي ، ولكنك تفضل ان تتوقف قبل ان تكون قد وجدته. غيمة صغيرة متسائلة ، مجهول تنتظر زيارته ، خافق القلب، لانه لديه اشيـاء هامة جدا ينقلها اليك (انت تجهل ما هـي هذه الاشياء ، وتعلم فقط انهـا تلامس مصيرك عن كثب): هذا ما تحبّ ان تبقى عليه في نظـر نفسك . ولكـن حيـن تنفجر الغيمة وتهطل مطرا حزينا تحت نافذتك ، وحين يدفع الغريب الباب ويتمتم بكلماته الصغيرة البائسة امامك ، اذ ذاك تفضل ان تدير ظهرك وتمضي ، مغتاظا ان تكون قد انتظرت مثل هذا الغبي المثير للرثاء . انـك لا تملـك حتـى شجاعة النظر في عينيه ، وتصرف رأسك امام شبيهك ، وانقاذا منك لوجهك ، تتصرف كمـا لو انه قد حصل سوء تفاهم حـول الشخص ، مجانسة او سوء تفاهم ، وتأخذ في انتظار شخص آخر ، متصنّعـا انك تجهل ان سوف تستقبل دائما الزائـر

نفسه . من اجل هذا لا تستطيع ان تعيد قراءة نصوصك ، ولا ان ترى ثانيــة افعالك الماضية ، واصدقاءك القدامــى ، ورسائلك المصفرّة ، وثيابك العتيقة ــ لانك آنذاك لا تستطيع بعدُ ان تفتشّ ، نقطة نهائية ، ان الامر غباء كلّه في آخــر المطاف . ولكن لمـا لـم يكـن ما ارتكبته على التوّ مبتوتـا فيه بشكل كامل ، فانك تحب ان تُمسك بخيط من جديــد بضع مرات ، على امل ان ترى في طرفه انبثاق طيف امير في المنفى او قاض عــادل او مجرد شخص جيّد .

اقتراب تجلّ غامض وضبابي . ستنفق حياتك بانتظار سيّد لن يأتي ابدا . وانت تعرف ذلك ، وتضحك منه ، ومع ذلك فانت تنتظره . ولست على خطأ : فهو سيد لو جــاء لخفف عنك عبئا ثقيلا ، وعذابا من ان عليك ان تعيش وانــت تتصنّع انك تعيش ، كما لو انك كنت قد سرقت مكان شخص آخــر أكفأ منك كثيرا للقيــام بهذه المهنــة ولا تستطيع ان تقــوم بدوره .

الحريــة = التناوب

الجنون الدوري : الايقاع الاغمائيّ للجسم . ان الفرد الكامل سينقاد دائمــا لنبرة معينة تتضّح على بنية وجهه او هيئتــه او تصرفاته المعتادة ، باعتبار ان تنوعات هذه النبرة محدودة بتعديل اصطلاح مصير رتيب . وهذا ما يسمىّ ، ببساطة ، تساوي المزاج . ولكنك عانيت دائمــا من حاجة اقوى : العمل علــى تناوب الوحدة مع الرفقــة ، والتأمل (اتجاه نحــو الداخل) مــع نــوع من الابتهاج العابث (اتجاهات نحــو الخــارج) والكئيب مع المضحك ، واذلال النفس مع دفقات من كبرياء

رنّانـة ، لا يطيقهـا الآخرون . جنـون دوري كشكل مـن الصحة ، اي من التناوب (مزاج وسلوك) . ان المجنون يقيم في الرتابة . فهـو خاضع لتوتر رتيب لا يستطيع ان يُرخيه ولا ان ينساه بين الفينة والفينة . ان في حياتك الزنزانية مـا يدفع بك الى الجنون ، لانها لا تغيّر العلاقة مـع الوسط ـ الزنزانة، انت في الزنزانة بينما النظر الى الخارج على جدار ـ وليس في هذا اي شيء شاذّ . ولكن المؤذي انها دائما الزنزانة نفسها والشخص نفسه، وجدار السور نفسه . والعلاقات مع المعتقليـن الآخريـن ، اذا كان هناك معتقلـون آخرون ، مشابهـة . لا عذر هنـاك . لا يستطيع المرء « لا ان يهاجم ولا ان يفرّ » ، فلا بد اذن من اللجوء الى ظواهر من الهجوم (الكلامي ، على الآخرين وعلى النفس ، مـزاح استفـزازي، مزاح اسـود لتمويـه انعـدام المـزاح الـوردي والتعـويض عنه سحريا) وظـواهـر مـن الفـرار (هواجس واحـلام ، نـوم متطـاول مقصود ، مستفل حتى ساعـة متقدمة من الصباح ، مستهلك حتى البلى) نتيجـة غير مرضية : يسقط المرء مرة اخرى على الفور في الاخدود، في الوضع السليم نفسه للاشياء ، ليس في مجرى الاشياء، فالاشياء لا مجرى لها ، وليس بعـدُ عـلـى نشاط معيّن ، فالفعل يفير دائمـا « معيّنـا » مـا . ان السجن يمكـن احتماله لو كـان فيه عُطل لاحقة ، لو كان بامكان المرء ان يأخذ عُطـلا بين الحين والحين ، لان ممـا لا يحتمـل الاّ يجبـر على عُطل أبديـة (او اشغال شاقة مؤبدة ، تغيير في الشكل لا في المضمون) على بطالـة غير موقّعـة (الا بالنسبـة للايقاع البدائي، البيولوجي ، سهـر / نوم ، عسر هضم / هضم) « في المكان نفسه » (هنـا بضعـة امتار مربّعـة ،

٢،٥٠ × ٣ امتار في الداخل ، ٦ × ٨ امتار في الخـــارج) .
جمود ضارّ : لا نوافذ على مكـــان آخر ، الاّ ان تكون نوافـــذ
عقلية . ويبدو ان السينما الموجودة في مراكز الاعتقـــــــال
« المتطوّرة » سينمـــا ماهرة ماكرة بشكل واضح : فلأن نقل
الفـــرد غير ممكـــن ، يتمّ تغيير بيئته المكانية طوال ساعـــة
ونصف ــ على الاقل في سجون اوروبا للجانحين الكبار .

هذه الحياة التي تسوقها ، أو التي تسوقك في مكانك
منذ ثلاثة اعوام ، في موقعك الداخلي الخاص ، هي ببساطـــة
طراز الحياة الذي تكرّس له بطيب خاطر مئات الالوف مـــن
الافراد ذوي الصحة الجيدة منذ مئات السنين ، هي الحياة
الرهبانية . الفرق فقط يكمن في انك ادخلت في درجـــــة
الكهنوت من غير ان يؤخذ رأيك ، بلا اعداد روحي ، ومن غير
جوار مجتمعي ، واخيرا بلا ايمـــان ولا نداء باطني . كثير من
« بـــلا » . انك تسكـــن زنزانة دير مهدم ، مهجور منذ بضعة
قرون . انك لم تُسم كاهنـــا حسب الاصول ، فلم تنـــــذر
الفقـــر ولا الطهر ولا الطاعة . **ليست بك رغبة لان تقـــوم**
بصلواتك ، لجهلك الذي توجهها اليه . ومع ذلك ، فلا يُسمح
لـــك بأن تخرج منهـــا . سجن مع الاشغال الشاقة غيـــــر
مستحق ولكنه قسريّ : الاخ الصفير لراهبة « ديدرو »ولكن
بلا رئيسة ديـــر يتدفأ بها في سريره ، في لحظاتالاضطراب .
حتـــى بلا اخوة تبثهم همومك . فقط هذه الكتب وهـــذا
الدفتر . بيـــن الحين والحين ، زيارات صعبة ، وجـــوه
ضرورية وعابرة لتذكرك بالخـــارج وباللـــذاذات وبالمنشآت
وعبث رجال الخارج . ومع الزمن ، توشك ان ينتهي بكالامر
الى احتلال جدرانك ، وان تقوم بملء زنزانتك بما يكفي لقيام

الشكوك حول الواقع ، او على الاقل حول شرعية العالم الخارجي ، العالم كله ، العالم . وهذا ما يشكل عرضا من اعراض الجنون الخفيف ، مما يعيدنا الى البدء :وسيحين الاوان لتغيير الهواء . لا بد من اختيار احد اثنين : اما الهجوم أو الفرار .

عصاب ولكن ليس كمالا كالذي يفترض ان يبلغه النساك او النفوس الكبيرة التي تعتكف في الصحراء . انك لا تستطيع دائما ان تستغني عن حدّ ادنى من التناوب ، تحت شكل بدائل بائسة : الجريدة المحلية عند وصولها او حساء دسم حين تكون هناك نار ، او خصومة كلامية عنيفة مع احمق بصدد وجود او عدم وجود مصانع سيارات في الارجنتين ، او مناجيات مسائية مليئة بالغصات والتوجهات الى الجماهير وانت تذرع غرفتك . هذا ما يحلّ عندك محل السينما او السفر في القطارات او التنزه في شوارع باريس . فراراتك وهجوماتك وعَطلك . انك عاجز عن ان تتابع ، جامدا ، خيط فكرة او عمل او مقطع اكثر من ساعتين او ثلاث ، وسرعان ما تأخذك الحاجة الى القيام بدور المهرّج . ليس ذلك بالرصين على الاطلاق . تسكي وتهريجي ، تلك كارثة : الى متى ، هذه الحياة ؟

اذا كانت الحرية ، فستكون هي التناوب العائد : ان نتقن فعل ما نفعل ونقيضه كذلك ، الاول بما هو الآخر ، الاول بالآخر . ربما كان بامكاني ان اقوم بدور المثقف لاني استطيع آنذاك ان اقوم بدور المهرج .ينبغي ان نصنع «جيداً» الثورة ، وبالتالي ان نصنع جيدا عمل الحب (« جيدا » مفهومة بـ « على قدر الامكان ») .

سؤال : اخترع اليونانيون بالتتابع العـاب القـوى والفلسفة . أتراهم كانـوا حرثوا آلفكر وقواه لو لـم يحرثوا كذلك الجسم وعضلاته ؟ ان الرياضة هي التي اتاحت الجمود الحالم للفيلسوف. كان الرجل نفسه يعدو صباحا على ملعب مدرّج ويرافق بعد الظهـر سقراط خارج المدينـة ليتوقفا ويجلسا على ضفة نهر ، في ظل شجـر الزيتون ، بين ثنايا الخضرة . و« فيدر » هو آلذي كـان يهتم بجوهـر آلجمال لانه كـان يمارس الجمال كل يوم في الملعب .

والفرق بين القوي والرياضي ، هو ان الاول قد اصبح رياضيـا بالضرورة ، بالنموّ الطبيعي وتحت تأثير الاعمـال اليدويـة التي فُرضت عليه . اما الثاني فقد اصبح رياضيا بالمجان ، من اجل لذة الجهد او التأثير ، وحبا بالفـنّ . ان القوي هو رجل الحقول ، والرياضي رجل المدينة (فليس في الريف ملعب ولا حمامات) . وهو الفرق نفسه بيـن تقنيات مسح الاراضي والعلم الهندسي . والمعرفة المجردة والفلسفة، همـا بهـذا المعنى نشاطان رياضيان . ولكن القوي كالمسّاح عبدٌ وآلة . واما الرياضي والمهندس اللذان لا يصلحان لشيء فهمـا رجـلان حرّان ، مواطنان . والتقسيم الاجتماعـي للعمل يترك التقنية للادنين والعبيد والدخلاء . انـه يحتفظ بالعمل للعمل ، والاعمال اللامجديـة لسادة الوقت الحرّ . والانسان الكلي كـان يجـد نفسه اجتماعيا ،في نظـر اليونانيين ، مجزأ الى فئتيـن وطبقتين ، وبذلـك يتكرس التقسيم الاجتمـاعي سياسيا .

النتيجة حتى الآن : بلا نشاط جسمي ، ليس من نشاط فكـري .

الاعتراض : قبل المسيح بحقبة طويـلـة ، كـان العبرانيون مثالا لشعب مثقف تثقيفـا استثنائيا ، معتاد على المفهوم الاشد تجريدا ، وعلى نظام فكري صارم . ولكن بشكل ديني . فالاله الوحداني ، بلا صورة ولا علاقات مع العـالـم المحسوس ، يشكل تجريدا « معنيّا » ، منحازا ، متحزّبـا . ان الديـن يأخذ عن العالم ، حتى في ارفع درجاته تجريدا ، وجهة نظر عملية ، لا نظرية ولا تأملية : ان الاله او الآلهـة هم للعبادة ، لا للمعرفة ، من اجل خلاص فردي او جماعي . وهذا اعتراض مهدوم . فالدين يمكـن ان ينمو في الفلسفة ـ علم اللاهوت ـ « ولكـن وجهة النظر » تبقى غريبة كليا عن وجهـة نظر الفلسفـة .

النتيجة الآن : بلا نشاط جسدي ، وبعبارة ادق ، بلا عبادة الجسم من اجل الجسم ، يمكـن ان يكون هناك نشاط روحي ولكـن لا نشاط ثقافي او عبادة المعرفة مـن اجـل المعرفـة .. ان الروحانية هي استعمال الفهم لغايات منحازة (خلاص ، افتداء ، تكفير).

دليل ١ : العصور الوسطى : فقـدان الجسم وقمعه ، وتدمير الحمّامات العامة او الخاصة (علم الصحة) وطمس الرياضة ، كل ذلك يتفق مع كسوف كل نشاط فلسفـي محض ، ومع سيطرة اللاهوت .

دليل ٢ : الهند الكلاسيكية . صحيح ان هنـاك اهتماما كبيرا ، عمليا ونظريا ، بالجسم ، ولكنه اهتمـام يفضي الـى

الزهـد والتنسك (انجازات اليوغي بعضلاته الناعمة وتنفسه ومفاصله) ان القضيـة هي قضية الجسم كوعاء للالوهية او طريق لبلوغهـا . والفلسفـة هي طقس او قانون للطقوس . والتأمل يشمل العالم المحسوس ولكنه لا يتخذه موضوعا ،كما انه لا يتخذ نفسه موضوعا . وبالاضافة الى ذلك ، فانالكمال الجسمي المطلوب يتلخص عامة في وضعة ثابتة للجسم ،في راحـة مطلقة ــ الكف عن الحركة .

لازمة : الراهب يسيطر على جسده ، لا بجسده نفسه، ولكـن بأن ينصب روحه تجاهه ،بشكل منتصر . سيطـرة سلبيـة : فالانتصار الكلي ، اذا بلـغ نهايته ، هـو القضاء الجسدي على العدو . فالاماتة ، والصوم ، والجلد ، والازعاج، والمسوح ،كل ذلك يقلب الاستعمال الجيد للعقل ، يقلبه راسا على عقب . واذا قلبنا ارسطو ، كان امامنا القديس تومـا . وعبارة « اللذة ترافق العمل كمـا ترافق القوة الشبـاب » تصبح : الفضيلة ترافق عدم النشاط كما يرافق التهـاب المفاصل الشيخوخـة .

نتيجة جديدة : ان قيم الروحانية المسيحية (او الهندية او بورجوازية اليوم) هي مـا يبقى للفهم حين يفقد الجسم نصيبه من العنايات والتمرينات .

مفكرون مناهضون للروحانية : « مونتاني » ــ افكاري تجيئني وانـا اتمشّى (او مـا يشبـه) . « رابليـه » ــ غارغانتوا يتدرب اما على قدميه او على الحصان او فيمركبة، ليس بصفته فارسا او نبيـلا ، وانمـا بصفته مثقفـا . « نيتشه » : لا اؤمن الا بالافكار التي تأتي مـع المشي . ان

الانسان لا يفكر اي تفكير جيد وهوجالس . لا بدّ من وضع حد لفلسفة الضعفاء والجالسين والهزيلين .

اعتراض تعيس : هناك كثير من الرياضة في البلدان الاشتراكية ، والرياضة المجانية ، غير الانضباطية (بعكس « آلهة الملعب » من طراز « ريني ريفانستال » ونورمبرغ) ـ ومع ذلك فليست هناك اية فلسفة (لا بدافع « التحقيق » او التجاوز ، بل بدافع القصور او الغباء) . وحتى من غير التحدث عن الفلسفة ، فهناك قليل من النشاطات الفنية او التفسيرات التشكيلية او الفكرية للعالم .

اعتراض صغير على الاعتراض السابق ، او تعاسة اضافية : ان رد الفعل على سيطرة الرياضة وعلى الصحة الاجبارية وعلى الشفافية المعمّمة يحدث في الاتحاد السوفياتي تحت ستار العودة الى الصوفية الارثوذكسية والظلامية الدينية وقيم الروحانية لدى كثير من المثقفين . وفي هذا توكيد للنظرية السابقة . وهو ما يستغنى عنه .

ستاندال غير محرر

اعدت قراءة خاتمة « لوين » . هناك الصراع السياسي للعلاقة الغرامية الصريحة في زيارة مدام غرانديه للوزير . مزيج من التوريات الجنسية والاقتضاب ، كما في هذه الاشراقة الرائعة :« وفي وسط حدث غرامي ، كان لوسيان رجلا حزبيا » (يتساءل ان كان سيرقّ قلبه ازاء السيدة الكبيرة المغمى عليها عند قدميه) .

رموز الحشمة : أترى ستاندال قد ربح فيهـا ؟ انــه يحكم على زمنه الذي اذبلته مواضعات اللغة التي فرضها على نفسه . « منذ نهايـة عهد لويس الرابع عشر ، حقق العقل السليم تقدّمـا في فرنسا ، ولكن لغـة الجماعة الراقيـة مضت تتصفّى ، اي انها وضعت نفسها في استحالة التعبير عـن بعض الاشياء التي تظل موجودة في الطبيعـة : من هنا « انحطاط » لغـة الجماعة الراقية » . ومن هنا كذلك ميل « بايل » الى سان سيمون والعهد البطولـي للغـة الفجّـة (في القرنين السادس عشر والسابع عشر) .

ان ستاندال يمجد النزعة الطبيعية لدى شخصياته ، وينكر النفاق واليسوعـي الخ ، ولكنه يستعمل آفـة النفاق نفسها لانه يريد ان يكون مقروءا . ويلتزم بتحويل مشاهـد « لويـن » الى رموز .مثلا :« كانت المرأة الشابة تحمله على رأسهـا » . وفي التهميش : « اسلوب شريف . يجب وضع ذلك في خانـة الاخلاقي » . وفي خانة الاخلاقي، يكون هناك اذن : « كانت مدام غرانديه مصعوقة . وقد كان يمكن لالآم كبريائهـا ان تكـون فظيعـة لو لـم يجيء شعـور اقل جفاء ليساعدها ، من حسن حظها ، على تحمّل العذاب » . وبصورة دائمـة كـان النزاع لديهـا بين الجـاف والرطب يعود . وبصراحة : للمرة الاولى في حياتهـا ، وهي في السادسـة والعشرين ، « تترطّب » مدام غرانديه بحضرة لوسيـان . ان ستاندال يربح بالمبادلة . فتشخيصه ، اولا ، خاطيء :ذلك ان عتبة المجون قد انخفضت تدريجيا منذ ١٨٣٥ . وبعدذلك، وجد فيهـا الضغوط التي تخلق الاسلوب الكلاسيكي .

ونقطة اخرى كنت مخطئا فيهـا : ان متع الحب ليست للشبان ، لان الشبان ليس لهم جسد بعد . ان في هـذا افراطـا في النزعـة الخيالية : ان المضاجعة هي من اجـل احترام النموذج ، فلا ينبغي فقد الاحترام في ذلك ، بدافع من كبرياء وغرور وواجب ، وكلهـا عواطف من الرأس. كنت افكـر خطأ ، كمـا لـو ان الامر مفروغ منه ، ان الرجال اذا تجاوزوا الثلاثين كفّوا عن الاهتمام جسديا بالنساء ، وكنت اعتبر فحشا وفضيحـة خلقية ان يقوم رجل في الاربعين بفعل الحب . والامر بعكس ذلك : ان المراهـق يحمـل للنساء اهتمامـا خلقيا ، خياليا ، انانيا ، تكـون فيه العلاقة الجسدية تعويضـا او نتيجـة لذيذة بشكل موجز . ان مـن يمتلـك جسده شيئا فشيئا ، يحتاج الى وقت ليوجه انتباهه نحـو الاجساد الاخرى ، ونحوهـا فقط . وما يسجله ستانـدال بشأن الحب ، صالح لسائر الاشياء .

انت كذلك ، كجميـع الناس

كمـا أبا كان لك ؟ كثيرون ، في الواقع . لبضعة اشهر ، الحزب الشيوعي (حوالـي عام ٦١) وهو اب سمح ومكرش . مجرد اكثر ممـا هو رديء . اباؤك الحقيقيون ، رغمـا عنك رغمـا عنهم : م. أ. ف . كل منهم يحمل لك نصيبه من الابوة ، على سجله الخاص . ولست استطيع القول الآن انهم كانوا متفقين فيمـا بينهم ، او ان أحدهم قد طرد الاخر . لقـد عدّل لـك كل منهم ، على غير معرفة ، لحنه الابوي . ولقد كبرت الآن ، فهم اخوتك الكبار . انك تكـنّ لهم محبـة

(عاطفـة شخص كبير) ولكنك كففت عن ان تعتبرهم حجة ـ باستثناء فيديل كاسترو . ان نبرة صوت فيديل ،لا تـزال تجسّد في نظرك اخلاقية العالم ، كل الكرامة الانسانية . وهذا **الصوت التربوي ، الصافي والعنيد ، يذكرك** بان السعادة في الكفاح ، وأنه ربمـا كانت امامك بعد لحظات او شهور مـن السعادة قبل نهايتك ، وان الامر يستحق أن تأسن بانتظـار **ذلك . ولكن فيديل ،** كأوصيائك الاخرين ، كجميع اولئـك الذين كانوا قبله قد « قوّموك » ، كفّ عن ان « يثير شعورك » لانك تعرف الآن معرفة افضل سبب سلطته ولماذا ستظـل تقبله بوعي واختيار حتى النهاية . انك لن تنهار بعد امام اي « كبيـر آخر » ، لن تمسك بعد انفاسك وليس لك ان تنتظر بعد اي كشف من احد . انك تعرف كجميع الناس عام ١٩٧٠ ان ليس بعـدُ صوت معصوم ، او ايقونة لا تـُمسّ ، وان كل شيء ينبغي أن يؤخذ من جديد ، فيفكر فيه ويجدد وينتقد . ولكنك عرفت ايضا ، وخصوصا ، ان لـن يحسم احد بـدلا منك شؤونك الشخصية الصغيرة ، وكيف ينبغي أن ترى الامور حولك رؤيـة صائبة ، وكيف تعلم اين انت ذاهب واذا كان ذلك هو الدرب الصحيح ، واذا كـان الدرب لم ينحرف على غير معرفة منك ، هذه السنوات الاخيرة ، وكيف تحب مـن بعيد اولئك الذيـن لم تكـن تود ان تتركهم ،وكيف تموت بكل تواضع . ان هذه هي شؤونك الصغيرة ، شؤون المتوحد ، ولن يكون ثمـة اي رب ليمحضك نصائحـه حول ذلـك . غرّ انت ، وستطير بجناحيك ، وحدهمـا وتسقط . وستقبل بعد ، اكثر من اي وقت مضى، ان تتلقى اوامر وتعليمات ، ولكن مع علمك بأن هذه الاوامر او التعليمات ليس فيها شيء

مؤكـد ، وانها ليست افضلها ، لسبب واحد هو انها تخرج من فم رجل تكـون قد اخترته طواعية قائدا لـك ، ليس لانه معصوم عن الخطأ ، بل علــــى العكس، لان قابليته للخطـأ « مأخوذة بعين الاعتبار » . لقد اثبت قائدك امام التاريخ انه ظهــر في عشريــن مناسبة اصلب واكثر اخلاقية واشـد تبصرا مما كنت او ممـا يمكن ان تكـون ، وهذا حسبُك . ولكنك لن تنسى ، حتى ولو وجب ان تضحي بنفسك كليـا لانجاز مهمتك ، ان الرئيس القائد هــو شخص آخر ، وان له تاريخه ، وان لك تاريخك انت الذي لا يتساوق بالضرورة مع تاريخه . انك ستقبل ان تُقتل يومـا ليتمكن مناضل مـن تنفيذ عمل وهو يظهــر جهارا نهارا انه غير متفق مع من عهد فيه اليه . لن تقبل ايّ رئيس او مسؤول او قائـد لا تكون واثقا من ان هدفه الوحيد هو بناء عالم بلا رئيس ولا مسؤول أعلى ولا قائـد .

ليس لك بعد من اب، لا لانك تُحسّك وقـــد أصبحت أبـا بدورك ، وليس لانك اصبحت مسؤولا قادرا هو ايضـا على اصدار الاوامر واعطاء التوجيهات . ليس لك بعـد من اب لانك تعرف الآن انك ستبقى في اعماقك ولدا صغيرا وان جميع آبائك لن يغيّروا فيه شيئا . وهـــذا مـا مكنك من التقدم . انك لا ترى بعد ان في العالم رجلا يستطيع ان يجعل منك رجلا ، ندّا له ، وصورته ، بسبب من فضيلته وحدها، من « هالته » الابوية او التربوية وحدها . ان هــذا لا يعني بعدُ غيرك ، والآخرون يستطيعــون ان يساعدوك ، ولكــن كأخوة فقط ، لان اكبر العبء يقع على كتفيك . انت تعلم انك صبي صغير لانك لا تتصور بعدُ انك ستكبر ــ وتنضج تحت

تأثير تجلّيات هائلــة آتيــة من الخارج ــ ، لانــك ستمشي بعــد الآن وحدك ، بلا عكازين ، على الحياد ، كشخص كبير ــ ولانك تعرف ذلك . لقد أصبحت اباك الخاص . وانت تكتشف من هذا بالذات ان الذيــن كانوا يقومون لديك مقام الآباء لم يكونوا ، حيــن يُنظر اليهم من الداخل كمــا تنظر الى نفسك، الا صبيــة صغارا اكبر منك سنا . لقد أعدت الى الصواب، بقوة الاشياء ذاتها ، الوظيفة الابوية .

نجاحك : كونك لم تقفز من طرف الى طرف . وقد كان ممكنا ان يزداد حظك سوءا لو صنعت من الاله الطيّب شيطانا ومن آبائك القدامى آباء مضادين . ولم يحدث شيء من ذلك . وقد تمّ اللقاء في منتصف الطريق : فانك لم ترتفع الـــى مستواهم ، ولم ينخفضوا هم الى مستواك ، فكان التوصل ، على غير شعور ، الى تسويــة بلا مساعـــدات ، ولا خيبات مفاجئة . تسويــة الاخ الكبير . ومعروف ان الاخ الكبيـــر قادر على كل شيء ، على اشنع الاخطاء واســوأ الحماقات ، ولكنهــا اخطاء وحماقات هيّنة ، قابلة للتفسير ، وليس لهــا بعــد من عاقبة على فكرة الاخ الكبير اكثر من عاقبة الاخطاء والحماقات التي يعرف المرء انه قادر عليهــا ، بالتجربة ،على الفكرة التي يتخذها عن نفسه . ان من المستحيل ماديا ومعنويا ان يكــون المرء لنفسه اسطورة ، لانه في وضع يمكنه مــن ان يعرف كم هي كريهــة رائحة داخله ، وكم هي مجزاة ، غيــر منسجمة ، عابرة وخطرة . وان كلامنــا الجميل او افعالنــا الجيدة ليست الا مغامرات سعيدة لكون اول من يعجب لها، فيمــا نحــن عارفون بانه من فرط التحدث في كــل شــيء والتصرف كيفمــا كان ، لا عجب ان تخــرج بعض المغامرات

افضل من البعض الآخـر . اننا في وضع يمكننا مـن ان نبارك قانـون الاعداد الكبيرة ، وليس جوهرا ما مشعّا او مرمريا ، كمالا خفيا نخبئـه ولا يمكـن ابدا ان يخطـيء . والاخوة الكبار يشاركـون في الموقف نفسه : ان المرء يعرفهم من الداخل ، وسيجعل منهم ذاته بالقدر نفسه ، فالجميـع متشابهون . لا سلطات خرافيـة او لا تجسدات للشر ، لا معبودون ولا محتقرون : وانما متضامنون . اعلـم ان « م » قد غازل «ن» وعرض عليه المضاجعة كفتى مبـتذل ، كما كان بامكاني ان افعل انا نفسي . ردّ الفعل الاول : « غير ممكن ! ان مـن كـان في سنته لا يمكـن ان يهتم بمثل هذا ، الخ . » ما بيـن السطور : هذا نوع الاعمال التي يستطيع غبي مثلي ان يقوم بهـا ليمـلأ امسيات السبت ، فهـو اذن لا يمكن ان يفعل ذلك . المرحلـة الثانية : « اذا كـان الآباء يتصرفـون كالابناء ، فيجب الحكم بسقوطهم المباشر . لقد خدعـوك وضللوك كأنك ابله اذ جعلوك تعتقد بأنهم كانوا اكبـر قيمـة منك » . ولكن الابله الذي كـان يعتقد ، انمـا كان فـي الحقيقـة انـت . لم يكـن السراب آتيا منهم . فاذا كنت ترى كاتدرائية بدلا من مبولة عامة ، وكائنا « غوتيا » (نسبة لغوته) ومتجردا من الماديات لفرط ما عاش وكان ، على مـا تعتقد ، لا يبالي بشيء ، حيث يوجـد ببساطة رجل لـديه تجربة اكبر من تجربتك، ولكن لديه حاجاتك نفسها ، وجسمك نفسه ، فليس الذنب ذنب تلـك المبولة العامة ولا ذنب هـذا الرجـل . ان الثائب الى الرشد هـو انت ، وليس هـو . وستكون انت ايضا الرابح اذا نجحت في تجاوز هذه الازمـة

وفي فصل نفسك بتبصّر من غير ان تقذف الى الشوك من كان أباك . انك بذلك ستحبه بعد هذا اكثر . وسيكون الانتقال من الابوة الى الاخوة ناجحا . النتيجة : تسوية مشرّفة بينك وبين آبائك . (مشرّفة وماهرة ، وذلك لانك اذا حكمت عليهم بالسقوط ساعة الازمة ، فبأي حق لا تحكم على نفسك بالسقوط في الوقت ذاته ؟)

الازمة المحتومة والمرجوّة : حين يفاجيء الصبي الصغير اباه ، نموذج الشرف والاناقة ، وهو يضع زر سروال في قبعة الاعمى ، في ممرّ المترو . وحين يعلم ملايين من الصبية الصغار أن « الاب الصغير للشعوب ، حامي الحقيقة وضمانتها » قد ارتكب طوال عشرين عاما جرائم واخطاء وحقارات . وفي « شرقي عدن » ، اكتشاف الام ــ المومس ، الخ ..

ولكنك انت ايضا قد وضعت ازرار سراويل في قبعات الشحاذين ، او اثناء جمع التبرعات يوم الاحد ، في الكنيسة ، او في طاس السويسري ، وانت تتجاهل ذلك . صحيح انك لم تصف البلاشفة القدامى ، ولكنك لم تكن كذلك في مركز ستالين . وقد اكتشفت وانت في الخامسة عشرة ان جميع النساء تحت سنّ معيّنة كنّ مومسات لسبب واحد هو انهنّ لم يكن ملائكة بل نساء يفتحن افخاذهن بمثل الطبيعيّة التي تنزلق انت نفسك بينها . فاذا لم تخضع لمثل هذا النوع من الخيبات او الاكتشافات ، فلن تستطيع ان تحتمل نفسك انت ، وينبغي لك على الفور ان تنتحر .

وحين تتجاوز الازمة وتهضم : فلان ليس احمق ، ولكنه

ينطق بحماقات . فلان رجل عظيم احبه واحترمه ، ولكن يتفق له ان يرتكب بلاهات ، بل حتى فظاعات . يجب على « ولكن » ان تصبح تقريبا « لانّ » : فليس هو قيدا ذهنيا الاخراج المسبق لقدر ما من أصل الاعجاب الكلي ، بل هو مندرج في الاعجاب او في الاحترام . وينتج عن ذلك نوع آخر من السلطة (الاخلاقية ، الثقافية ، السياسية) ، تفكّ الارتهان عن نفسها وعن سواها . سلطة لا تنتزع الملكية ممن تمارس نفسها عليهم ، لانها تتطلب منهم ان يحتفظوا باستقلالهم وحسهم النقدي ، وقدرتهم على السؤال والحوار، لتتمكن من ممارسة نفسها . وحتى بعد ان يكون «أ» قد اكتشف مدى هفواته والوان جهله وانحيازاته بل وتفسيراته المعكوسة ، فهو يبقى ، او على الاصح ، « يصبح » نوعا آخر من السلطة ودّية ، مراقِبة ـ مراقَبة ، ناقدة ـ منقودة ، رائعة ـ مشبوهة ـ محبة وضرورية . هذا مزعج ، ولكن المرء هو نفسه هذا الازعاج . انني لا استطيع ان أطلب المزيد من الآخرين . اننا كلنا معا نواقص متممّة ، يصحح بعضنا الآخر. لا يستطيع احد ان يملأ احدا من غير ان يكذب، يستطيع فقط ان يعوّضه . فاذا كنت فارغا ، فسيكون الآخرون كذلك فارغين . ومهما بلغ المرء من الجهل او البلاهة او الغباء ، فلا يستطيع ان يتوقع او يتلقى من اعلم الناس او اكثرهم عبقرية او اوفرهم خبرة شيئا آخر غير ما يعطيه لنفسه .

ان يكون المرء شابا ، هو ان يتوقع من الآخرين شيئا جوهريا . وان يتراجع عن وضعه تحت الوصاية ،وان يحطم قوقعته الصوصية ، هذا يتم حين يكتشف ان ليس ثمة اي

تغيير سيأتيه من عل او من الخارج . هذا حزين ومنعش . لن يحصل لك بعدُ اي شيء يغيّرك جذريا ، وفجأة ، وعجائبيا، باستثناء موتك ، ولكن مــا يضع حدا في نظرك لجميـــع الاحداث لن يكــون في نظرك وفي نظــر الآخرين حدثا .لقد كففت عن ان تكون شابا منذ انقطعت عن التفكير في الفرار من « اصبح ما انت » . من قبل، كانت لك ثقة ، كنت مــا تزال تؤمن بأنك ستصبح ما يمكن ان يحدث لك ، ومن اجل هذا كنت تعلّق هذه الاهمية الكبيرة على موعد ، على رحلة فــي سيارة . على كتاب ، على امرأة . اما اليوم ، فقد انتهـــت الحجج ، وحتى المذكرات ستسقط من يدك . سيكون كل شيء بعــد الآن سواء .

حصل لك هذا حين كنت في السادسة والعشرين او السابعة والعشرين ، مع السجن . حظ آخر . والحــق انه لا يمكن المرء أن يرى ما عساه يحدث غير هذا لمعتقل ، غير هذا الاعتقال النهائي في جلده . ان السجن يشكل الاطـــار المتمنى ، الاطار الطبيعي لهذا النوع من الحدث : اكتشاف انه لن يكون ثمــة بعدُ حدث ، وانمــا هذه التفاهة المجرجـــرة والثابتة ، الى الابد. ان حسنة الحبس هي ان المرء لا يستطيع بعد ــ ماديا ــ ان يغشّ : امتحان تحقيقَ شاق ، دقيقـــة الحقيقــة وقد تطاولت سنوات .

انني اكذب ، ابالــغ . ١) فمــوت بعض الكائنـــات (ا ، ف .) يطرح القضية من جديد على بساط البحث ، بل يدمّر اسباب البقاء والاستمرار . ٢) ليست لي بعدُ الا امنية واحدة : فليرجع زمن الكرز الذي كانت فيه اغنية او لقاء او

تصوّر مفاجيء لمتراس او لون شفق تكفي الى اعادة توزيع الاوراق ، الى اعادة العمل مجددا كما في اليوم الاول ، كما لو ان شيئا لم يضع على الاطلاق . فلئن اعطيت اليقين بان هذا الامل عبث، فلن الحّ . وهذا يعني انني انتظر توزيعة ثانية، ولست اخضع لاستنفاد هويتي الحالية ومواردها الهزيلة حتى الثمالة . جوع وعطش للاشياء الغريبة التي ستحدث لي بعد ، وتجدّدني كليا . ان المرء لا ينجو بغير هذا ، بغير وراءٍ ما .

لا يولد المرء ابنا ، بل يصبحه

لماذا كانت في الماضي هذه الحاجة الى الانتساب ، هذا الطلب للآباء غير المستجاب ابدا ، مهما كان العرض ؟ لانك كنت ترفض صفتك كابن ، كنت تخجل من اب طبيعي ، كنت تنكر دوما اصولك . كنت تمثل دور « ميرلين » الساحر ، الساقط من السماء، المترعرع في الغابات والسحب، وهو دور ابله سيىء العاقبة . ابن لغير ما شخص يبحث عن آباء يتبنّونه . كنت تريد في الحقيقة تفادي ان تتأمل ببرودة وموضوعية ووضوح طبقتك ووطنك وسلالتك ، بأن تشطبها بدافع انكار غاضب وحاسم : كان الغضب يغنيك عن الحقد ، وكان تصوّر اليتم يناسبك الى حد بعيد ، لانه كان يوفّر عليك واقعك القاسي كبورجوازي . وفي عام ١٩٦٧، استيقظت فجأة ، في اللحظة نفسها تقريبا التي كنت تحسب فيها انك تنقلب : فعاد كل شيء فجأة الى مكانه ، الواقع الخشن الذي لا بد من معانقته . تذكرت انه كان لك اسرة،

وانـك « كنت » هذه الاسرة ، وانهـا لم تكن المجانسةالمعيبة السابقة ، بل كانت ، في نهايـة المطاف ، ما قـد صنعك . وتذكرت في الوقت نفسه الى اي حد كنت فرنسيا ، مشدودا الى هذه الارض الصغيرة ، الى هذه اللغة ، الى هـذا التاريخ، الى شجر الكستناء ، الى سكاير الفولواز ازرقاء ، الى قصائد اراغون . وتذكرت كذلك انك كنت طويـلا في الصف ، في الليسيه ، في المدرسة ، وانك كنت مثقفـا فرنسيا شابـا متحدرا من اسرة بورجوازيـة ، وهي فكرة لـم يسبق لهـا ان لامستك من قبل ، وانمـا سجّلها كتابة صحفيون مـن « كوشابامبا » بكثير من الفطنة ، بل بقدر من الحدّة عانيت لتشفى منها ، من هذا الاكتشاف . ان « التذكر » كلمة غير دقيقة . فانت لم تنس ذلك . كنت تعتقـد فقط ان ذلك لم يكن يستحق الاشارة ، لم يكـن يعنيك بأي شكل ، وانه ليس من شأنك ، مثله مثل عدد سكـان جاكـارتا او خط عرض تومبوكتو . انك لم تكـن تعرف ان هذه التحديدات الخارجية كانت مسجلة في جسمك ، في مشيتك او حديثك او حُلمك، وان هذه الاحداثيات كانت تعبرك من الداخل ، وتتشابـك ثانيـا في نقطـة التقاطع من دماغك ومن قلبك ومن جهـاز جريان الدم عندك .

لم تكـن شيئا غير هـذا ــ تكوّنك ، اصولك ،سلالتك ــ ولكنك كبتّه . ومن هنا تأثير التنفيس ، والتفريغ الانفعالي، والانفـراج . لقد استشعرت ما يشبه التحرر اذ اكتشفت صلاتك وحبالك ومرساك . وحين قبلت ان تكون ابنا ، ان تتحدّر من أبيك بالتولد الطبيعي،تلاشى آباؤك المتبنّون،آباؤك المعنويون كالسراب،وابتعدوا وانزووا في الاقاصي،واذ ذاك كان

مرعبا الى اي حدّ شعرت بحاجة لان تكون بدورك ابا . لقد انفصلت في اللحظة التي تعرّفت فيهـا كل صلاتك الطبيعية. والانفصال على هذا النحو يعني البدء بالقدرة على ان النضال. على ان يصبح المرء مناضلا صريحا واضحا، محصورا، وبالتالي فعّـالا ، عامـلا بيـن اهله ، متواصلا بلغته الام مع رفاقه ومواطنيه ، حيث الحاجة اليه حقا ، اي حيث لن يلحظ احد انه هنـاك ، لان ذلك هـو مكانه تمامـا ومكان امثالـه. ان يكفّ عن ان يكون الغريب ، ذا الساق الواحدة (قدم هنـا ولكـن الثانية في مكان آخر ، لا يُعلم اين ، قابلة للانكماش وغير مرئيـة) نصف المسؤول ، المستشار ، الصلـة ، الوسيط .

ان مـا كان يرعبك في الابوة ، لمجرد التفكير بان هذا يمكن ان يحدث لك كمـا للجميع ، لم يكن اعباء الوظيفـة وتبعاتها ، بل الاعتراف بالبنوّة التي يصبح من المستحيـل آنذاك تجنّبهـا : فوحده من يقبل ان يكون ولـدا يمكـن ان يقبل ان يكون لـه ولد ، الاعتراف بالحادث الطبيعي بأنك لن تكون في آخر المطاف الا حلقة في السلسلة ، وسيطا ،نقطة مرور ، كمـا كان ابوك بين جدّك وبينك ، كما كان جـدّك بين ابيك وابيه ، الخ . انك لم تكن تريد (بدافـع رفض مبدئي ملتبس ، غير مفهوم ، كثيف) ان تدخل في لعبـة « تنحّ لاجلس مكانك » المبتذلة ، في لعبة الزمـن العابر الذي يسخـر من الناس ، كمـا لـم تكن تريد ان تحمل تذكـرة هويـة ولا اسم عائلة ، ولا ان تدفع الاشتراك من اجـل التقاعد او التسجل في اية جمعية للخريجين هنا او هناك . كان ذلك يذلك . انك اذ تعطي الحياة ، فينبغي ان تعترف ان

الحياة تنزع ، اذا أعطيت ، وان فردا معينا يموت دائما لانه ولد من فلان وفلانة ، في تاريخ كذا ،هنا وليس في مكان آخر . ان المهمات السرية تجتذبك لان المرء يغيّر فيها اسمه، ولانه فيها بلا سنّ ، ولا اسرة ، ولا ماض لفرط ما غيّر فيها حتى ولا جنسية ثابتة . انه يفلت من الشرطة ومن المؤسسات ومن اشكال الروتين وكذلك من نفسه . انهناك شكلا ما من الجراة الخارجية يوافق جبنا ما صميميا ، حسّ الاقنعة والادوار والوهم الفنائي او الهزلي ، وخوف مواجهة الذات في حقيقتها الرتيبة والمتعبة كفرد (+الرحلات، ولذة الاّ يكون المرء في اي مكان ، وان يصل ليمضي ثانية + الاستغراق في مشاغل تجزيئية ، تنقيطية او « تقنية » ، تتيح تفتيت الشخصية الحقيقية وحجج سوء النية = انني اكثر مما افعله وبالاضافة الى ذلك لست ما انا اياه ، ولا تظنّوا ، وكل ما ترونه ليس الا مظهرا ،وانا اغيّر مظاهري على هواي . هذا طبعا يحدّد السرّي الهاوي ، ولكن الهواية والسرية يتلامسان طبعا ، ويلتقيان في اكثر من نقطة) . الحاجة ذاتها لان تخدع نفسك ،ضعف الممثل نفسه ــ حتى ولو كانت القضية تمثيل المأساة ــ الذي يوحي اليك بأن لا تكون احدا فيما انت جميع الناس ، ايا كان ، ويمنعك كذلك بان تصنع طفلا . وخلف هذه الخداعية الطفولية والمرائية يختفي خوف العدم . فمنذ رضيت بأن تحيا (بشكل طبيعي) كفّ الموت عن ان يُرهبك . وفي ذلك اليوم ، رضيت كذلك بان تكون شخصا ما ، انسانا واحدا ، مع اسرة واحدة ، وبلد ووجه وليس وجهين ،وهوية واحدة وليس لعبة ورق تسحب كل يوم منها اجمل هوية

وامتعهـــا واكثرها تعرضا للخطر . لقد جاء كل شيء دفعـــة واحدة : التواضع ، عدم الاكتـــراث امـــام المـــوت ، الاعتراف بالاصول ، الحاجة الى نسب ، الحب غير الروائي ، الطبيعي ، الودود ، الثابـــت ، فهـــم التاريـــــخ والماديـــة التاريخية ، والحنان تجاه الاقارب ، والقسوة تجاه النفس . قبل ، وحتى الآن : غرور ، فظاظة ، عصاب ، ضلال ، رفض للتاريـــــخ الحقيقي وللضغوط الموضوعية المعيّنة للفعل التاريخي ، جهل عميق لماركس ولينين (حتى آخر ٦٧) ، انانية ، الدمعة ــ في ــ العين على نفسك وبصقـــة على الجميع . طبعـــا ليس هناك من انقطاع مطلق . عودة ابديـــة للهب الذي ينبغي اطفاؤه .

كنت تريـــد ان تمنح نفسك الحياة ، فكـــان عليك اذن ان تمنح نفسك الموت . كان الادعاء وهوس الانتحار يسيران معـــا . وانتهى بك الامر الى ادراك ان الحياة ليست نتيجـــة مرسوم دماغي ، بل نتيجـــة حَبل بطني . ليس شيئا يعطي نفسه ، بل يُتلقّى . وعلى الموت كذلك ان يكون متواضعا ، فلا ينبغي تجنّبه ولا السعي اليه طواعية ، وانما ينبغـــي ان نتلقاه حيث هو ، وكما هو ، حين يأتي ، بلا تعقيدات . ان امامك الآن حظوظا قويـــة في الا تكـــون مضطرا للجوء الـــى تطرّفات تطوعية ، فقد اصبحت اكثر تواضعا ، بما فيه الكفاية لتنتظر بهدوء وبغير استفزاز ، دورك يوم يحدث لك ذلك . ان الطبيعة تصنع الامور خيرا منـــــك ، او اعداؤك . فـــلا تستعجل ، ان لديك متسعا من الوقت .

ولقد عثرت شخصيا على هذه الحقيقة النظرية : ان فعلا ما ليس منتجـــا للتاريخ الا اذا كـــان هو نفسه محددا ، اي

نتاج تاريخ فريد ، ماض محلي . فليس من الممكن اقامة انقطاع ، واللجوء الى قفزة جديدة في التطور الاجتماعي اذا لم نجد الوسائل للاندراج في استمراريته النوعية (القومية ، المحددة تاريخيا .) .

وبعبارة اخرى : اذا اردت يوما ان تصبح ابا ، فابدأ بأن تتصرّف كابن . حاول على الاقل ، لان هذا ليس سهلا. لقد احتجت انت الى زهاء ثلاثين عاما لتصبح ابنا ، ولست بعدُ ابا .

اليتيم كابن بالتربيع ، وكابن فوقي بالقوة . ان لا يكون للمرء أب ، منذ البداية ، لاسباب من وضع مدني او سواه ، فذلك يعرّضه الى مضاعفة البدائل . كم يتيما لدى البورجوازيين المسجلين في الحزب ؟ ان سارتر يخطيء اذ يعتبر نفسه معفى من « الانا الفوقي » من جراء حداد سابق لاوانه جدا . ان اصحاب الامتيازات هذه غير موجودين ، وقدرنا مشترك . والانا الفوقي لسارتر المفرط الاخلاقية هي انا مفرط النمو . والاسوأ هو ان ننسى ان الانا الفوقي يعفى هو ايضا ، من اللذّة ، وان الوان القمع الحميمة تجلب مُتعا لا يعترف بها (على كونها لفظيّة) بصفة تعويض . ان الانا الفوقي لا يمثل بثياب الحداد . انه يتزيا كل يوم بزي مختلف ، وفق الفصول .

تصحيح . كنت بحاجة الى اب ، ولكنك كنت تحس بنفور تجاه العائلات ، ولا سيما الكثيرة العدد ، وهو نفور لم يفارقك . كانت لك نزعات الابن الوحيد . المطالِب بأب حصري ، المدافع بحرص شديد عن حقوقه في الاعتبار . اب بعيد ، بارد ، وأب بالمقدار نفسه . ما ان تشمّ رائحة عائلية، رائحة قبيلة صغيرة ، حتى تلوذ بالفرار . في « المدرسة »،

الاسرة : تقزّز . ورائحة عائلة « الحزب » الفرنسي (او على الاقل ما عرفت منه) اعطتك في الوقت المناسب اشارة الانذار . ليس للشيوعي عائلة ولا قوقعة . ان له منظمة وهو يواجه العالم ، يواجه الذين لا يفكرون مثله ، يواجهالواقع اللامبالي او المختلف والذي يوجع . ليس ثمة متواطئون، وليس هناك من ضلال . على الشيوعي ان يكون جامع جراحات . اما الاسرة ، كل اسرة ، ايا كانت ،فهيشهوانية، وهي تسعى الى تجنب الجراحات ، وان تبقي على استمرار السعادة الرخية ان يظلّ افرادها معا ، وعلى رقة ان يبقوا فيما بينهم . ان عذوبتها في انغلاقها . وكذلك لاوعيها وانحطاطها : فالزمن يمضي في الاسرة كما لو كان لا يمضي ، وفجأة يصاب العم او ابو الزوج بذبحة ، فيموتان قبل ان يدرك احد انهما كانا عمليا في سنّ الموت . وينتهي الامر بانغلاق حزب لم يَعد النظر في نفسه قط الى ان يلعب الدور نفسه : فجأة يأتي تموز ١٩١٤ ، ويتوجّب الاسراع الى دفن اشتراكية ديموقراطية كانت حتى الامس في صحة ممتازة .. اتستطيع ان تتعرّف دائما فيالوقت المناسب الى رائحة العفونة تلك ، الى النفَس العذب الذي يصعد من اولئك الذين يتلمّظون بسرد الحكايات نفسها وبالاستماع اليها منذ ثلاثين عاما ؟ لا تنس ابدا : ان رائحة الاسرة هي رائحة الموت (رائحة اولئك الذين سيموتون من اجل لا شيء ، في سريرهم ، وهم نائمون).

التعسف الابوي

جذر من جذور عديدة لوهم الابوة في الحياة العادية

(والواقع ان « فيورباخ » قد قال الجوهري فيما يتعلق بالارتهان الديني . انظر ملاحظاتي حول علاقة السياسة / الدين ، وهي علاقة معقودة بفكرة الخلاصية المشتقة هي نفسها من فكرة « الاب » انكلي) : ان المرء هو تلقائيا ، تجاه الآخر ، ارسطوطالي (وليس في هذا ما يدهش : فقد عثر « بياجيه » في فيزياء ارسطو على منهجة الطراز الفكري التلقائي ، الطفولي) . ذلك انه يفترض لدى الاب قدرة ابوية سابقة — ولدى السلطة قدرة سلطوية سابقة — انتقلت فقط الى الفعل كما بدافع من تنازل . قدرة محفوظة ،عاليا، تبرر الممارسة الفعلية . فالاب يفترض مفوضا فعليا عن قدرة ابوية قانونية . وينسى الناس ان الاب قد تجاوزته ابوته تجاوزا كليا : فقد حدث له اتفاقا هذا الشيء الذي هو اكبر منه ، ولد (او : السلطة السياسية ، اثر فني ، الخ .) انه ليس مهيأ على الاطلاق ، ولكنه مأخوذ رغما عنه في دوامة سعيدة حملته الى السلطة، او الى اصدار هذا الرأي او ذاك ، او الى صنع ولد .

ان الناس يساوون ، بعديا ،بين الفرد وعمله ناسين (وهنا الوهم السحري للامر الواقع في هذه المادة) ان في الثورة اكثر كثيرا مما في الثوري (قال فيديل : لقد قمنا بثورة اكبر كثيرا منا) ، وفي الكلمة المنطوقة اكثر كثيرا مما في دماغ من نطق بها ، وفي الكتاب اكثر كثيرا مما في مؤلف الكتاب .

مثال معاني : « الدوبرية » باعتبار انها ذكرت هنا مرة. ان دوبريه يعتبر مرجعا (صغيرا) في مادة حرب العصابات اللاتينية الاميركية . والمفروض : انه اذا قال « د » هذا ،

فـلا بد ان لـه حججه ، بكمية اكبر ونوعية اعلى من الحجج التي طرحها سوادا على بياض . ويفترض ان ثمـة جبـلا جليديـا من التجارب والافكـار والمعلومات والنيات الخ يشكل « د » العلني قسمه الخامس العائم ، المطبوع والمقروء . والواقع ان « د » قد قال ذلك اتفاقا ، لا طبيعة : فذلك قد نتج مـن هنا ومن هناك ، من محادثة هنا ، ومن استدلال هناك ، ومن ذكرى غامضة في الوسط ، وكلهـا صُنعت على عجل . كل شيء خداع . فبمجرد أن تكون هنـاك سلطة ، فهنـاك اعتقـاد ، واسقاط ، واخضاع . مثال ذلك ، هذا الايمـان الذي كنت تكنه بالقدرة الكليـة لرؤساء الدول . فكلمة مـن الرئيس ، وينتشر النور ، وتشرع الابواب . ولا يعرف الناس ان الرؤساء يأخذون الاخبار من الصحف ككل الناس ، وانهم لا يستطيعـون ان يفعلوا مـا يريدون ، وانما يجذّفـون عن قرب ، ويتعاونـون مع قوى معارضة ، ويحيّدون الخصـم الخ ، بحيث تكـون قدرتهم على التقرير معدومة تقريبا .

انهم مُرعبون « كالكرات العليا » حين يُنظر اليها من الداخل، فيبدون كأنهم ممتلئون بما هو اتفاقيّ وصدفويّ في العمل اليومي وفي اختيار نوع من الخضوع السلبيّ لمـا يستحيل عدم القيـام به .

بمجرد ان يكون هناك اب ، فهناك خداع للابن وسلب وارتهـان . ولكن بمجرد ان يكون هنـاك انسان ، فلهـذا الانسان اب (رعيّة ، مواطن ، مؤمن ، مقاتل ، محازب) فأمام الذي لا مفرّ منه ، لا بدّ من ترك شيء جانبا ، في الحفظ ، والترديد كل صباح ان الابن هـو الـذي يصنع الاب ، وان الانسان هـو الذي يصنع الآلهـة ، وليس الاب من يصنـع الابـن .

حين يصبح المرء هو نفسه ابا ، اتصور ان لا بد من ادراك جانب التمثيل الملازم للسلطة الابوية . ان المشعوذ لا يستطيع ان يصدق وهو يقوم بالاعيبه (فهو نفسه قدوضع الارنب في القبعة) انه لا يمثل المنذهل او الصوفي .

حين اطلق لينين كلمته « خذوا بايديكم شؤون الدولة » ـ او حين يقولها الآن ماو المتناقض ـ فانما كان يذكر الجميع بأن : الدولة ، والسلطة ، انما هي انتم . فكونوا اباكم . ان في ذلك طلبا للمستحيل ، ولكن ينبغي التصرف كما لو انه كان ممكنا . ينبغي ان يعرف المرء انه لا ينطلق ابدا من الصفر ، ولكن يجب ان يتصرف كما لو انه يفعل ذلك (ان يتبلّل بالتقاليد ليجففها بعد ذلك) .

حيث برهن ان « غيومان » ليس « ماركس »

« الانبعاث الاول للجمهورية » ،تأليف هنري غيومان : حيوية كلية الاحتقار ، وابتهاج بوليسي اكثر مما هو محب للعدل ، ولكنه كتاب أخاذ ، بالاضافة الى اسلوبه الماهر . والحق ان غيومان ينقل ، ببسيكولوجية الوثائق السرية، المسلّمة الماركسية : ان ما يظهر نفسه ينبغي تفسيره بما لا يظهر نفسه . وهذا النقل يؤدي الى تفسير معكوس ، لانه يقصد هنا الافراد القائمين والشخصيات ، وليس الجموع والبنى الاجتماعية . انها لمتعة مشبوهة ، مبتذلة بعض الشيء ، ان نأخذ في كشف صغارات الاشخاص الكبار، وان نفرغ اعماق الادراج ، وان نمثل دور قضاة التحقيق المتهكمين امام تناقضات المعتقل الذي يتوافق : تلك حقارة

فرنسية . ان غيومــان يهاجم الاشخاص ، ويتوقف هنــا ، مستمتعا . اما الماركسي ، فيجتــاز صــدر المسرح دون ان يتوقف ويهاجم الآليات العامة ، وليس فقط في الاروقة . ان فضح اكاذيب شخصيــات الطبقة المسيطرة ونزواتهــا لا يؤدي فحسب الى اخذ صورة جزئية عن حقبة تاريخية ، بل يؤدي كذلك الى تشويه اكثر جوهرية : فهذه الفطنــــة الاستعاديــة تسجل الجوهري في الحقبة ، حمّام اوهامهــا وتعاصريتهــا المعميــة بالنسبة لمــن يعيشونهــا ويفحصون المستقبل ، وهم في داخلها . ان حدّة الذهــن والعلم الغزير اللذيــن يتمتع بهمــا امثال غيومــان يفضيــان الى السذاجة القصوى : الاعتقاد بان الرجال ، وبصورة خاصة الممثليــن السيــاسيين ، يحركون من الخارج ايديولوجيتهم الخاصة كأنهــا آلــة لخداع الجماهير او موكليهم او خصومهم ،ويكون ذلك على معرفة تامة بالقضية . والواقع اننا قادرون علــى معرفة القضية ، اما هم فلا . وعلينــا نحن ، كمؤرخين ، ان نأخذ ونبني معرفتها ، ولكن علينــا كذلك ان نعرف ،بالاضافة الى ما لا يمكــن ان يعرفوه ، هذه الواقعة الاساسية انهم هم انفسهم ، المعاصرين ، « لا يمكن ان يعرفوه » .ان المخدوعين الاولين هم الخادعون . كانوا يسبحون في اكاذيبهم ، وكان ذلك صدقهم ، وعيهم المزيف كلاواعين ، ولكنــه وعيهــم مع ذلك (خاصة عند لامارتين : فنحــن نعلم انه كان يخــدع « لويس بلان » ويحوك عباراته الداعية الى الاخاء لانه مالك عقاري ، ولانه من الاشراف الخ . هذا صحيح،كما انه صحيح انه لم يكــن هو يعرف ذلك ، لان المرء في عام ١٨٤٨ لم يكــن يقيم علاقة بين مداخيله ووضعه الاقتصادي واصله الطبقــي

والافكار الكبرى التي كانت تسقط عليه من السماء او تأتيه من القلب) . واذن ، وذلك مفهوم آلي للدائرة الايديولوجية ـ فان العالِم هنا يأخذ لحسابه الايمان الشعبي الذي تقدمه مرة اخرى الموجزات الماركسية المزيفة . ولكن ايديولوجيةً ـ اداة لا تتعلق بعد بالايديولوجية ، بل تتعلق ،كخدعة حرب ، بالممارسة السياسية . لقد اخذ غيومان من المادية التاريخية القشرة وترك الجوزة .

يجب ان ندرس هذا اللون الغريب من المثالية : ان الجموع طيبة وشجاعة ما دامت في حالة جموع . وما ان يظهر فرد على المسرح حتى يصبح مشبوها ،ايا كان ، خاصة اذا اكد انه يمثل مصالح الجموع ، حتى ولو تصرّف موضوعيا على هذا النحو . ان لكل فرد اسراره وخفاياه واروقته ـ فلا يمكن ان نصدّقه بمجرد ان يتكلم (صدقا) ولكن كل كلمة تأتي منه فوق ذلك لا بد ان تنبعث منها رائحة الكذب او التمثيل (المزيف) .هناك « بلانكي » وقضية« تشاسرو »: ان غيومان لا يوضح فيها شيئا ، بالرغم من انه لا يتناولها بحرفيتها . ومن المناسب ان يكون « بلانكي » قد استطاع ان يكون مخبرا للشرطة . و « الانقياء » اما انهم غائبون او ملوّثون . اما انهم يمرون تحت الصمت مردودين كمسلّمات خلقية الى قلب الجموع الشعبية ، او انهم ، بمجرد ان يخرجوا منها ، متهمون بالتصنّع او بالرياء . ليس ثمة من نقيّ الا بالقوة ،في حالة غازية ، ذائبا في اندفاعات الشارع واضطراباته . ان نقيا بالافعال ، في حالة الفرد الصلبة ، مشهورا او ذائع الصيت ، هو ملوّث بالقوة . انها حركة

مستمرة مرهقــة يمكــن ان تعكس ، في هذا البحث الاحمق عن الاصيل والصحيح ، نوعــا مــن النية السيئة .

هذا يتضح بيــن السطور . لان صفحة يكتبهــا غيومان تبقى مع ذلك عيدا للفكر .

صورة +صوت = سعــادة

في فيلم ،لنقل انه « المحاكمة » لويلز (المتتالية الختامية مع لحن التمهّل لالبينوني) ،تلد الموسيقى صورة نواتها مــن الصمت . والحركة المتراكمــة للصور السابقة تجد نفسهــا كل مرة مكثّفــة في ــ معلقة ب ــ الصورة الحالية علىالمستوى الذي نراه الآن (كالبحر كله في الموجة التي تنهار امامنا على الشاطيء) ، وما هو على وشك ان يقوله لنا الفيلم مترجم .. ولكــن الى موسيقى ، وتبقى اللغــة مذهولة . وبالاجمال ، فان السر البصري يخرج معزّزا من السر الموسيقى ، بالرغم من ان موسيقى جيدة في فيلم هي جوهر التعرية المرئية .ان ما هــو معروض هو هذا التجلي المستحيل الذي لا يمكــن لشيء قط ان يتلفظ به كلامــا ، والذي يملأنا مع ذلك ــ كأنه ندم مبهور محكوم بالصمت . اننــا لا نملــك شيئا نقولهحين نخرج من مشاهدة فيلم جميل ــ وهذه السعادة « مزعجة » ازعاجــا فظيعــا .

ما عساه يكــون اذن مؤلما الى هذه الدرجة في« مظلات شربــورغ » ، مرهفا وخفيفا الى هذه الدرجة ، فرنسيا الى هذه الدرجــة (بالمعنى النيتشي للكلمة) ان لم يكن رصانــة كبيرة لا تأخذ نفسهــا مأخذ الجد ، الالم المخبوء في موسيقى

تعبّر عنه ونغفر له ؟ وكذلك وجه كاترين دونوف ، الكئيب كآبة مدهشة ، البسيط ، المغسول ، البريء ، النبيه . كانت جميلة كما تكون المرأة جميلة في شارع من ستوديو سينمائي ، ولكن لا كنجمة تتبضع من شارع . ان هذه هي التصفية المعجزة للصورة بالموسيقى .

سبق قوله ...

ـ لماذا انت تعيس ومرتبك الى هذا الحد ؟ ما هو شاغلك الرئيسي ؟ وما هي مشكلتك ؟

ـ سأقوله . انني قلق بشأن «روزسلين دوكومبين» . أكان انه على حق ام لا ؟ المشكلة السياسية الكبرى اليوم . وتلك هي مشكلتي . اترانا قد حققنا اي تقدم منذ القرن الحادي عشر ؟ اهذا مفهوم ؟

ـ انني شديد الخيبة ، يا سيدوبري. وانت لست بشخص جدّي ابدا. كان عليك ان تجيب بشيء حول الارهاب او حرب العصابات او الثورة . وتلك هي مهمتك ، في آخر المطاف . انك تعيش في هذا القرن ، لا في زمان « ابيلار » . انك شاب عجوز جدا .

ـ كنت اتحدث بالضبط حـــول حرب
العصابــات وحروب التحرير الوطنية
ولكن على نحو جدّي اكثر من اللزوم.
ـ انه الامر نفسه الا ترى ذلك ؟
(مطلع او نهاية مقابلة مستحيلـــة
وضرورية مع ممثل لوكالة الصحافـة
العالمية او الاسوشيتدبرس .

* * *

تكـاد لا تعرف شيئا مـن نزاع المحمولات (*) ، وهذا ما يؤسف له بالنسبة اليك . ان كل ما كنت تعتبره صميميا، ما كنت تعتقـده اساسيا ، غامضا ، غيـر قابـل للتعبير ، النوع والنواة والجذر ، زهوك كمالك صغير ، كنزك الليلي ـ كل ذلك قد عُرض في وضح النهار ، ونوقش علنـا ، وكـان موضوع بحث في مدارس اللاهوت بالقرون الاولى من هــذه الالفية . ان الامر دائمـا على هذا النحو . يحسب المرء انـه الاول ، فاذا هي قحبة عجوز تلقّت مئة مثلك . ويمدّ المـرء لسانه طـوال ساعـة امام ورقته ، فاذا بالذي يتهلل جذلاانه اخيرا قـد وجده انمـا هو وتفضلوا بقبول فائق الخ . . وهذا كل شيء ، في جميع الطوابق . فمن اصل الف كتاب منشور، تسعمئة وخمسون منها قد روجعت وصحّحت عن طبعـات سابقة ، ولكـن مؤلفيهـا مقتنعون بنية حسنة انهم قــد اكتشفوا اميركا . وامام عقل صعب التناول ومجدد ـ « ج .

(*) هي المعاني المجردة الخمسة ، اي الكليات : الجنس والنــوع والفصــل والخاصة والعرض العام . (هـ.م) .

لاكان » على سبيل المثال ــ نجدنـا مسرورين جدا بأن نستطيع الالتفاف حوله وتفاديه : ١) بالتعلل بالدرجـة وبمـا تثيره حتما من تنفج ٢) بملاحظة ان عدد الاغبياء في آلوقت نفسه لم يتناقص على الاطلاق . والحق انه اذا استمر عدد كبير من المفكرين الجيدين في انطلاقتهم ، واذا استطاعوا ان يمضوا بمثل هذا اليسر كما لو ان هذا الشخص الذي يشرف عليهم لم يكن موجودا ، فاني استنتج برضى ان بوسعي ان اعمـل مثلهم ، وان كنيسة باطنيـة صغيرة اخرى لن تغيّر مجـرى العالم . ان عقلي يتذوق نوعـا من الثأر الجماعي ويعتبر نفسه مفوّضا بتجاوز ذلك . وانه لثأر ديموقراطي تؤمنه لاكبر عدد المعدلات الاحصائية ومبدأ الثبات الذي يحكم لفترة طويلـة المظاهر الاجتماعية للبلاهة .

ان الحياة تشبه امتحانا بالترجمة اللاتينية :قطعة من « حرب الفوليين » للترجمة الى اللغة العصرية ، بعدد المرات التي فيهـا حيوات خاصة ، عدد متشابه من المرات الى مـا لا حـدّ له . وهذا لا يجدي شيئا ، ما دمنـا لن تصنع ابدا نصـا افضل من النص الاصلي ، ولكـن كل واحد منـا يمضي مقتنعا بانه عمل عمـلا مفيـدا وانـه اخترع الحياة مـن جديد . واولئك الذيـن اتاح لهم الوقت وسـوء الحظ ان يدرسوا « علومهم الانسانية » ،وان يكتسبوا ثقافـة كلاسيكية ومعرفة افضل بالماضي ، هم اقل اوهامـا من الآخرين ،وهذا هـو الفارق الوحيد . فبمقدار ما تنقص سذاجتهم وهـم يتقدمون في تفحص الملفات ، يزداد فتور همتهم وميلهم الى الاشمئزاز . كنت على اعتقاد ، وانت في السادسة عشرة ،بأنك اوّل من يدخل قصر « الآلام الكبرى » ، وان تفتتح المعرض :

كان الفبي الصغير « يؤمن بنفسه »، كما يقال ، وها ان الفبي الصغير تساوره الآن الشكوك ولا يعتقد نفسه انه من مواليد الامس ، بل من مواليد الدهر الرابع ، الامر الذي يطيل المنظورات ويقصّر الزهو . فاذا وضعنا الدهور الجيولوجية على حدة ، فان المشاجرات القروسطية قد طرحت اكمل طرح عبارات المسائل التي تشغلك . أترى التصورات واسماء العائلات والمقولات والكلمات المنتهية بحروف النسبة تطابق شيئا واقعيا ، ام انه ليس ثمة من واقعي الا الافراد الذين لا يصنّفون والملتصقون فيما بينهم بأكاذيب مناسبة ؟ انك تنفجر ضاحكا ، ولا تعرف لك اية الفة مع هذه العظام المطروحة للكلاب ، ولكن ليس هناك اكثر من ذلك في الوان قلقك الملتبسة الا هذه الصياغة المدرسية ، المتجمدة البلهاء. انك تردد ، بكثير من المعاني المزيفة والاخطاء واللغو ــ وهنا التفرد ــ نزاعا باللاتينية ومجادلة مدرسية ، مغلوطة تاريخيا ، ومتخلفة الى درجة هزلية مضحكة تقريبا . انك تلدها ايضا ، وتعاني جميع آلام الترديد الاكراهية والتيه ، والتقريبية ، كمن يمثل دور شخص من غير ان يحفظ نصه . كنت تؤمن بذلك . وكنت تقوم بالتجربة الكلاسيكية للاسمانية من غير ان تعرف ما كان اسمها ، فكنت تفمفم بمشقة ، باحثا عن كلماتك وعباراتك التي يعرفها عن ظهر قلب اي دكتور في الفلسفة . وها انت الآن منزعج جدا. وذلك قديم قدم العالم . ولن تكون الا عارضا متواضعا في ساحة الاسمانية ــ عبر ــ الازمان ، وبضاعتك تبدو عليها هيئة ما سبق ان رؤي ، هيئة زرية تبكي الزوار والاخصائيين . وستعاني حتى النهاية مشكلاتك كاسماني

قديم ، ويبدو لـك هذا اللقب خشنا ، ولا تفهم جيدا مـا عساه يعني ، وستحمله بخضوع ، من غير ان يحملك احد على التراجع عن يقينك بأن ثمـة احراجات مؤثرة جـدا تختبيء فيـه .

العـب اذن ، اذا جـرؤت !

كل ما يمسّ الفن لعب . فـلا بد اذن من الانصراف الى « التقنيـة » ، الى قواعـد اللعبة، ومعالجتها بجدية . اما ما عدا ذلك ، ففكاهة وتجاوز . وبالامكـان ان نغفـر للفنـان الانتساب والوقار : ١) حين يستندان الـى السذاجة او الايمـان المسيحي او العصامي . ٢) وحين ينخرط الفنـان في فنه ، بلا اي اعتبار للدعايـة او الغرور ، مواجها الاخطار بصفته انسانا (كأن يدفع اجرة منزله او لا يدفع ، وان يقطع اذنه او لا يقطعهـا ، وان يبيع او لا يبيع اثاثه ليشتري مـا يأكله) : فان غوخ ، وواز . امـا الانتساب والوقار ، فهمـا لا يحتملان : ١) حين يستخدمـان ميتافيزيقـا للاغبيـاء ، تعاظما دعاويا يقنّع العمل بـدلا مـن أن يصاحبـه خفيـة (ماتيو) . ٢) حيـن لا يرهنـان اطلاقا الحيـاة او المـوت فيمـا همـا يتلبّسان الجهاز المسرحي لمسائل الحياة اوالموت، اي حيـن يكونـان من طابع اللغـة والملبس والمسلك ،وليس من طابع الالم (السرياليـة في ممراتهـا الجانبية). وليس من قبيل الصدفـة أن يكـون اكثر الفنانين ابداعا ، ان يكون الرسام الذي يمكن بصدده التحدث عن الفن المطلق ، بهلوانا او الها ريفيا (كما عنـد الرومـان) او مهرجا او متعـدد

الحرف : بيكاسو . ان من اصبح الفن به مطلقا ــ او تورية ؟ ــ يملك دعابات حرفي ، بلا جمل ولا تصنّعات ، وليس هو حكميا ولا دراماتيكيا على الاطلاق .

ان السريالية وما يحيط بها تتحدّر ، في نظر ٧٥ ٪ ، من بودلير ، المتصنع الكبير ، صفّاف الكلام ــ الشاعر الكبير ، الذي نجح في الخداع في السرّاء (ادغار بو) كما في الضرّاء (الترشح للاكاديمية الفرنسية) . وما يعوّض السريالية ، انما هي هذه الـ ٢٥ ٪ التي تتحدر من رامبو المقتضب ، المستبصر (صورة بالحالة الصافية ــ بلا ايقاعات ولا اوتاد) ، القلب القاسي الذي لم يحب نفسه ولم يفضلها قط : تلك هي المعجزة التي ينبغي انقاذها لدى جميع السرياليين ، بما فيهم اكثرهم بلاغية مثل برتون ، النصيب الالهي من الاستفزاز اللاواعي لما يفعل ، ومن السذاجة الحرفية ، لا الادبية ، للسعادة في حالتها الخام ، وليس من السعي التفاخري للشقاء او للملعون . انها جزء « كروفيل » او « فاشيه » الذي تخترق دواماته هنا وهناك نصوص الاحياء او الباقين .

ربما كان المنتحرون لا يحسنون الكتابة بما فيه الكفاية . ولا شك ان ما يعجبنا لدى امثال « كروفيل » (او حتى « ارتو ») هو قلم خائر . وما انقذ الآخرين ، وما لا يُغفر لهم ، وما يضفي عليهم هذه الهيئة من المشعوذين الذين يحسنون تمثيل ادوارهم ، ومن البهلوانيين الذين يودّون كثيرا ان يؤثروا في الناس ولكن الناس يعلمون انهم سيقعون مرة ثانية على اقدامهم ــ انما هي سهولة مذهلة ،

وفن مستهلك ، وخصب كان يفتقر اليه المنتحرون والمتألمون والتطرفيون. لقد ادهشني دائما ان يكون « ايلوار »، بعد بضعة ايام من موت « ناش » ، قادرا على ان يكتب وينشر قصيدة « الزمن يفيض » . « ان حبي الخفيف جدا يتخذ ثقل العذاب .. وقد تعثّرت بقبر حي وميت .. » والمذهل هو في الواقع مدعاة الاعجاب. فاذا تجاوزت معلوماتنا ومعايير صدقنا او اصالتنا حدا معينا من الموهبة ، او من المهنة ، فانها تكف عن ان تروج . حتى ان المرء ليعتقد انه يُحسّ بوجع في الكلمات فيما وراء هذا الحد .

ان « ڤاسارلي » يقدم مثال فنان يحمل لعبة بنائه محمل الجد ، من غير ان يحمل نفسه هو بالذات محمل الجد . والدليل انه يُصنّع اللعبة ، ولا يحكم على نفسه بأنه قد انخفض لمجرد ان المسألة مضت على ما يرام .

ليس ثمة ما هو اكثر ازعاجا من نزوات الرسامين . كل شيء فيها مباح ، وهذا مبدئيا رائع . ان تلك النزوات طبيعية لديهم . ولكن ما هو اقل طبعية من ذلك تلك العبادة التي يحيطهم بها العلماء والمنظرون .

النقد الفني او الفائض الضروري

هل ينبغي الاقرار بوجود قانون للجاذبية بالمقلوب ، قانون للدفع المغنطيسي ؟ القطب المفرد ـ الحسي ينادي آليا تثبيتا في القطب العام ـ المجرد ؟ ان الرسم ، اذا وضعنا السينما بين هلالين ، هو الفن الشهواني بامتياز،

الحواسي والمادي بازدواج ، اولا بما هو متعلق بالعصب البصري ، بالعين التي هي اكثر الحواس وجودية ، وثانيا بما اللوحة ، وفق كلمة « دنيس » الرسولية ، هي جوهريا « مساحة مسطحة مغطاة بالالوان ومحمولة باطار من خشب » .
ان الرسم يقدم للنظر ما لا يمكن التحدث عنه ، ما لا معادل كلاميا له ، اذا تحدثنا بصرامة ــ احساسا ، تجميعا للالوان ، طرفا من عالم خام . ان اللوحة هي صمت معروض على نحو ما ، ومن هنا الانطباع بأن كل كلمة ، بصدد لوحة ما ، هي ثرثرة (بالرغم من ان الوصف يستطيع ان يزيد الحدة البصرية بطريقة غير مباشرة) خاصة وان التعليق النقدي يطفر تلقائيا في الوجهة المعاكسة ، نحو الخطبة المادية الرديئة . ان ذلك هو الانحدار ــ الضد الطبيعي ، النزوع الى الكلمات الكبيرة ، ذلك النزوع المألوف جدا في الاعمال النقدية . كما لو ان القمع او اخفاء التصور او اللفة باللوحة وبالنظر طوال الوقت وبالانفعال او التأمل كان يجد لونا من التعويض او الثأر في الخطبة او في الرواق . ما يشبه الرغبة الشديدة في الثرثرة عند الخروج من عزلة في دير . ان المرء ليجد نفسه وقد فقد توازنه بممارسته الاحادية الجانب للحسّ البصري ــ رؤية لا يرافقها الكلام الذي يمثل في الوقت نفسه فضيحة خلقية وضيقا ماديا . شيء ما غير مناسب ، وغير محتمل في الوثنية الجذلة ، في الثقة الصافية بالطبيعة ، وبالمادة المحتفى بها تحت اشراف العجينة والزيت والالوان وشعرات الريشة ، كل هذه التي لا يستطيع اوفر الرسامين تصوّفا ان يفلت منها من غير ان يكفّ عن الرسم ــ والتي ينبغي على التوّ غسلها وتجنّبها

ومراقبتها : ان للكلمة النقدية وظيفة رقابة (معنوية) وعلاجية (توازن مادي) . فهي تقمع فضيحة بردّها الى طبقات الثقافة المقبولة . آن ما هو تعبير محض« لا بد » من ان يكون له معنى . وصورة للعالم مجردة من المعنى اشبه برئيس دولة عارٍ : فهذا شيء غير مسموح به ، الا ان نقلب اسس النظام الثقافي او السياسي ونخربها . ان الضرورة التي تدفعنا لان نهديء باللفظية ، ولان نصمت ، تحت فيض من العموميات ، القلق الذي تثيره عبثية الآثار التشكيلية ، تلك العبثية الحادة والهادئة في وقت واحد ، تتصف بطابع شديد الاقلاق . ان كل ما في استعمال الكلمات الجمالية الكبيرة من صفات الانقاذ ينذر بكارثة (فالمرء يسقط في محاولة الخروج الى صمت معبّر ملىء خارجا وناعم سطحا . واقل متعة صامتة تدفع ثمنها بالتبريرات . وبعبارة اخرى ، فان شراء الكاتالوج ، عند دخول المعرض او الخروج منه ، هو امر لا مفرّ منه انتروبولوجيا) .

في « بانوراما الفنون التشكيلية » ينشر « جان كاسو » مأساة « البشرية المعاصرة » فوق التحولات الداخلية للرسم الحديث . ان للرسم طبعا معنى واطارا يتجاوزه : ليس هو لوحة ما بصورة خاصة ، بمقدار ما هو كون مجتمع ما يتبنى الرسم ، سلسلة من اساليب الرسم ــ الوظيفة او تحولاته . ولكن المأساة الغربية تنطوي على نقيضة كحافز ، وهنا « الروح » في مواجهة « الطبيعة » ، وليس اقل من ذلك . ان الفن المجرد يمثل المثالية المطلقة، تلاشي «الطبيعة» الكامل في « الروح » . وهذا امر سخيف ، لان ما في اللاشكلية من اثارة (وما في تطورها من جدلية) هو

العودة للقوة ، او هــو بالاحرى انجاز الاقلمة : مجيء مــادة البناء في الحالة الخام ، ومجيء المصادفة ، والكثافة الصورية واحتماليــة الاشكال : التمجيد الحقيقي (ولا يهم ان كــان لا اراديــا ام لا) للعنصر المادي الموضوعي الخارجي والمستقــل لروح الرسّام : تدفقات الرمل عند « ماسون » ، والــوان القذف المتعرّج عند « بولوك » ، والرسم المحبّب عند «دوبوفيه» . ان ذلك يفضي الى الشيء الحركي الذي يتولى هــو نفسه تحولاته وحركاته وحتى نقضه . وتكون القضيــة بالاحــرى قضية قتل « الروح » قتــلا حقيقيا امام « الطبيعة » ليتم بواسطــة مفاهيم المثاليــة القديمة وصف مغامرة بعــد ـ مثاليــة لا تجري ، بأي حال ، على ارض المفاهيم ، بل طوعــا لقوانينهــا الخاصــة .

نقائض وتضادات : بلاغيــة اعاني منها ، عيب ذهني ، قولبة تربوية . وسيأتي النقد الفني وهذياناته الكئيبة ، بشكله المتعالم ، ليعزز ملاحظات « بارت » حول هذا الوجه المتميز لثقافتنا (في تحليله المذهل لدُمى « بونراكو ») وهو قابــل للتعميم بقدر مــا هــو محدود بالتقنية المسرحية . « ان اعمال « بونراكو » تسخر من التضاد الذي ينظــم كــل اخلاقيــة خُطبنا » . أجل ، ان « بارت » يظهــر الكيف . امــا اللماذا؟ ان اللماذا ذو طابع تاريخي . ان اخلاقيــة خُطبنا ، او شكلها التضادّي المألوف ، يستمد اصله من المسيحية ، وعلى نحــو اوسع ، من الرمزيــة اليهودية ـ المسيحيــة ، مقننا بنفسه التعارض البدائي المقدّس / المدنّس ، المحظور / المسموح ، الخيــر / الشر . لقــد خلّقنا هذه الازدواجية الدينية ، وهذا الزوج الاخلاقي اثّر في بسيكولوجيتنا وفي فلسفتنا وحتى

في مفهومنـا للتاريخ (بمـا يتصف به مـــن ميثولوجي : البروليتاريا ضد البورجوازية ، والحرية ضد الراسمال، الخ . ان لليابان وللشرق اجمـالا منابع دينية اخرى تسيطر فيهـا تجربة « الواحد و « الكل » ، تجربة الاتحاد . ان تهــذا الديـن شكـلا ملحميـا او تشكيليا اكثر منه مأساويا : ان رفض الزمـن كأمر جوهري للخلاص ولتاريخ الآلهة ولتاريخ البشر ، يفترض منطقيـا رفض المأساة . ومن سوء حظنا ان المسيحية ، عن طريق سرّ التجسيد والآلام والفداء ، قـد اضفت قوة القانـون او المقولة الاستعلائيـة على مأساويـة الزمن . لقد ارسل الخالق الازلي ابنه ليولد ويموت في مثل وقتنـا . والزمـن محسوب علينـا نحن انفسنـا (وليس هنـاك تقمّص) من اجل الخلاص : فمن الممكـن ان تحصـل مفاجئات على مسرح الحياة ، وازمـات وتحولات ، ولكـن ليست هنـاك عودة الى الفصل الاول . ربمـا لا نزال نحـن الملحدين اتقياء مؤمنين عن طريق مفهوم مأساوي للتاريـخ ، ولتاريخنا بصورة خاصة ، ولكل تاريـخ (ومنـه تـاريـخ الرسم) : ان هنـاك قوى تتقاتل بعدد مزدوج ، هنـاك صراع، وانتصار قوة هـو هزيمة الاخرى . ارجوحة مسرحيـة تدفع الى تأرجحات بلاغيـة في الكتابة وفـي تقسيمات الحياة الحاسمـة .

اي نـوع مـن البشر ؟

لتعرف اي « فرد » انت (سنتساءل فيمـا بعـد لماذا تسعى الى معرفة ذلك) يجب ان تسأل نفسك الى اي «نوع»

تنتمي ؟ في العالم الغربي كثير من الانواع ، ولكن هناك نوعين اساسيين ، « عائلتين » . اولئك الذيـن يجدون انفسهم ، لانهم يخشون الموت في قلب الحياة ، خاضعيـــن لتوتر او لافراط أو تلزمــن . واولئك الذيـن لا يجدون في الحيـــاة شيئـــا غير الحياة ، فيمجدون بشكل طبيعي الراحة والتوازن السكوني والانتشار في الحيّز . هنـا غيـاب شاق للصور وللانتاج الفني . ولا بـد لك ان تعيد في الذاكرة خلـــق تشكيلياتـك الضالعة ، اعمـال اسرتـــك . ان التعارض الكلاسيكي / الرومانتيكي في الادب ليس محتملا على الاطلاق، وما تراه عينـاك فقط هو وحده ذو الاهمية لحياتك . ان اللغة والكتابة همـا على الاكثر بديـلان بصريـــان ــ بائسان ، موقتان . ووحدهـا كميـة صغيرة مـن الصور تحاصرك ، وتورّطك ، وتدل عليك . نبض الدم امام بعض اللوحات ، ذاك الذي لا يُحسّ في لحظته ، ولكـن تلك اللوحات هي التـي تنحفر في الذاكرة ، فلا تغادرك بعد ابـدا . صور مسمّرة بالجسم ، يستطيع الذهـن الى جانبها ان يقوم بدور المهرج ، فهـو يكذب ويتحايل ويتصنع انه غير معنيّ ، ولكنه يُحس في صميمه انه لن يفلت من هذه الصور ولا من الحقيقة المادية.

والآن ، تبرز لك كلمة « نـوع » و « عائلة » . لم تكن تـرى فيهـا من قبل الا قضيـة مذاق ، عـدم انسجام انفعالي ، نزوات الذكرى . وتكتشف ان القضيـة هي قضية اخويـة او سلالة او عصابة اشرار ، كمـا تشاء ، وتكون حرب الثأر قد بدأت بيـن القبائل منذ قـرون . فليس الامر اذن ان « مانتيفنا » (لوحـة « الصلب » في اللوفر) و « دورر » و« بالدونغ » وآخر لوحة لرامبرانت (المظلّلة ، القاتمـة)

و « تانتوريه » (جميع لوحاته ، بلا استثناء) وتصميمات ، « دولاكروا » و « فان غوخ » (تصميم « ارل » و « انفير ») و « مانك » و « بولوك » و « بلمر » يروقونك، فهم جميعا يوجعونك ، ويكشفون ألمك السري ، وهم قد كرّروك وصوروك واستغلوك . ومن هنا كان التواطؤ. فتلك هي قبيلتك ، مهما فعلت . ولا نتحدث عن السينما ، فتلك السلالة تمتد مع « كوروساوا » و « اورسون ويلز » و « اوفولس » صاحب « لولا مونتيس » و « واجدا » و « فيسكونتي » ، و « بيارو المجنون » . وهذه الاسماء ، ما دامت المسألة مسألة ثأر ، لا تتخذ وزنها الا بالمعارضة مع اسماء السلالة الاخرى ، العائلة الفظيعة لامثال «جيوتو» و « فيرونيز » و« رافائيل » و « بوسين » و « انفرز » و« سيزان » و « براك » واللامجدين ، الانسانيين ، امثال « جان رينوار » و « كارنيه » و « هوستون » الخ .

وتلاحظ اذ ذاك ان اقرباءك الكبار ذوو صلة بالبروتستانتية ، حتى « مانتيفنا » و « تانتوريه » . ماذا؟ بديهية « تخلّ ربّاني اصلي لا بدّ من تعويضه بجنون العاطفة » . انهم اشخاص مستعجلون ، يراهنون بكل ما يملكون ، تلتقفهم لجّة ، هي عملهم الفني .

هذا التفرّع هو تهديد دائم لكل شخص منا . فيكفي شيء يسير حتى يتم الانحراف نحو السطحي ، كما لو ان فائضا من الكثافة (او من نوايا الحواس) سرعان ما يطفح جمالا وازدهارا وتسلية . شعاع موجّه نابذ منقلبا الى جاذب . كما لو ان القلق الداخلي لم يكن يجد تعبيرا

عن نفسه ، بعد تجاوز حدّ معين ، الا في الزخارف الخارجية ، مانحا التوتر الداخلي الاكبر مظهر الوقار الوجهي . وفي تلك الحالة لا يجد اصحاب القبيلة المعارضة عند « تانتوريه » الا التثنيات والاخراج ، وفي لوحة « سانسو » الا الميلودراما وتفتا الاثواب ، وفي «لولا مونتيس» الاّ الثريات والتحف ، الخ . انهم بحاجة الى « بروسون » ليستنتجوا الصدق ، على وفاق مع الفكرة المبتذلة لدى العطّارين التي بموجبها تتلاءم « الفاقة » و « الكثافة ». يا للسخافات ، ويا للكليشيهات ! ان اي شخص لم يُحسّ بانه مهاجم من الداخل من قبل الالوان الحمراء والخطوط الترابية لـ « سيان » واللون الاصفر لـ « سانسو » ،وكل من لم يجد نفسه معرّى بالمشاعل عند فجر الاعدام ، هو خنزير . اختبار لا يخطيء .

ان « انغرز » يُدان بالاثارة الجنسية بسبب فقرة زائدة لدى جارية من جواري الحريم ، ويُدان « سوتين » بالاستعرائية لان قطعة من لحم فاسد ، اليس كذلك ..

ان التقاليد الباروكية لم تعضّ على فرنسا . فالفاليكانية والتناظرات المعمارية وعذوبة الجو والاكورديون ادخلتنا فيها . فلم يكن غوغان صينيا ولا تاهيتيا بل كان ديكارتيا وملكيا . وفضيحة سلوكه امام « فانسان » و « فان غوخ » فرنسية بشكل نموذجي . « انه يحتقر انغرز ورفائيل وديغاس وجميع الاشخاص الذين اعجب بهم » (رسالة غوغان) .

آخر رسالة من « فان غوخ » الى « تيو » : « اننا لا

نستطيع ان نحمل على الكلام الا لوحاتنا » ـ صمت ومسدس .

اما شخصا « مونخ » العائمان في الفراغ : فكل ما في الحب من انطلاق والتحام وما هو متعذّر حكمه ، نراه عائدا مع هذين الطيفين المحروقين ، سواء كان العنوان « القبلة » او « الغيرة » .

بالنسبة للقبيلة : كل احساس يشتمل على انفعال، وليس ثمة من اتصال لامبال مع العالم الخارجي ، لان العالم ليس مشهدا وانما هو دوار . وهو يؤرجح فيه راسه اولا . ولا يُحسّ الباروكي نفسه في امان ابدا ، وكل ما يستطيعه ان يستعيد توازنه ، موقتا ، وهو يتدارك نفسه فيالتعبير. اما الكلاسيكي فلديه الوقت لان العالم امامه ، موضوع . فلا شيء يدعو الى العجلة ، ولا شيء يهدد . ان امامه الوقت للتفكير والتأليف ورسم الخطوط بهدوء . وقت السخرية، ووقت اخذ المدى . ان سخرية امثال « دوميه » او«غروز» (سلالة باروكية) هي هجوم وتحيز والتزام وطريقة عيش ـ وليس طريقة للتأليف. والسخرية بصفتها عذابا والما هي ما تجده عند « انسور » و « كوكوشكا » و« سوتين » (ربما بعد ذكريات فاحشة) .ان الاحساس يشتمل الانفعال الذي يشتمل اللون (فحتى عند مايتس ، يبدو اختيار الالوان بيولوجيا ، بلا نظرية مسبقة) .

ان التعبير الباروكي ، في جميع الفنون ، يفرضحسّ الحي ، الوافر ، النيء ، الريان ، المشوّش ، الغزير ، الدموي ، المستفز ، المبتذل . والضيق يأتي من ان المرء لا

يستطيع ان يفلت من الاحساس بأن ذلك هو حيوية المجرد ، المسلوخ . انه بالنهاية : موت اللحم الحي . فعل الموت في اللحم (او الفرح ، او الاشكال) هناك خطر التفخيم طبعا ، خطر التعب بفعل الاسراف والقسر . ولكن تبقى النقطة الاعلى ، النقطة الشراعية التي تبلغها الانطلاقة الرومانتيكية كلما كفّت الحياة والموت عن ان يُحسّ بهما متناقضين ، النهاية الكلاسيكية للرومانتيكية ، لحظة التوازن في قمة الدوار . وذلك هو مثال الحركة المجمدة بشكل غاضب لدى « تانتوريه » ، والهزلي المأتمي في منقوشات « غويا » ، والجذل المحزن لدى بعض الفلامنديين البدائيين . او هو هذا المزيج من القهقهة وصرير الاسنان الذي يلمس في مسرحيات « برخت » الاولى . هذا وحده ما يهمني . وكل ما دونه مسرح .

انها نقطة تقع دون الادراك او ما وراءه ، خارج اي اعداد منهجي او ادراكي . وليس ثمة ما يدهش في ان يستطيع الادراك بصعوبة ان يلتقط التناقض « متلبسا » . ان التناقض ، او الجدلية ، يلتقطان ، ويلمسان في العذاب والاضطراب (الحساسية والاحساس) . والتجذر في الطبيعة يجعل كل نظرية للباروكي او الرومانتيكية امرا مزعجا . كانت العبارة في القرن السادس عشر تنعت الجواهر المستديرة بشكل غير متقن بأنها قواقع شاذة مجلوبة من اليابان او من آسيا . وانهزام الكلاسيكية تم من الخارج او من اسفل: بفعل الدخيل ، والغريب ، والابكم . والحق ان الحديث عن « ثقافة باروكية » هو تناقض في « النهاية » : هناك تقليد ، وارومة ، وحقل خصب لهذا النوع من التشجرات ، اوهناك

نزعة وغريزة ، ولكن ليس هناك من نظرية على الاطلاق . ان كل من يتوظف او يتولى دور « الرومانتيكي » في مناقشة او مناظرة حول طاولة ، يخرج خاسرا . فليس لديه في الحقيقة ما يقوله . ان العنصر الرومانتيكي (او الباروكي ، وسنميز الترادف فيما بعد) لا يُناقش .

ان الفنان التعبيري يدفع سُعار التعبير الى النقطة التي لا يبقى عندها ما يقوله . فاذا تجاوزها ، تأرجح في الشكلية . ليس ثمة من نظرية او برنامج تعبيري . وبيانات الـ « بروك » او « بلورايتر » تصف مبتذلات لا تعبيرية ، وتستنفد عبادة الحسي نفسها في عموميات مجردة . والمرء يتعلم من رسائل « سيزان » ومن نظريات « سورات » وحتى من حجج « كاندنسكي » اكثر مما يتعلم من مثل هذا الكلام الفخم : « اننا نتقبل كل الالوان التي تنقل مباشرة او غير مباشرة الانطباع الخلاق المحض » . ان هذا لا يعني شيئا ، ولكنها بديهية ملحوظة بشكل غريزي لدى هذا الفنان « المتوحش » او ذاك ، وهو ما لا نجده ابدا لدى« سورات » أو « كاندنسكي » .

(بوجه ما سجلته في مكان آخر ، يستشهدون باعمال دوفنشي ودولاكروا وكاندنسكي الخ ،وانه من المضحك انكار الادراك على الرسامين . ولكن ادراك رسام ما يكمن في رسمه ، وليس في نظرياته . دوفنشي ؟ دفاتر مهندس ،تقني (الرسام ، والفنان هو حرفي ، فنان يدوي حتى نهاية القرن الثامن عشر) . دولاكروا ؟ اذا لم تخني الذاكرة ، فان يومياته مضجرة ورجعية وبودليرية. كاندنسكي ؟ نزعة صوفية

بلباس منطقي (والحق ان رسمه بارد وقيمته قابلة للنقاس) .

قيمة الانفراد وحدوده

عامان من القوقعة ، ذلك هو حدّك الاعلى. وما يدفعك اخيرا الى ان تقذف بنفسك الى خارج،او الى « تغيير وجهة النظر » او الى « اعادة النظر في الموقف » ، انما هو غريزة البقاء . عليك ان تخاطر بجلدك لتنقذ جلدك . وان عامين من الشحّ الحيوي يفكان الحصار عن الحاجة لان تبذّر نفسك بعنف وان تزرع هنا الكتب والمسكن والنظريات والصداقات والاتصالات والعادات . وفي الوقت الذي تنفقه في الاحتماء خلف الكتب ، تحملك وتغذيك وتدللك « الثقافة » ــ هذا الهدير المنبعث من اعماق العصور ــ تخشى ان تموت لانك تخشى ان تعيش . وما ان تستأنف السير بعد المرحلة (« المغامرة » ، كما يقولون) حتى يكف فناؤك عن ان يبدو لك اسود ، ليبدو تكملة للذة الحياة. ان الموت ليس بعدُ موتك بل هو مخاطرة جميلة تُخاض ، ابدية لا مبالية . انك تطبّق مجددا قاعدة اللعبة ، فرحة ان تلعب بهذه المخاطرة المطلقة الباطلة ، مخاطرة امكانية الخسارة التي بدونها ليس ثمة ما يُربح قط .

ولكن هناك ايضا ، وهو ما لا غنى عنه ، لذّة الكرة والحلم ، عندما تقلّص الى قرابة الصفر الفروق من اجل توفير قواك ، وعندما تريد ان تُفلت من جراحات ما ليس متوقعا بأن تجد طمأنينتك في حبس آخر محكم . حيث يقوم

سور او اسرة او حد" ـ تنطوي علـى نفسك خاضعا لمبـدأ اللذة، اي الحاجة لتقليص المفاجآت الرديئة الى الحد الادنى . فعشاء مع اصدقاء ، وجماعة ادبية ، وطائفة سياسية ، كل ذلك يحرك من جديد بخلك الشهواني: شيخوخة لذيذة وخطرة. ان « الاسرة » و « الحزب » « الامة » و « العشيرة » كلهـا تميل الى الحفاظ على « حرارة ثابتة »، توازن تحارري مع الوسط الخارجي : رفاهية ، روتين ، تلف . والعثور علـى اللذة آنذاك ، معناه العثور على « الآخر » ، معنـاه احداث اختلافات في التوتر وفي الحرارة ، وانقطاعات ، وثغـرات، وهجمـات جوية ، وفك حصون .

ان الورقة المطبوعة ، الغشاء الابيض اللذيذ ، يحمي من الناس والعالم ومن الوان الحضور البشري المتنافرة ، ففـي سائل الكتب السابياتي والمطمئن ، يشيخ رجل الثقافة بـلا شعور ، من غير ان يكبر او يقسو . فاذا اتفق لقوقعته ، من جراء حادث او حريق او حرب او سفر او زوبعة، ان انكسرت، فان الرخوية المثقفـة تتقلّص وتموت مـع ليلها ودفئهـا الطبيعيين .

واذا وصفنا « الطبع » بأنه قابلية مجابهـة تغيـرات الحرارة المفاجئة ، فان الاتزان البدني التربوي للبلـدان البورجوازيـة يشكل مراهقين ناضجي الذكاء قبـل الاوان ، ولكن سلوكهم طفولي ، بلا « طبع » . والحق ان تربية جيدة تسعى بالعكس الى تنويع ثوابت البيئة تنويعا منهجيا ، والى تحطيم التماثل : تعاقب العمل المنتج والعمـل الثقافي ، والمعيشة الحضريـة مع الرحلات ، والرياضـة والدراسـة ، والحرارة والبرودة .

ان كل فـــرد يستشعر لذائـذ « الحياة ـ السونا » وضرورتهـا ، حتى ولو كانت قاصرة على التوجه الى النافذة لاستنشاق الهواء بعد غداء عائلي خانق، او التمتّع بساعة من سباق الضاحيـة في الغابة بعد قراءة « مباديء الرياضيات » في الغرفة ، خريفا . او ان يجد المرء نفسه ابكم بشكل صارم لدى خروجه من وليمة اصدقاء بلغت فيها الثرثـرة حدود اللاجـدوى .

الحالمـون خالـــدون

الموت يلدغك في الصباح الباكر ، ولكن السم لا يفعـل فعله الا في المساء . عندما تنام . النوم : سُم مضاد ،مخدّر ضـد السجن ، مصل مضاد للموت . وبفضله، رغم اللدغـة الصباحية ، لا تتراكم المقادير على ممر الايام (بالرغم من ان شيئا ما يبقى ، قابليـة اضافية كل يوم ، مقاومة للســمّ اقـل) . ذلك انه في البدء كـان « البحر » ، مساحة المياه الشاسعة ، الرحم السائل والنوم . ان غطسة النوم اليومية الفائصـة ترد الى الاصل ، وتجـدد الخــلايا بالانحسار والانغماس البحري ـ الجنسي ـ المصوّر . فبمقدار مـا يذهب المرء في العمق ، يعود بقوة وسرعة الــى السطح ، وبمقدار مـا ينبثق من الليل يقفز بعيدا الى الامام على النهار ـ الارضي . والاندفاعـة التي تحدث في الليل تضعف السقطة، ويبلغ المرء ، بانتفاضات الزعانف وضربات الذيل واسترفاعات المروبص ، ان يربـح ساعـة او ساعتين في الصباح، فـوق الرمـل . وبعد ذلك ، يصارع الاختناق البطيء . وقد كنت

أحسّ ، في الصيد الفائص ، بالانبوب والقناع ، ومن غير زجاجات الاوكسجين كنت احس بعناء شديد في ان أطوي جسمي والج المياه ، عموديا على السطح ، نحو السمكة . وحين كنت اصل ، كانت العودة القنبلية الهية : لم تكن ثمة حاجة حتى الى المسابيح القدمية ، فقد كنت أشرَق واضحّ واقاد بالسطح بتعجيل في السرعة وتخفيف في الضغط ، كسقطة بالمقلوب ، نحو الاعلى . فبقدر ما ينزل المرء عمقا يكون القذف صعودا اقوى . وبسبب انعدام التمرينات الرياضية ، يخرّب الارق هنا الصحة لانه يمنع النزول تحت الماء ، نحو الطبقات العميقة المحيية ، حفرات الدماغ المحيطية . لا بد من طلب منوّم ليستطيع المرء ان يطفو بقدر كاف من القدرة في الصباح ، وان يقفز مباشرة حتى مطلع بعد الظهر ، ببذل بعض النشاط الذهني . اما اذا كان حرّا، فهو يستطيع ان يجرجر قدميه حتى المساء ، شاربا الخمر، او قاصدا السينما او المقهى ، او متسكعا او آكلا . واما هنا ، فالرمال متحركة : انه يغوص قبل ذلك، في منتصف الطريق .

منذ ثلاثة اعوام ، كانت هناك السعادة الحسية ، الجديدة تماما بكثافتها ، التي كان يجلبها ليل النوم (احلام واضحة مشرقة) فوق الفراش المشبك ، والفيودفي الظهر ، بعد جلسة اولى من الوان التعذيب البيتي وقبل حكم بالاعدام كان يعتبر مضمونا صباح اليوم التالي . ولم ابلغ بعد ذلك ابدا ذلك الصفاء والوضوح والتجرد :نظرا للطفولة وقرب النهاية ، والماضي والمستقبل كمجرد مشاهد، ولذعة مرارة (انتهى ذلك كله) تحيي المزايا التشكيلية

للمشهد الذي منحته لنفسي في « شوريتي » تلك الليلة الطويلة . يقظة سعيدة ، مع بعض من حزن ، ولكن الحبل السّرّي لغريزة البقاء ،ولمصلحة النجاة البيولوجية ، قطع ذات ليلة . وبعد تلك الاحلام التي لمست فيها باليد ما كان لا يؤخذ عندي ، نواة حقيقتي ، كففت عن الاهتمام بكل شيء. كانت بعض الصور (بحر ، غابة ، باريس، امراة ، خريف) قد جعلتني غير مبال بما يمكن حقا ان يحدث فيما بعد . الحلم ، هو الطب المناهض للازمات . وهكذا تعاد اقامة المراتب السلّمية العميقة .

لماذا ينسى الناس دائما ان المحكومين بالموت «يحلمون» هم ايضا ، لفرط ما يشفقون عليهم ؟ وان بامكانهم ان يسيروا الى مفرزة الاعدام او الى المقصلة ، فجرا ، وهم ما يزالون يقطرون سعادة بعد ان يكونوا قد غمروا ببعض الصور البدائية ، واصبحوا غير قابلين للجرح بفضل هذه الغطسة في حياتهم الحقيقية السابقة ، وغير مكترثين بعد بالضوء البارد الابله للنهار الذي ينبثق ؟

من وجهة نظر كمية او ايقاعية ، ليست مرحلة التوتر الا لحظة متوسطة بين مراحل الانفراج ، والارتخاءالعضوي . لحظة استثناء ، معترضة ، تسلية الهية . صحيح ان المرء يترنح في البدء ، ثم يتصلّب ، ثم يترنح من جديد ، الخ(تجاه حياة او نهار او حقبة تاريخية) : فالرخاوة تنتصر . ولكن لا بد ، من وجهة نظر نوعية ، التمييز بين نوعي الرخاوة ، النوع السابق والنوع اللاحق . القوس المرتخية بعد قذف السهم والقوس المرتخية من شدة عدم القذف. الرخاوةالاولى

تملأ وترخي حقـا (بعد الاطلاق) اما الثانية ، فهي سقوط ، هي ندم وشعور بالعار . ان الراحة الاولى تدل على الحيـاة ، والثانية على الموت . وجميع ساعات بعـد الظهر فـارغـة ومأتمية ، ولكن الفراغ بعد الاطلاق لذيذ . الفراغ الـذي يتصل بفراغ مميت .

الانتحـار لا يرتجـل

ما يميّز الانتحار المراهق من الانتحار الحقيقي : هو ان المراهق يطلب النجدة ، فانتحاره طلب . اما الانسان الناضج فيسجل ان أحدا لن يجيب ، فانتحاره تقرير . من اجل ذلك يبقى المراهق في مرحلـة التهديد او المحاولة او الابتزاز . اما الآخر الذي ليس له بعد ما او من ينتظره ،فليس له بعد من اسباب تدفعه الى تفويت الفرصة على نفسه او الاكتـفاء بالتوعّد . يتوعد من ؟ لا احد . ولا بد ان الاجادة الخاصـة بالمنتحرين البطيئين والمتزنين تؤمن الرضى نفسه الـذي تؤمنه للعالِم المنطقـي نتيجـة مستخلصة بشكل صارم ، او للموسيقي الائتلاف النهائي لسوناتة . في الانتحار المبتسر ، تلحظ اللطخة ، الصفة الطارئة ، الهاجس المطاع معالاسف . يبقى ان نعرف انطلاقـا من ايـة لحظة يستطيع كل فرد ان يكتسب اليقيـن انه خرج من الابتسار ليدخل في الاتزان .

ان مـا ينفّر لدى الآخرين هو ان المرء يحتاج اليهم .

اوه ، يـا صديقاتـــي ! ليس هناك صديقات !

« الصديقة الرقيقة المخلصة » غير موجودة . ولما لـم تكـن الصداقة مع امرأة شعورا « طبيعيا » ، فلا يمكـن ان تكـون الا تمهيدا او خاتمة للشعور الوحيد الذي يمكن طبيعيا ان يوحّد بين رجل وامرأة : « الحب الجنسي دون سواه » كمـا كان يقول انجلز العجوز . وسواء صعدت هذه الصداقة ام هبطت فهي بالضرورة مائلـة . انها مطلب مطبوع بالامل او ميل خائب وحقود بشكل غامض . ربيـــع او خريف ـ فصلان عذبان ولكنهمـا يساعـدان الفصل الوحيـد الـذي يعتد به في هذا المجال ، الصيف الشغوف . واذن فان كلمة « اخلاص » تعني: ترقبا صابرا او وفاء آفلا . اما المثابرة الافقيـة فليست الا خدعـة .

ليس ممتعا ، الجنس ..

الموقوفون مع الآخرين : هاتان النظرتان توجعاننـــي في جنسي البشري. هذا الزوج من النظرات الماكرة، المنخفضة، الفارة ، اتراه يُذل الفكرة التي كنت قد كوّنتها عن الجنس البشري ؟واذ اعترف بذلك ، لا أدعي اي ادّعاء ، ولا اطـرح نفسي ممثلا للجنس . انني ، بتواضع ، اتألم ، عبر هـــذه النماذج ، ان ارى الانسان وقد اسيء تمثيله على هـــذا النحو . ربمـا كنت انا الحيوان المريض ، وهم الحيوانـات السليمة الذيـن يعرفون ان كل شيء ، ما عـدا قطعة اللحم، والاسرة ،والنصيب من الشمس ، وامان السقف المضمون .

ـ ان الباقي كله ليس الا هذيانا . هذا لا يمنع انهم يوحون لي ، حين اراهم ، الما يتجاوزني ، الما متجردا ، جماعيا ، مطلقا لا اهمية لي فيه . ايمكن القول: « يوجعني الجنس » من غير ان اطرح في الوقت نفسه استثناء كفرد على حدة ؟ ان من يُحس الوجع حقا ، في هذه الحالات ، لا بد من ان يشعر انه معني ، متورّط ، منزوع القناع : فاحساسه بالذل المرتبط باكتشاف ان الجنس الذي يعرف انه ينتمي اليه ليس الا هذا ، لا بد من ان يوجعه . اجل ، يستطيع المرء ذلك ، ولا بد له منه ، والا فهي مهزلة، انكار للانتماء من قبل مشاهد . ان الجنس البشري ليس شيئا ممتعا ..

مراعاة التحفظات ....

« خاصية البورجوازي الصغير » : انكار الاختلافات بين الكائنات ، والمراتب ، والهوّات ، سواء بحصرها في بعض الحقول على حدة (السياسة ، الاراء ، هذه فكرته ، لكل مشاربه الخ ..) ام بتذويبها في حوض التضامنات المادية الكبير (الجميع متشابهون في الحقيقة ، معدة ، عضو تناسلي ، جلد ،ذلك هوالواقع،الجميع اخوة فيالحياةاليومية، بعض الاكل ، بعض الحاجات ، عبوديات الوجود اللذيذة والمحررة) الامران متساوقان . « مسلّمة » : كل شيء يتدبر في نهاية المطاف لان الجميع متشابهون في الاساس (الكرش) . ليس ثمة من نزاعات ولا صراعات لدود . لا نغضب ، لا نمضي حتى النهاية ، لا نرتكب اخطاء فادحة ، ولا نعتبر الجهر بالعقائد والخطب الجميلة (لا بد من ذلك ، على صعيد ما ،من

اجل قاعة العرض) التزامـات حقيقية او افعالا متطرفـة . لنحسب حساب كل شيء ، ولنناقش حول طاولـة ، فـان سفاهـة ما ستضحكنـا معا ، والقهوة لذيذة ، والسمـاء زرقاء ، والبشر يستحقون الرثاء . ان الدبلوماسية هي في البدء وفي المنتهى ، بدايـة كل تاريخ ونهايته ، لانهـا حيـن تكتشف الاطراف المتصارعة ان الكـرش مشترك بينهـا فيتصالحون هكذا على الاساس ، لا يمكن الا تنتصر . واذن ، فان كل عمل عدائي ينتج من سوء تفاهم ثانوي ، من نسيان عابر للاساسي لا بد من ان يجـد حلّه حول طاولة خضراء ، وبعـد ذلك يأتي نخب من الخمر الابيض فيصالح جميـع الناس . اتخذ « ب » هيئة مذعورة ومنهارة حين عرف باعدام السفير الالماني :« سوء تفاهم مأساوي » ، « يا للمسكيـن البريء .. » ، « كان الامـر اذن جدّيـا ، فمـا كان الحس الواقعي ينصح بأن .. » الخ ..

ان ثوريـا ماركسيا مدربا مهنيا على ان يرسم الخطوط الفاصلة ، وان يميز ويقابل ، ويصنّف الفرق الاجتماعيـة والطبقات والافراد والميول والمسالك الـخ .. سيتوافـق ويتطابق بشكل اسهل مع الارستقراطـي او البورجوازي الكبيـر المعتاد اجتماعيا على التمييز بين الواطيء والعالي ، بيـن الرديء والنبيل ، وان يعيد وضع اي فرد على سلـّم اختلافات الولادة او الثروة الخ . توافق بمعنى التناغـم وتشاكل الدنى المعاشة . والجواب المبرّد الذي قابل به سانت جوست النمسويين المطلقي الصلاحيـة عام ٩٣ ، تعليقا على ابتساماتهم الملزمة وعلى غمزات عيونهم :« ليس ثمة شـيء مشترك بينكم وبيننا » ـ هذا الجواب يصلح شعارا غريزيـا

للعالم الثوري كما للعالم الارستقراطي . مسألة شرف ، وغريزة ، ووضع . (فكرة لا بد من تحديدها وتبسيطها ، لانها خطرة وسهلة بالنسبة للبلهاء) .

ان نظرة او فكرة او دينا او مجتمعا ينحط ، كلها تكفّ شيئا فشيئا عن « التمييز » . التوفيقية ،الاعتراف بالضعف ، الانفراج ، الاعتزال . مثال ذلك الانسانوية التي تشتمل جميع التمييزات الطبقية اليوم ، بالنسبة لليسار الغربي . « دولة » الشعب برمّته ، في البلدان الشرقية . وفي « البانتيون » الروماني في العصر الاستعماري المنحط ، الترحيب بجميع الآلهة ، بدون حصر . الموت بالانحلال وبالمصالحة .

متذوق للجمال مزيف ومتع حقيقية

كن صريحا . ان ما تلتمسه في قطعة موسيقية هو ما يمكن ان تجلبه لك زجاجة بيرة ، او غسق في مدينة ،او هدهدة رحلة في قطار حين تفر المناظر بسرعة ١٠٠ كلم في الساعة ، او لقاء نسائي : الانفعال . تسيير الدماغ، عبر الكلام المفخم . اشعال الذهن . مقفز يستعدّ المرء منه للقفز، الى امام الحاضر التفه او وراءه . انك تجهل على الارجح المتعة الجمالية ، وقف الحياة وتعليق الحركة ونسيان الذات. انك ، بسبب من فرط الحساسية ، لا من ضعفها ، لم تكن ولن تكون ابدا متذوّقا للجمال . وانت لست « مثقفا » بما فيه الكفاية لتحب حقا في الموسيقى شيئا غير الموسيقى . ان الفن ليس متعة الا للرياضيين او للذين يستطيعون ان

يهتموا بالحقيقة في ذاتها . اما بالنسبة الينا نحن، فهو حاجة، وذريعة ، واهمية حيوية ــ انه كل شيء ما عدا ان يكون فنا . ان الموسيقي لا يبكي وهو يستمع الى الموسيقى ، اما انت فيتفق لك ان تبكي ، حتى وانت تسمع اغنية صغيرة او لازمة تأتي من بعيد . ان متعة متذوق للجمال ، او هاو او رجل ذوق سليم لا تعنيه ، فهو يضبطها ، وهو يربط او يحل على هواه . ولا حاجة له بها لكي يعيش بالرغم من انه لا يستطيع ان يعيش بدونها . اما انت، فمحتاج اليها لكي تعيش، لانعدام شيء آخر، ولكنك حين تستطيع ان تتصرف وتتحرك وتكتشف وجوها جديدة ، وتلتقي حسناوات مجهولات على الارصفة ، وتتسلق جبلا ، وتذهب الى السينما ، فأنك تستغني عن الموسيقى (بل حتى عن الرسم والادب والاشكال) طوال اشهر ، حتى من غير ان تلحظ هذا النقص . انك بحاجة لان تمتليء بشيء يهزك ، ولكنك تصنع انفعالات بواسطة اي شيء . بواسطة كونسرته لباخ او موزارت اذا لم تجد سواها . الاكيد انك بحاجة الى نصيبك من الانفعال ، والا توقفت وهلكت . من اجل الدفعة التي ينشرها الانفعال، من اجل « النترة » اليومية ،من اجل التحريك (هنا الاهمية الانانية ، الحيوية ، غير الجمالية) اكثر منها من اجل الانفعال بذاته . فمن المستحيل ان تكون لدينا فكرة قبل ان يسبقها انفعال ، رجفة من جانب البطن او القلب . وهنا (في السجن) لما كان من المستحيل ماديا ان تنفعل لانك وحيد وحدة صارمة ، مشدود الى كرسيك منذ ثلاثة اعوام ، ولانك لم تبلغ بعد ، بالاتفاق ، ان تنفعل انت نفسك ، فانت بحاجة الى عشر دقائق من الموسيقى مسروقة من راديو مجاور

لتكتب ثلاثة اسطر . ان الانفعال ينبغي ان يتصدى في الوحدة، ولكنه لا يمكن ان يتحرك حين يكون المرء وحيدا . فليس ثمة انفعال بلا مفاجأة ، بلا اكتشاف شيء او احد ، بلا لقاء مع المجهول . ولما كنت لا تتوقع من نفسك شيئا جديدا ، فانك يقززك ويضجرك ان تكون انت. تستطيع ان تقرأ ، اوتفكر، او تتصفح سبينوزا ، او تنظر الى الفيوم وهي تمر ، واذن فستأتيك افكار ، ولكنها باعتبارها لم تنبثق من انفعال مسبق ، ولا من هزة جسدية ، ولا من تحليقة عاطفية ، فان هذه الافكار تافهة ، ميتة عند ولادتها .ان لحظات الادراك عندك هي تلك التي تعقب زيارة قنصل ، رؤية صورة فنية في مجلة ، الاستماع الى فالس من البيرو ، وفوق ذلك كله، مجيء « أ » . ان عدم الاحساس بشيء (حب ، كره ،اعجاب، غضب ، دهشة) يعني عدم التفكير بشيء. المرء مدرك فحسب اذ هو عاشق ، في اللحظة ذاتها او عقب ذلك مباشرة . وعند ذاك، العاب نارية، والجهد المبذول كله، بعد ذلك، هو من اجل تأخير سقوط الصواريخ المضيئة ، واستغلالها كليا ، وارجاء انطفائها وعودتها الى الظلام ، على الارض : خمسة عشر يوما او شهرا . ثم يأتي الخواء ، اجتياز الصحراء . القلب جاف ، والنفس خائبة ،والدماغ فارغ : ايام قاحلة بلا رونق . يفقد المرء الحيوية ، ويمشي في سهل، بلا هدف ولا معلم . اما الرونق والمفاجآت والايقاعات والحوافز ، فتعود مع « الآخر » . ان الوحدة ارض مسطحة، تزود المسافر بسرعة تنقل (في الزمن) متشاكلة . والحال ان استخدام المرء الكامل لوظائفه العضوية والفكرية ، وليس فقط متعتها ، يفترضان تجربة ترس تفاضلي، وامتحان

مفارقــة ، وتغييرا في التوتر المفاجيء ، وهذه وحدها تطلق الطاقــة . فمع الآخر ، يُعجّل المرء ويبطيء ، ويغير السرعة طــوال الوقت لان هنـــاك ارتفاعات وانخفاضات ، منحدرات ومناظــر غير قابلة للتنبؤ بها ، وقمما وسقطات. اماالالتواءات العذبة ، فبعد العمودية . بعد تصادم الظهــر القــاسي ، والهبوط جنبا لجنب على المنحدر الآخر لليوم .

(« جوليان » بالقرب من « فيريير » : « ان الرحالة الذي يتسلّق جبــلا سريعــا يجلس على القمة ويجد متعة كاملــة في ان يستريح .. ولكن اتراه يكون سعيدا اذا اجبر على ان يستريح دائمــا ؟ .. » « فــن السعادة » كتقنية المفارقات).

ما « المثقف » ؟ هــو اي فــرد قادر على ممارسة ادراكه مستقلا عــن انفعاليته . اقصد الادراك « بمــا هــو كذلك »، متحركــا بقوانينه الخاصة وواجدا فيهــا طاقة الاقلاع ، بــلا محركات اخرى غير التي يعطيهــا لنفسه . وبغير هـــــذا الفصل لا تكــون مستحيلة فقط موضوعية النتائــج بالنسبة للمثقف ، وانما يستحيل كذلك العمل نفسه . ويمكن لعالــم الرياضيات ، ولرجل الحقيقة العلمية او الفلسفية ،ان يكون لهمــا مزاج ككل فرد ، ولكنهمــا لا يستطيعــان ان يضعــا من مزاجهمــا في علمهمــا او فلسفتهمــا ــ فليكن ــ ولكــن المزاج لا يستطيع ان يلعب دور الانارة ، او المقفز ، او الحجة لكي يبدأ عملهمــا . ان ارضاء الحاجات الحيوية والجسمية والانفعالية والعاطفية يجب ان يعتبر علــى حــدة كشرط خارجي ، وليس كشرط داخلي لازم لسير العمل الدماغي . ان العصاب ممكــن دائمــا ، ولكــن بصفته حائلا موقتا او

تعليقا للعمل . والمثقف لا يستطيع بعد ان يقوم بمهنته كمثقف بمجرد ان يقع مريضا (توازن معكر على اثر داء او حادث او اعتداء ،الخ) وعلى عكس ذلك، فان اللامثقف يستطيع فقط حين يقع « مريضا » ان يقوم بمهنته كلامثقف (كفنان ، او كمهووس او كثرثار او كمتخيّل او كمزعج ، الخ .) انه يعيش مما يميته ـ بالمعنى الحقيقي : مثل بافيز ومايا كوفسكي . انه يعيش ، في ممارسة مهنته ، تحت التبعية المطلقة لهذا الذي لا علاقة له بمهنته . انه متعلّق بما لا يتعلق به : علاقة غرامية ، انتقال ، لقاء او انعدام اللقاءات، قدح خمر ، خيانة امرأة ، حركة خرقاء ، بيت مهجور ، قطار لم يُدرك ، موت قريب او حبيب . هذا ما يحدده من الداخل ، كليا . وهذا في الوقت نفسه مضحك ومحزن ، باطل ومحتوم .

كنت بحاجة الى هذا السجن لتدرك هذه البديهية بوضوح : لست ، بالمعنى الدقيق ، مثقفا من غير ان تكون ،من جهة اخرى ، فنانا . ان الدماغ (النشاط النظري) يجد نفسه ، حين يقلّص الى ذاته ، مجردا من المحركات ومزودا بقدر من الجمود لا يستطيع معه الدخول في العمل الا بواسطة اضطرابات انفعالية . وما كان لي ان ادرك ذلك بهذا الوضوح لو لم اسقط في هذه الصحراء الرملية بلا نهاية ولا منحدر . انني في الزمن العادي لا احتاج فقط الى الانفعال بل الى « التفخيم » ، الانفعال مربّعا ومدمعا، لفرط ما يستعصي الدماغ على الاهتزاز . ان التفجر هو من الفقر بحيث ان المفجّر ينبغي ان يكون معزّزا ، مسرحيا، مؤثرا (من طراز « دم وموت وشهوة » ، فجاجات مزيفة

لنهايــة ــ العصر . ثقافــة منحدرة ، معقمة بتجاوزاتهــا نفسهــا ، تسعى لان تنعش ذاتهــا بان تبالــغ في مقابلاتهــا الطبيعية) . لقد التهب دمــاغك طويــلا لانك منذ ثلاثةاعوام خائب النفس ، جــاف القلب ، لا شــيء تلمسه ولا انســان تراه . وقليل من الموسيقى في الترانزستور لا يعوّض عن هذا العوز الاساسي الذي لا بديل له . ان امعاءك هي سيـــدة حياتك ، بمــا فيهــا المعي الثقافي . والمرتجل يشكّل لــك الينبوع الوحيد للتجديد ــ الاحساس غير المتوقع ، الخطف الانفعالي ، اي وهم غنائي . والحـــال ان حواسك الخمس وحجابك وقلبك هي وحدها القادرة على الارتجال . وبعدها يأتــي الدمــاغ ، فيخط الاثر ، وينظّم ، ويطيل ويستغل ــ وليس اكثر من ذلك . روح المتابعــة ، بالمعنى القوى . من هنا كان لهاث الجدّي في العمل الثقافي وقصر نفَس المقــدرة بل الكثافــة في بناك النظرية ــ البنية التي هي بنيـــة فوقية فحسب لا تدوم اكثر من الاسس الوقتية العابرة ، المتقلبة والسريعة (ان تسارع النبض ، والبقــع الحمراء والحميات، وانتصابات العضو والوان الافتتان والحماسة ــ ليست كلهــا الا حالات انتقاليــة غير ثابتة بيولوجيا ، ولا يمكن ان يُبنى عليهــا اي شيء صلب) . ان الذهــن لا « يبدأ » فيك اي شيء ، فهو يشرح ويبرر ويتحمس لحظة ثم يهبط ، حتــى الانفعال التالي ، وهكذا دواليك .

ان وحدتك الحالية عقيمة ، غير قابلة للاستغلال ،لانها لا تملك صدى ترده ، ولا اهتزازا تنشره ولا ارتجاجا تنقله . ليس ثمة احد يُعكس ، ولا صورة يعاد اطلاقها . وحــدة بلا صوت ولا صدى ، ترد لــك فقط صورتك ، شخصيتــك

الصغيرة السابقة ، ولكــن هذه الاشياء لا يمكن ان تتحدد الا اذا برزت وسط اشياء اخرى. ان شخصك هو ما يرسمه ، بشكل اجوف ، الاشخاص الآخرون الذيــن احببتهم او احتقرتهم ، وهم وحدهم المملوءون الكثيفون . وانت هــذا الخواء وسطهم ، وحدودهم هي قسماتك . فاذا كنت تريد ان ترسم نفسك ، صِل جميع الكائنات التي التقيتهــا والتي اثرت فيك وهزتك ، صلهــا فيمــا بينها ، فانت لست شيئا آخــر غير هذه الكوكبة الرخصة . ان نرجس يصاب بالعمى اذ يكــون وحيدا ، وهــو انمــا يميز شكله الخاص وتميــزه حيــن يلتفت نحــو جمهرة الغرباء الذين تركهم .

المهــم هــو الاقــلاع

اذا كان جويس على حق ، فذلك دليل على احتيالاتك في مادة الحساسية الفنية . دراسات نقدية ،ص. ١٦٩ (فكرة مستعادة في « ستيفــان البطل وديدالوس) : ان الفرحــة الجماليــة شعور يوقف ويعلّق كل حركة . « هذه الحالــــة الجامدة ضروريــة لالتقاط الجمال .. لان هذه الحالة هــي الشرط الوحيد الضروري لكي تستطيع صور تثير فينا الرعب او الشفقــة او الفرح ان تقدم لنــا بصورة صحيحة .» ان الغيظ ، والرعشــــة ، والشهوة ، والنفور ليست عــواطف « مناسبة » ، لانهــا تدفع الــــى التدخــل ، وتحــرك ، فهي اذن اعراض حرمــان ، ونقص . اما ما يملأ ، فينبغي ان يجمّد ، وذلك هــو الصفاء المأســــاوي . « الركود المشرق الصامت للمتعة الجمالية » (« ديدالوس ») أهــو مخلص ام

مصطنع ، اهتمـــام جويس هذا بتفسير ارسطـو والقديس توما وبأن يستعيد مخططات « الرعب والشفقة » ؟ انه لا يحسب حساب التطور التاريخي . ان المثل الاعلى الفلكي والمادي للراحة ، وانعدام الحركة المفهــوم كحالة ممتازة ، والموقف التأملي والنظري بازاء الموضوع ، كل ذلك قد اثـر في الايديولوجية الكلاسيكية للمتعة الجماليـــة ، ولكنه لا يستطيع ان يوقف تفسيرهـا . والمطلوب في ذلك التمـاس نصيب الحقيقة . صحيـح ان هنـاك انفكـــاكا ، لامبالاة مفاجئة ، عودة الى الذات . طيران محلق اوقف فجأة ،رفع لوجهة النظر الى المستوى البانورامي ،ترك للارض وللمباشر. ولكـن هذا التجرد الرائع لا يحيّـد اطلاقا ارادة الحيـــاة الفردية ، بل هـو يشطرهـا داخل ذاتها . هناك ملاك يغنـي في اللازمة ،بل ان « كوربيه » يعطي اجنحة . ان المتعـــة الجماليـة ليست غطسة غوّاصة (حلم ــ جنس) ، بل هي صعـود جوي ، سموّ. وقيمتها اللمسية (حلم ، جنس) اقل من قيمتهـا البصرية : من هنـا المظهر المتجرد ، التأملي ، النظري والمنقى . يمكـن للمصعد ان يكون رتانا او لدائنيا . او مصوّرا او موسيقيا ، او رسميا . واذ ذاك يمكن تفسير الانفعـال المنحل لكل اهتمام حيوي ، هذا الوهم المحرر مـن الوهم ، هذا المؤثر المزاحي . ان للمتعة التي يوفرهـا الاثـر الفني شيئا طفوليـا ولعبيا نستعير بفضله ، للحظة ، رصانة الشيخوخة واحساس الموت . ينبغي للمرء ان يكون طفـلا وساذجـا امـام الفـن ليشعـر برصانته ، وليشعر هـو نفسه بأنه مسنّ جدا ، ولكـن بلا رعب ولا مرارة .مزيج من الحركة والجمود ، من الرصانة ومن انعدام الجاذبية .

مهما يكن من امر ، فانت لا تطلب من الاثر الفني تأملا سكونيا ، بل تطلب فرحة « ديناميكية » ، تطلب منه ان يثير حس قدرتك وان يحيل الى فعل هذا الفيض من الطاقة . تريد ان تكون مهزوزا ، محرّكا ، مدفوعا ، قلقا. ان جويس يعرّف الفن الكلاسيكي بانه الفن ـ النحت . وانت تعرّف التحليقة الخفية للوحات « تانتوريه » بانها فن عاصفة وفن اضاءة ـ اظلام ، والصفعة التي تصعد الدم الى الراس . بكل دقة : الطالع البانورامي ، الحركة الهائلة للمرفاع التي تفتح مقدمة فيلم « لمسة الشيطان » لمعبودك اورسون ويلز ، الرجل الذي يشعر المرء ، بمجرد نقلة للكاميرا ، بما في المصير البشري من مقلق وسخري . انه القلق المزاحي ، التفخيم المخفف ، الممجد ، الهوائي ولكن الحسّاس ، الزمن المولج في الحيز المرئي (بنقل وجهة النظر على انتو) . والمقطع الغزلي المبطأ ، في فيلم « الدعوى » (بيركنز ـ شنيدر) يوحّد انعدام الجاذبية مع رصانة لحظات الاستثناء ، واقلاع المتعة ، وتصورا ، اقلاع الموت. جميع اللحظات التي يغادر فيها المرء الارض ، ويحلّق جامدا في زمن جامد . في البدء انطلاقة ، وتسريع ، وانتزاع ، وبعد ذلك تعليق ، ورخاء الهي ، وبطء هوائي ..

نحن ، المستحجرين ..

ترى ، السنا نحن الفقهاء الماركسيين الذين نعيش مغمورين بهذا الارث من النصوص ومن المناقشات البالية التي تسمى التقاليد الثورية ، محافظين اكاديميين ، حراس

متاحف ؟ أترانـا لم نصبح ، لفرط التأمل في حروف هـذه النصوص ، عميانا تجاه ما يحدث اليوم من امر هام ــ يبدو لنـا مشبوها ، مضلـلا ، مبتذلا ؟ وما عساه يكون اذا تمت ثقافـة العصر الحقيقية على هامش كل مـا نعتبره ثقافـة ؟ صحيح ان هذا التفاوت بيـن عالم الثقافـة وروح العصر الحقيقيـة قديم العهد ، ولكن التقنيات وتجـاوز الاشارات بالصورة عمّق هذا التفاوت عشرة اضعاف . لقد كان «رابليه» هزليـا صغيرا ، مهرّج سوق في نظر سوربونيي ذلك العهد الذي لـم يبق منه شيء . ونحـن نحمل محمل الجد « روزا لوكسمبورغ » ، ولكن مـاذا يكـون لو أن الرصين والعصري يَسمّيان « سرجيوليون » . لقد كانت روزا عصرية ورائعـة (حيـن تكتب للويز كوتسكي مثلا :« هذا مـا أحبه فيك ، اني استطيع دائمـا ان اضعك في هذا المزاج الشامباني الذي فيه تنخزنـا الحياة بأصابعنـا نخزا ، وفيه نكون على استعداد لارتكاب ايـة حماقة ») ولكـن هذه المناقشات ، هـــذه المنازعات ، هـذه الدقائق « النظرية » ، ما قيمتها ؟ صحيـح ان الجدّي اليوم هو السينما طبعا ، ولكنه كذلـك الشريط المرسوم ، الموسيقى الشعبية ، الرواية البوليسية ، التلاؤمية، الراديو ــ التوليف ، الاعـــلان ، التلفزيـون ، الموزيكهول ، الملهـاة ، الموسيقية ، مباريات السيارات .

نفس العصرانيين الكريه ...

طوال ثلاثمئة عام ، كانت الكنيسة الكاثوليكية ، بصفتها مؤسسة ، « حزب المعذَّبين » ، الكبير . ولكنها ، ابتداء من

قسطنطين ، انتقلت رسميا الى معسكر المعذِبين ، مناضلة اولا من اجل القيادة ، ثم ممارسة آياها طوال قرون :

نزاع « التكليفات » ، الحروب الصليبية ، التفتيش ، الحرب الدينية ، مناهضة الاصلاح ، غزو اميركا . وسواء كانت الكنيسة معذَّبة ام معذِّبة ، فقد كانت تميّز في الحقوق والوقائع اصدقاءها من اعدائها ، وكانت تعبر عن ذلك صراحة وجهارا وتستنتج من ذلك كل النتائج . كان هذا الدين يدلّل على صحته وعلى حيويته وهو يعمل علنا كمنظمة سياسية ، ناصبة نفسها بالتالي « كلية حصرية » ، هادفة الى تمثّل بيئتها بالغزو او بالطرد . اما اليوم ، فقد ماتت الكنيسة ، والدليل انها كفّت عن التمييز بين مخلوقاتها . وتعتقد الكنيسة انها ، بادانتها اعمال العنف « من حيث اتت » ، وبارسال المعذَّبين والمعذِّبين ظهرا الى ظهر ، وكذلك الجلّادين والضحايا ، وبترديد عباراتها الفارغة عن السلام والمصالحة العالمية ، قد ارتفعت فوق الاطراف والخلافات ، وكسبت في السموّ وفي « قدرة الاستقبال ». والحال انها قد انهارت بكل بساطة ، كما يتكوّم جسد ويتحطم في الشيخوخة . واذ حسبت نفسها وقد اصبحت مقبولة لدى الفريقين المتنازعين ، كفّت عن ان تثير اهتمامهما لانها غدت غير ذات جدوى تجاه اي منهما . انها تعلن السلام ، وهذا تنحي من لا يملك بعد ما فيه الكفاية من القوى الداخلية ليقوم بالحرب . وبهذا المعنى ، فان « اوتافياني » ومومياءات « الكوري » المناهضين للشيوعيين ، هم وحدهم الذين احتفظوا بارتكاس الصحة الجيدة ، بالاضافة طبعا الى كاميلو توريس ودمينغولين :فهذان يقرّان

بـأنهما عدوان ولا يفشّـان . اما الوسط ، « المجمع » الديني والاصلاحات العصرانية الصغيرة ، فهي تمثـل في حقيقتها ، بالاضافة الى الجانب المنفر والحقير ، الشيخوخة والافلاس. ووحدهـم العجائز والبلهاء والجبناء يرفضون الاجابة علـى السؤال : ما دامت الاشياء على هذا الشكل ، متعارضة وغير متلائمة ، فالى اي جانب انت منحاز ؟ هناك ثلاث مراحل : المرحلـة المتألمة ـ المالكة ، والمرحلة المناضلـة ـ المعذِبـة ، والمرحلة المنتصرة ـ في الفراغ . ان النقطـة الاعلى ، ظاهرا (سمو الروح ، ارتفاع النظرات ، الخ .) تسجل نقطـة السقوط : خط منحـن محتوم .

ذلك انه ليس ثمـة وجود ايجابي الا ان يكون محددا ، اي مقاتلا ونافيا . حين تشعر بأن قواك تتخلى عنـك ، وانك لا تملـك بعد قوة كافيـة لتبقى على « مواقعك » ، هنـا ، وليس هنـاك او الى جانب ، غير قادر بعـد على ان تتموضع فيمكـان ما ، فانك تقرر ان تضع نفسك في كل مكـان ، اي في لا مكـان . ان شمعة بلا فتيل تسيل وتنطفيء . اذا كان الجميع يحتملون المسيحية ، فليس للمسيحية بعد مبـرر للوجود . وكذلك ، اذا كـان كل ادب جيد واقعيا ، فليس ثمـة واقعيـة بعد . ان الواقعية والماركسية بـلا ضفاف يرددان طراز الاخماد نفسه . من هنا كانت نزعات الود لدى السيد غارودي تجاه الفاتيكان ، نزعاته المصالحة ، والعكس بالعكس . ان جميع هذه المناجيات ينبعث منهـا نفَس كريه.

السعادة او فــــن الاسراع

يقول بورج : « الخلود هو اسلوب الرغبة » وهــــذه الكلمــات الاربع تلخص الصفحات الثلاث التي كتبتهـا بصدد كتـــاب « درب الفلاندر » .

المطلوب من المرء ان يقرأ الشعراء لكي يتعلم ان « يفكر باستقامة » ، وان يوفر بذلك قواه . ان المماحك يصنع عقدا ودورات حيث يمشي صاحب العبقرية الادبيــة نحــو الهدف باستقامة . وعمل الكتابة يتلخص في اعماقه باللاكتابة . وان يقــول المرء كل شــيء ، بلا زيادة ولا نقصان ، هــو ان يقوله بقليل من الكلام . ويكــون الايجاز بذلك دليلا على الحقيقــة تقريبا . وبمقدار ما يكــون الشق عميقــا يكون الجرح ضيقا ، والكلمــات هي جرح الصمت . وان ايجاز الصورة الشعرية او الاشارة النثرية (« الكلمة في محلها ») هــو مــا يتيــح للحقيقــة ان تنفجر انفجار الدم في عرق او القيح في دمّل . ان من يتكلم ليسلي يصنع جملا . اما من يتكلم تحت سلطــة الحاجة فيتكلم بايجاز . وفي هذا يشبه الكاتب الجرّاح او طبيب الاسنان . لا بد له ان يجري لنفسه عملية حقيقتــه الحميمة : فاذا بقيت في داخله ، اصبحت قاتلة كالخراج . واستئصالهــا بالكتابة ، واشاعتهــا في الجمهور بالقــــراءة يستطيعــان وحدهمــا ان ينتزعا منهــا بعض خبثها . ان السرطان اذا نشر شفي نصف شفاء . على الاقل فــي ذهن المريض . صحيح انه سيموت به على اي حال ، ولكنه سيموت وهو عارف ، اذن من غير رعب . ان العمليــة الجراحيــة تستبعــد التمثيل والتفخيم والزخارف .

وما دام تعبيـــر الكاتب عن حقيقته او التفتيش عـــن حقيقته بواسطة التعبير يشكل له مسألة حياة او مــــوت ويطرح قضيـــة صحته السليمة ان لم يطرح قضية نجاتـــه الجسدية ، فليس امامه وقت يضيعه . ولا بد طبعا من وقت طويل ليتعلم « كيف » لا يضيع وقته ، وكيف يتحـــــــدد بالضروري الدقيق . انهم في المستشفى لا يضعون « فـــي الطوارىء » اول قادم من الخارج. وحدهم حفنة من الكتّاب، من الافراد النادرين الحذرين ، ينجحون ، بعـــد ان يكونوا قد ترددوا طويـــلا ، وشطبوا ، وامتحنوا انفسهم عبثا ، فـــي اجراء عمليـــة الطوارىء من غيـــر ان يقتلوا المريض . وهم لن ينجحوا حتى في اجراء عملية استئصال الزائدة الدودية اذا كانـــوا يعملون من اجل الرواق او مـــن اجل المتعة . هذا كان شأن موسيل وريلكه وليريس وكافكا وميشو ومالكولم لاوري وسواهم . وهكذا ايضا ستاندال ، بهيئته الفكهة ،وهو نموذج الكاتب « المستعجل » .انه ،حتى ولو كان يوحي بانه يكتب بسرعة ، وباهمال ، ويسقط كلمات او جملا ، كمـــا لو انه كان منتظرا على عشاء ــ فهو يخضع في كل شيء الـــى ضرورة داخليـــة صارمة ، انه دائمـــا طيب المزاج ، بلا تمثيل ولا محاولة للتأثير . ولكنه كـــان يمتعه الا يقول شيئا من اجل ارضاء الآخرين او ارضاء نفســه . ان مرحه الثابت يبقى رصينا ، وهو يقوم على هم دقيق بالا يخون ابدا الحقيقـــة ، حقيقته . انه المرح الذي يولد من الدقة ومن الرضى المعنوي المسكر الذي يمنحه الانسان نفسه حيـــن لا يغشّ نفســه . ان اطاعـــة الضرورة هي اطاعـــة قانون التوفير .

(ان الفيلسوف يشيع ما يقلصه الكاتب او يضغطه .

هل يمكــن ان يكون احدنا فيلسوفا بلا اطنـــــاب ؟ يجيب سبينوزا نعم . سؤال جديد : من غير ان نأخذ الشكل بعين الاعتبار ، اليس « العمق » الفلسفي شكــلا محتالا من اشكال الاطناب ، اطنابا منطويــا على ذاته ، نحــو الداخل ؟ اكان من الضروري حقــا كتابة « الاخلاق » ؟ هل شعر انسان بعد قراءة « الاخلاق » انــه معني ومدروس ، ومكتشف ومعرّى في صميميته كانسان ؟ ان هناك شعورا بان الفلسفة ترف ، وان الميدان الادبي ضرورة حيوية . نافلة جميلة ، تدقيــق بنيوي فوقيّ ــ « العقل » من اجل « العقل » . هذه معترضة طائشة ، علامة على فردانية من البورجوازية الصغيرة . ان « الانسان » المعني ، هنــا هــو الفــــرد ، و « الصميمية » موضوع بورجوازي ــ صغير عفن الى حد ما) .

ستاندال : نموذج السينمـــائي

في كتابات « ستاندال » اثر من « غودار » ، فـــــي استعمال التقطع . ذلك الجانب المختل او المضحك في مجرى الحبكــة ، وفي سلوك الشخصيات المتعرج ، وفي ارتجــاج الاسلوب . ان النقاش الابدي حول احتمال وقوع الحلّ في خاتمة « الاحمر والاسود » وهل يكــون او لا يكون في منطق البطل ان يتخلى فجأة عن « ماتيلد » وعن عمله مــن اجــل رسالة مغفلة صغيرة ــ ان هذا النقاش يفترض ان ستاندال مؤلف من القرن التاسع عشر ، جدير بفئات القرن التاســع عشر . هذه حماقــة . فستاندال هو مؤلف مـــن القــرن العشرين ، عصري ، كمــا كــان يردد بلا انقطاع ، وليس ذلك

فقط ليعزي نفسه من الاخفاق . فالنقائص التي كان يلصقها به معاصروه والتي جعلت منه مؤلفا من الدرجة الثانية ، في عام ١٨٤٠ ، نقائص من طراز : قلة المرونة ، والخشونة ، والتحدي ، والاستخفاف الوصفي او النفسي، وعدم احتمال الوقوع ممزوجا بالواقعية السياسية المسطحة ، والعتمة الايجازية ، كلها قد استحالت بعد مئة عام الى مزايا ، هي مزايا الفن المعاصر . لقد كان البورجوازي يأخذ عليه ، كما يؤخذ اليوم على غودار ، ذوقه الرديء بان يختار موضوعاته من واقع اللحظة المبتذل ، والاشد من ذلك ابتذالا الا يخفف من تأثير الظروف بنوع من الاسلوب المميز ، ومن التنويع الروائي اللائق . كانوا يأخذون عليه عصريته .

بالمقارنة ، يكون بروست الروائي الحقيقي للقرن التاسع عشر عند غروبه ، الطرف المتقدم من القرن التاسع عشر في القرن العشرين . وما هو عصري ، عمليا ، هو تدمير الحيّز البصري . ان البسيكولوجية في الزمن ، على غرار « الهندسة في الزمن » التي كان يطالب بها بروست، تخضع كلها لمسلّمة العمق ، البعد الثالث . وان بروست يبقى متضامنا مع المنظور الكلاسيكي ، ويعتقد ان على الفن ان يمنح وهم الواقع ، وان الرواية هي بديل عن الواقع ،كما ان على اللوحة ان تمنح الشعور بان « الامر على ما يرام » واننا مرتاحون لذلك . اما ستاندال فيسخر بالبعد الثالث . ليس هو بالمهتز ولا بالجسم ولا بالمبرنق ، لانه ليس ثمة اي هم" للتعمق . لقد شيّع « احتمال الوقوع » بالرغم من حرصه الشديد على الحقيقة والواقع الخام (وهنا تكمن كل مفارقة الفنون الحديثة وطاقتها)

انه يرسم بالوان موحدة مكدسة ، ويمارس التلصيق ــ على غرار غودار . انهمـا يحتقران «الوصلات» او انالوصلة عندهمـا تحتقـر تياقات السرد ، فتصبح عقلية ، ذاتية ، بدافع من تداعي الافكار ، اذ يتم هذا التداعي تحت قانـون المتضادات والمفارقات : تداعي المتعاكسات (ومن هنا الشحنة الشهوانية في كل لحظة ، هذه المفاجآت المفرقعـة المتتابعـة في وسط المغامرة الرائعة المتمثلة في حب او فيلم او رواية) ان وحدة الزمـان والمكان واللهجة والعمـل مدمّرة لحساب تعاقب خشن ونزوي للحالات الناجزة ، للحظات المزاج ، لـ « طفاحات السعادة » ، لان الجرّاح قرر هذا على ذلك النحو.

ان الواقع الخام هو اللحظة . وعلى ذلك يكون احتمالالوقوع ربط تتابع هذه اللحظاتوتنظيمها ، غير ان هذا التتابع يتطلب وسائل اصطناعية ، فهـو يحرف الواقع الخام نحومواضعات المتخيّل . وكما سجل ستاندال هو نفسه ، فـان اسلـوب « الاحمر والاسود » « المفرط الخشونة والمفرط التنافر » يوشك دائما ان يصبّ في العويص والوعر . وما يربحه في الكثافـة (الالوان عند غودار صرخات) يخسره في المغزى ، بعد كل حساب. ان قدرة الزعزعة تستنفد نفسها في اللحظة (عند غودار ، فيالمخطط ،في المتتالية) فهي لا تمتد ، ولا تتعدل : وفي هذا نقص في الاصداء والعذوبة والتذكيـــر والتأثير المتطاول على القاريء او المشاهد . وبكلمة واحدة ، نقص « في الروح » . ان الانفعال يقتل العاطفة ، والصـورة المخطوفة ، والكثافـة ــ التي هي « استمرار » قبل كـل شيء . وتلك هي سيئة الاسلوب ــ الخاطف . وقـد كـان ستاندال يعاني من ذلك ، وقد حاول طوال حياته ان يضعف

« هلفتيوس » بـ « جان جاك » ، وان يضعف الحدة بنـوع من الارتعاش الشفقي ، وان يضعف التهكم بالحماسة . ولكن ليس عـذبا من يريـد ان يكونه . ان العذوبة عنده خفيـة ، فهي لحظـة مسروقة ، استراحة ليلية . وهي في الحقيقة غير موجودة لدى غودار وصحبه. والمقارنة هنـا لا قيمـة لها الا في حيز الكينونة ، فان ستاندال يرث من القرن الثامـن عشر ، من هذه الثقـة في القسمات الارستوقراطية ، مـن هذا « الزمـن الصلب » ، من هذا الجذل الانيق كليـا ــ هذه الصفات التي تتخذ اسما لها : موزار .

والغريب ان السينما ، فـن الحركة الذي هو طريقـة بهـا امكـن ان ترد الى شبكيـة العين الاستمرارية بيـن الحركات او الحالات المتوضّعة ، هي التي الفت حقـــوق المستمر . مفارقة . فمن « ماري » حتى « غودار » نتطلق من المتقطع حتى نعود اليه ، بحيث ان الاخوين « الاضاءة » ووصول القطار الى المحطة يجـــدان نفسهما مخدوعيـن بخدعتهما الخاصة،مقبوضاعليهما بمهارتهما،ساقيين مسقيين . اذا كنت استطيع ان اتابع بسرعـة ٢٤ صورة ــ ثانيـــة ، فأستطيع اذن ان اتابع على الحلقة التي لا تلي ، وان افكـك العلاقات المتتاليـة طبيعيا ، بالواقع كمـا بالحق . استطيع ان اخرج صورة كرّاث بعد صورة عناق او صورة وزير بلباس الفراك . لقـد كان المونتاج يخفي في داخله نفيه ، انكسار المنحني السردي او المنطقي ، على ان يفهم هذا النفي بانـــه كماله . وما كـان يسمح بأعادة الطبيعـة الى الطبيعي ، على نحـو افضل الف مرة من الرسم او التصوير ، سمـــح

بالانفصال عن الطبيعة وبتطويعها لتخيّل السينمائي . فبدلا من اعادة تتابع الاشكال الظاهرة او تصوير رجل يجري، يمكن تحطيم الزمنية السطحية للمظاهر ، والولوج بالكسر الى قلب القصة ورواية الاشياء بشكل افضل حين نروي بلا نظام ولا رأس ولا ذنب ، بتحطيمات متتابعة ــ الصور المضحكة والضرورية التي تخطر في بال العدّاء او على الاصح في بال من يسجله . لقد التقطوا ، بعد « ماراي » ، الاستمرارية الشبكية . اما مع غودار وصحبه ، فقد أُخذت بلعبتها .

ان الوان النضج والانتقال والتكون لا تهمّ ستاندال . وكذلك المصائر والمصائب المحتومة . هناك ميدانان متجاوران، اولهما نفسي والآخر ماورائي او ديني ، سكنهما القرن التاسع عشر : بروست من جهة ،ودستويفسكي من جهة اخرى . والحق ان « ماتيلد » التي تعيش بكليتها في شعور اللحظة ، وفي اللحظة التالية في الشعور النقيض ،وتكون تارة مذلة وتارة ذليلة ولكنها ابدا تسيطر عليها ، أكانت سيدة ام عبدة ، حالة تتجاوزها كقدر ذي نزوات ــ ان ماتيلد هذه تشبه شبها غريبا شخصية دستويفسكية ، لنقل انها ناتازيا فيليبوفنا . انها هي التي كان ينبغي ان يقتلها جوليان ، كما يقتال روغوجين تلك التي يحبها لانه يحبها . ولكن حذار ! فماتيلد ليست مخلوقا ، فهي بلا روح وبلا مصير . انها امرأة عقل ، فليس لها الا العقل والنبل . وحالاتها من النزق او المجون لا تعني الاها ،وعلى الاكثر الفتيات التي هن في وضعها ، فهي لا تعني « الله »

ولا « الشر » ولا اغراء الشر الشيطانـــي . ان ستاندال لا يستطيع ان يكـون مأساويا ، فأبطاله جميعا فعّالون ، وحوش نشاط او مبادرة . والوحشية الوحيدة التي يعرفها ستاندال هي وحشية الحرية المحضة . واما مراتب الكائنـات عنـد دستويفسكي فتنطلق من اكثرها اقدامـا الى اكثرها شؤما، من اكثرهـا خبثا الى البريء والى « الابله » . وعند ستاندال من اكثرهـا سلبيـة وجمودا وغرورا ، من الكائن الخاضع لضغوط « وضعه » ، الى اكثرهـا فعالية ، واكثرهـا عدم توقع ، واكثرها ادهاشا . ان اصطياد السعادة هو اصطياد المفاجآت : ولما كانت المفاجأة لا تصطاد نفسها ولا تنتظر فـي زاويـة الغابة ، فليس للاحاشة نفسها من قواعد . علـى الصياد ان يخترع دروبه وشباكه ، فلن يساعده في ذلـك احد . ان فـن منح النفس لحظات ، وجعلهـا تنبثق ارتجالا، هذا التعرج غير المحتمل الوقوع للتبجحات والتحديات ، هو ما يسمى السعادة . ان كل صعوبة الفـن وما يشبه قلـق السعادة يكمنان في انه ينبغي ، لكـي نقبض عليهمـا ، ان نتركهمـا يقبضـان علينا ، ان نجـد الوسيلـة لتوفيـر الحاجات للمحـروم .

هناك سر صناعة المنشّط الستاندالي ، في الحث على السبق ، وفي التصرف الناشط الفوري . ان الحضور ،الذي هـو مفتاح السعادة ، ليس صفـة للذهن بل للشجاعة . فلا بد للمرء من ان تكون لـه الشجاعة لبلوغ الذهن الحاضر ، ومن ثم ، بلوغ السعادة . وفي هذا تكوّن هذه الهواية الظاهرية اخلاقية صارمة ، وهذا التبجح يتطلب تجـردا وجنونـا للشروع وما يمكـن ان يكـون من سطحيـة ومن طابع مفرط

الفرنسية لدى ستاندال يكشف عن صحة رائعة ، فالاعمال فيها ليست اندفاعات ولا لمسات ، فهي تقوي وتنعش ، بعكس الانحطاط البروستي او المرضية الدستويفسكية . صحيح انها عبقرية اقل من عبقرية هذين الاخيرين ، ولكنها العبقرية الفرنسية ، الصحة الفرحة للعرق ، ونحن نحب ان ننهض بشهية جيدة . وليُقل ذلك من وجهة نظر طبية .

كم من احلام وحيل لدى ستاندال لطرد اللحظة الساذجة ! ان ستاندال ، بدهائه كماكر قديم ، يلامس القرن الثامن عشر ، ويلامس القرن العشرين بحبه للتلقائي، للاندفاعة الوحشية الطازجة . ان اصطياد السعادة ، في الحقيقة ، يشقي جميع الناس ، لان على انصارها ان يمزجوا المهارة في الطراد بالبراءة في الاستيلاء . والحق انجوليان لا يتخلّص من هذا ، وينتهي به الامر الى الارتباك في شباكه.

الابطال ــ الخِدع

« بطولة » روّاد الفضاء : فضيحة ، خدعة فظة منفّرة . اننا نقرّ اخطار جهازهم ، وتدريبهم ومرونتهم . ولكن العمل يكون بطوليا حين لا يكون له شاهد ، أو حين لا يكون له الا شاهد عرضي . فمن ذا الذي لا يبدو رابط الجأش هادئا اذ يعرف انه هدف لانظار ثلاثة مليارات من البشر ؟ لنفكر في عظة « الاخوة كارامازوف » ،في الجريمة المرتكبة دون ان يعرف بها احد . ابتداء من هذه النقطة ، يصبح النقاش ممكنا . ان رائد الفضاء ليس له اولا

خيار فيمـا يفعل ، لا بديل عنده عن المقاومة والتماسك . انه، في غرفته ، مُبحر . مستحيل ان يقفز وهو يسير . ان الآلة هي التي تقرر ، وليس هو . ثم انه ، بصفته فنيا ، مشغـول بسلسلة من الحركات يقوم بهـا ، وبمراقبـات يمارسهـا ، وبعمليات موقتة ومبرمجة . انه يجيب علـى التة ، امام لوحة القيادة ، وليس امام وعيه . وليس لديه حتى الوقت لذلك . واخيرا ، فانه يمثل ، بالمعنيين الحقيقي والمجازي ، بلــدا وجماعــة وجنسا بشريا ، امـام شاشات التلفزيـون وامام التاريخ ، وهذا من غير ان ينوقف ، وفي لحظة عمله بالذات. ان جميع حركاته علنية ، وهــو لا يستطيع ماديا ان يكف عن القيام بدوره . حركات مدارة مسافيا من مركــز المراقبــة الارضي ، ولكنه على الصعيد المعنوي كذلك ، لا يستطيع الا يعرف انه ينفذ حركة « الانسانية ــ الرائدة للفضاء » وانــه سيُسجّل في كتب التاريخ وسيكون الناس في غاية الامتنان له . آثار تذكاريــة مضمونــة في جميع الحدائق العامة . والحقيقة ان رائد الفضاء لا يستطيع باي حال أن يكــون بطلا، اذ هــو متأكــد من انه على حق ، مهمـا فعل ، وليس لــه خيار اخلاقي او سياسي . حــتى اذا مات ، فــهو ينتسب الى الجميع ، فيمـا وراء خلافات الطبقــة والعرق والفكر. انه مثبت في العامّ التقني .

السياسي وحده يفضي الى البطولة ، لانه ليس متأكدا ابدا من انه على حق بان يفعل ما يفعله . وسيبقى موته ابدا رهانا . سيكــون موضوع نزاع وهو يعرف ذلك . سينازع فيه اعداؤه طبعـا الذيــن سيدعونــه مجرمـا وارهابيا او يلتزمون الصمت . وربمـا اصدقاؤه ايضا ، ورثته بالذات.

« ان البطولة هي القيام بعمل مطلق في النسبي » ، وهي معاناة هذه الفجوة وتجاوزها . هي اختيار المضي حتى النهاية ، على معرفة بهذا التعارض ورغما عنه . ان البطل الذي لا يطرح على نفسه سؤالا ، ليس ببطل . ولكنه شهيد ، وضحية ، ومثال للاطفال . ان المسيح يصبح مهما كانسان حين تساوره شكوك في وجود الله ، حين يحكم على نفسه بأن « اباه » قد تركه ، اي حين يتساءل ما عساه يفعل هناك ، على هذا الصليب . اذ ذاك ، في تلك اللحظة ، يتألم المسيح بصفته بطلا .

١ ـ ليس ثمة « بطل » عام ـ فالمناضل وحده مستحق للبطولة ، لانه يموت من اجل اخوانه ، وليس من اجل جميع الناس .

٢ ـ انه يجابه الخطر الاقصى ، الذي ليس هو الاختفاء الجسدي ، وهي عاقبة يشترك فيها جميع الحيوانات ، بل السؤال الاخلاقي عن شرعية هذا الاختفاء . هل انا على حق بان اموت على هذا النحو ؟ هل اخواني على حق ؟ ان المستقبل وحده سيجيب ، ولكني لن اكون هنا لاعرف ذلك . ليس ثمة ما يؤكد ان الاشتراكية لن تبدو يوما وكأنها النزوة الموقتة لهذا القرن ، الوهم المضحك ، وبلا نتائج تحفظ . وهذا هو بالذات سبب كون الاشتراكية لها اليوم ابطالها .

٣ ـ ان سلوكه يصدر عن اختيار قابل للنقض في كل لحظة . انه يستطيع دائما ان يتخلى ، اي انه في هذه الحالة يكون قد اختار « الاسوأ » برفضه الانحراف نحو « الافضل » ، المعقول والحذر ، وهو انحراف معروض له بلا

انقطاع . والباقي ينبغي أن يوضع في خانة الاحداث المتنوعة ، وحوادث الطرق التي يعانيها الضحايا على نحو ما .

ان الملاحة الفضائية ليست اقل ولا اكثر قابلية للنقاش من سكة الحديد او الدرّاجة . هكذا الحال ، اننا جميعا متفقون ، ما عسانا نفعل ، الخ . آن للسكك الحديدية ايضا ابطالها .

ان هذه الدعاوة الصاخبة مرصودة لنسيان اعمال البطولة الحقيقية التي تحدث كل يوم على هذه القارة ، تحت غطاء الاحراج او المدن ، في الليل او في غفلية شارع مليء بمارة لامبالين ، في وضح النهار . هناك السمو ، وهو في كل مكان ، وكل لحظة . حين تعطل فجأة مسدس الرفيقة « مايا » ،في كوشابامبا ، في بيت حاصرته الشرطة عند الفجر ، فطلبت من «هـ» ان يُطلق عليها النار ويقضي على حياتها برصاصة في رأسها ، فنحن امام السمو والعظمة . كانت شابة ، جميلة ، محبوبة ، وفي بحبوحة . كان بامكانها ان تواصل دروسها في الجامعة ، وان تتزوج ، وان تنجب اولادا ، الخ . لم يكن ثمة من يجبرها على الدخول في جبهة التحرير الوطنية . كان بامكانها ، بعد ان وشي بها وحوصرت ، ان تقبل الاسر بالقاء مسدسها ، وان تنتظر عاقلة بضعة اشهر او بضع سنوات العفو العام القادم ، كما يفعل الجميع . ولا يمكن ان تكون قد حدست لحظة واحدة ان يُلصق على اسمها ، ذات يوم ، لقب البطلة ، ولم تستطع ان تستمتع لحظة بهذه الترقية . ان قليلين سيحفظون اسمها ، ولن تثير لدى كثيرين الا ذكرى مشوشة « لارهاب متطرّف » مزعج

او مرفوض . ولكنها البطولة في حالتها النقية ، الملتبسة، المقتضبة . انها لا تحدث ضجة ، لا عناوين ضخمة ، ولا تأوهات اذاعية . ان العمل السامي يختبيء غريزيا ، آلا ان ينصرف عنه الخنازير ، السائدون في كل مكان تقريبا ، على نحو لا يقل غريزية . ان من لم يكن خنزيرا يبادل بـ « مايا » واحدة كثيرا من روّاد الفضاء .

واخيرا ، زيارة . كنت كمن بلّط في الماء : لا بد للبركة من ايام لتسترد هدوءها ، لكي تمتص الحجر النيزكي في اعماق الذاكرة من غير ان يظهر شيء منه على السطح . انفعالات وجه مجهول ، مويجات تخلفها محادثة نصف ساعة كان عليّ فيها ان افعل الاجوبة والاسئلة ، ليمكن لوهم ان اجد محادثا في وجهي ، بعد شهرين من مفاجأة النفس ،بعض الكثافة . الوهم ، الغرور الذاتي (احزر ، يا « دوكون » ،كما تراني ، تحدثت مع انسان طيب) ، متعة ان اختزن ذكرى، اليقين المسكر ان املك شيئا طريا اتذكره ،بعد الظهر او في المساء .

« بروست » ام « لوفيفر » ؟

حين ظهرت رواية « في ظل الفتيات المزدانات بالزهر » ، قام « ريمون لوفيفر » القاتل والمناضل المثالي ، يستهزيء ببروست ، بتلك الطريقة التي تستعمل « للتفلسف على مجانات » . ولم تكن نشاطات لوفيفر بأقل مدعاة للسخرية في عيني بروست الذي قد يكون التقى تروتسكي خارجا ذات يوم من « الريتز » . كان كل منهما على حق،

وكان كلاهمـا مخطئا . واكبر مأخذ يمكن توجيهـه الـى لوفيفر ورفاقه هو طبعـا انهم لم يكتبوا « الزمن الضائع »، واكبر مأخذ يمكـن ان يستحقه بروست وزملاؤه هـو انهم لم يؤسسوا الاممية الثالثة ، وانهم لم يهلكـوا في البحـر العاصف بطريق عودتهم من موسكـو المحاصرة . امـران متنافران . ولكن سيأتي اوان يلتقيـان فيه مجتمعين في نموذج انساني واحد . واذا اضحك الزواج المستحيل يومـا أخبار المجتمع ، فان الثورة لن تكسب من الامر اقل من ظلّ الفتيات المزدانات بالزهر . واذا لم ترد الثورة ان تخسر كليا جاذبيتهـا المشرقة ، فلا بدّ لهـا او للذين يتحدثون باسمهـا ان يقبلوا الى جانبهم ذلك الظلّ . وستبرز بالمفارقـة . ان ضوءا على ارضية ضوئيـة لا يبرز . ومهارة الرسامين يمكن ان تخدم هنـا : فهم قد اخترعوا « تدرج الضوء » ليجعلوا الضوء قابـلا للادراك .

يبقى ان هذا التنافر يتصل بعادة قديمة رديئة ،بكسل ذهني، بمجرد اصطلاح من ثقافتنا . ان الحياة الحقيقيـة تسخـر من هذه اللعنات . ان الرجل نفسه يتصرّف فـي النهار كعامل وكمواطن ، فهو يدفع ، عن علم او غير علم ،عجلة الثورة او عجلة الثورة ــ المضادة (ليس باكثر من شراء هذه الجريدة او تلك)،فاذا اتى المساء ، تثور اعصابه بصدد ملابس داخلية ، وهـو في ذلك يمارس الميتافيزيقا باستيهامات على طرف اصابعه . سياسة ، في الخط الافقي . وميتافيزيقا ، في الخط العمودي . انهما الحياة والموت اللذان يتواعدان في السرير (سرير الولادة او الموت) بلا تعويل على هذا التثقيف في الاعماق الذي هو الحلم كل ليلة . وكل مـا في الامر الا

ينسى المرء حين ينام من هـم واقفون (بروست) او حيـن يقف من هم نائمـون ، لسبب او لآخـر (لوفيفر والرفاق).

قليل من الطفولة والحلم والجماع في « الامل » . وقليل من الامل في « الزمن الضائع » . استبدل « الامـل » ب « برخت » او « شولوخوف » ، واستبدل « الزمن الضائع »، ب « درب الفلاندر » او « تحت البركان » ، فأنت دائما في الارجوحة نفسها . هل يمكن ان نعيش دون ان نختار ، دون ان نضحي المواقع الافقية لصالح المواقع العمودية ، الجزء المظلم لصالح الجزء المضيء او بالعكس ؟ سنستطيع ذلك ، يوما . اننا نناضل من اجل ذلك . لقد وقفنا ليأتي النهار الذي لا ينسانا فيه من هم في السرر ، النهار الذي لا يسخر فيه من بقوا (سطحيا) مفيقين ومسلّحين ، ممن يستكشفون اعماقهم وهم نائمون . لقد وقفنا ، وينبغي علينا ان نظل واقفين طويلا حتى يكفّ انتصار الثورة عـن ان يعني اخيرا هزيمة بروست ،بل ان يعني ان بروست مبذول للجميع ، كفائض ضروري ، حين ستكون السعادة ماديا موزعة توزيعا جيدا بحيث يستطيع كل فرد ان يمنح نفسه شقاء ان يحب او ان يموت ، ان يمنح نفسه اجمل الهدايا وان كان اكثرها لا جدوى واعلاها ثمنا.

لن اتغيّر كمسيخ انف لمجرد اني ماركسي — لينيني . انني مسكون بروائح الطفولة،ولن يمنع سموّ جهد ما او صحة تحليل ما هذه الاطياف من ان تموت الا معي. لقد آن الاوان لان نعطي مسيخ الانف مكانه،مرة والى الابد، في الشظايا او في اللصق الصباحي للاعلانات . ان هذا بالنسبة للمثقف هو الوسيلة الوحيدة لكي يبقى شيوعيا حتى النهاية ،حتى

آخر نفَس . ذلك ان مسيخ الانف ، اذا كبت او احتُقر ، يصبح ذا عقاب شديد : فهو يثأر من حرمانه من « اي » مكان ، باحتلال المكان « كله » . ان تجربة نصف القرن هذا تشهد بان الذين ارادوا او تصنعوا انهم ينسون حتميات الجسد (اي : الجانب الميتافيزيقي ، كل ما لا يختاره الانسان من تلقاء نفسه) ينزلقون عاجلا او آجلا ، عن طريق الفم او زوال الوهم ، الى المعسكر المعارض . ان « الشيوعي »الكامل، ذا الكتلة الواحدة ، البلشفي الفولاذي على طريقة « فايان »، ماوي اليوم الذيلا عاهة فيه ولا مأخذ ، ان هؤلاء يضحكونني . انني اواعدهم على اللقاء بعد عشرة اعوام . وانا اعرف انني سألقاهم وقد تحوّلوا الى داعرين حزينين في علبة ليلية ، او الى كاتبي افتتاحيات في « الفيغارو » او الى اصحاب ايرادات في عزبة بالبروفانس . تغيّر مفاجيء للاشياء : بالامس ، كان اتقياء موسكو ينهون مهنتهم في مونت كارلو . وغدا ، سينتهي حجّاج بكين في « كاتامندو » ،او على ديوان المحلّل .

لغتي الامّ ، رحمي ، زنزانتي ، نعشي

« ما اللغة ؟ ــ اللغة « اداة اتصال » تحلّل التجربة الانسانية نفسها طبقا لها ، على نحو مختلف في كل مجتمع ، الخ . » (مييه ، « عناصر الالسنية ») . خطأ . غلطة نموذجية مقلقة .

١ ــ اللغة ليست « اداة » : أ) انها عضو مادي وليست

شيئا ساكنا قابلا للنقل ، سهل الاستعمال . ان المرء لا يلحظ لغته اكثر مما يلحظ ذراعه او رئتيه . فاللغة تجري فينا كالدم او الاوكسجين ، غير مسموعة ولا مرئية . انها فينا بقدر ما نحن فيها . ب) وهي ليست وسيطا، الوسيط الذي ينتظم فيه المتكلم والتبليغ . اننا لا نستعمل لغة ، بل اللغة هي التي تستعملنا عند الحاجة ، او بالاحرى ، ليس ثمة من يستعمل الآخر في هذا الميدان . ان الرئات تستخدم للتنفّس ، ولكننا لا نستخدم الرئات « من اجل » التنفس . من يقل أداة يقل صنعا . وبالرغم من ان اللغة نتاج ثقافي ، فليس لها من صانع ، فنحن نباشر معها علاقات طبيعية . انها في نظرنا ، وعمليا ، متمادة مع طبيعة الواقع ، كما التنفّس متمادّ مع حياتنا : يبدأ بها وينتهي .

٢ ـ ان ما يصلح للتواصل مع الفرنسيين ، يمنعني من التواصل مع الالمان . وما به مواطني يصبحون لي شفّافين يجعل اشباهي فيما وراء « الران » غير شفّافين لي . فالارادة هي في الوقت نفسه عقبة ، والجسر جدار . اننا محبوسون في لغتنا . انني ، بصفتي مزدوج اللغة ،اصنع الجدار ، ولكن ذلك غالي الثمن .

ولما كان الواقع كزّا عن اللغة ، فاني اقفز في عالم آخر باستعمالي لغة اخرى مختلفة عن لغتي الطبيعية ، تلك التي ولدتني ، لغتي الام . واذ اغيّر الاداة ، اغير مادة العمل . وهذا ما يثبت ان فكرة الاداة عبث ، لانه ليس ثمة اية لغة تنطبق من الخارج على « التجربة الانسانية » ، باعتبار انها تؤسسها بصفتها تجربة . الخ .

ان تحصيلات الحاصل هذه المضجرة لا اهمية لها في ذاتهـا ، الا بالنسبة لنتائجها . فالقضية هي ان نـرد للغة طابعها القدري ، وثقلها وكثافتها .

اننا نولد في لغة ، وهذا العالم الذي صُنـع بدوننـا سيكون عالمنـا نهائيا . ولقد وضعتنا لغتنا الام في العالم من غيـر ان تطلب راينا ، فنحـن لسان حالهـا (باعتبار ان اللسان يؤمن انتشار هذه اللغـة المعينة في قلب مجتمـع معيّن) . ان اللغـة واقعة ، وهذه الواقعة هي كينونتنا ، فنحـن بسببها كائـن واقعـي . وفي قلب هذا الغيـاب الاصلي ينبغي لنـا ان نكون حاضريـن لانفسنا ، وان نتمثل لانفسنا العالم . ان علينـا ان نكتشف شكلنا الفردي بواسطة هذا الارث الموزع توزيعـا متساويا بين الجميع (افـراد امتنا) ، هذا الارث ، بلا موص ولا موصى له ، الذي هـو اللغـة . ليس ثمـة من ينتمي الى نفسه حقا . ولا يستطيع المرء ان يوقّع على نفسه من غيـر ان يغش ، لا يستطيع ان يقول : « هذا الانا هو لي » ، لان هذا الانا لا يأتي مني : فلا جدوى اذن في تمثيل دور الفنـان او في اتخاذ هيئات . ان قصارى ما نفعله ان نرمّق ، جديدا مع مـا هو مستعمل ، وفريدا مع العام ، وما يستحق الذكر مع ما لا تعيه الذاكرة . والنصوص لا تولد من نفسها ، شأنهـا في ذلك شأن البشر . فثمـة نصوص اخرى قد سبقتها ، فليس ثمة « مُستهل » في اي مكان ، لا في تاريخ المجتمعات ، ولا في تاريخ فرد ، ولا في تكوّن كتاب . في الاعلى ، هناك غُفليّة اللغـة اوالحياة ، من حيث اصدر على نحـو جيد او سيىء . انني لن ابدأ شيئا ابدا . وكذلك اي فرد . اننـا لا نبايع الاقحـوان ، بل ان

الاقحوان هو الذي يمنح نفسه ، باسم فصيلة ذوات الفلقتين ، متعة ان يبايع ، بين حين وحين ، رؤساء الجمهوريات المتعاقبة .

هذا في المجرّد (من هنا بلاغية هذه الملاحظات) . اما على الصعيد الحسي ، فثمة دائما وسيلة لملء هذا الغياب وتوقيع الارث ، بالحيلة الجدلية التي لا تبسم الا لبعض الرجال العباقرة ، « الكتّاب الكبار » . كيف تراهم يتوصلون الى اعطاء الانطباع بانهم يعيدون اختراع اللغة ؟ بأن يطيعوها كليا ، وان يتزوجوها في جميع الزوايا والخبايا ، وان يتقولبوا عليها ، بلا حياء . انهم يعطون الانطباع بانهم يعيدون خلق اللغة ، بانهم خالقو لغة لهم ، لانهم توصلوا بسبب من فرط الخضوع والتنبه والعمل الى ان يجعلوا انفسهم ابناءها . بمعاشرة طرق تعبيرها ، وبعشق مذاقها ، ورائحتها الخاصة ، وبدراسة مفرداتها ، ومصطلحاتها الحرفية ، واصطلاحاتها الطبقية او الاقليمية ، والتقاليد الاشتقاقية ، وشجرة كلامها النسبية ، وجذورها ، ومشتقاتها ، ومركباتها وتعابيرها ، الخ .

ان يصنع المرء من نفسه ابنا للغة ، على هذا النحو ، هو ان يتجذّر في اعماق ارض ومنظر وامة وتاريخ معيّن . والكتّاب الكبار ، على معرفة منهم أو على غير معرفة ، يعاملون مجتمعهم كوطن ، بتقى بنويّ لو وعوه لربما اضحكهم . ولان اللغة ليست اداة وانما هي عضو وقدر ، فان كل تاريخ فرنسا يبرز في اية صفحة من « هوغو » او « اراغون » او « جيونو » . وسواء كان الكاتب الكبير امميا او فوضويا او منعزلا او منفيا ، فهو وطني بالضرورة (ولا يصلح العكس !) والحال

ان الحيلة تكمـن هنا ، وهي حيلة كلاسيكية ـ الطبيعـة تمتلك باطاعتها ـ فالكاتب يفلت من ثقل اللغة وصلابتهـا بالانطواء امـام جميع قوانينها . وصحيح انه يستعملهـا ويركبها ، ولكنه على الاقل يملك ناصيتها لانه يكـون قـد تعرف عليهـا . انه يُعيـد نمذجـة الارث لانه يكون قـد سبر تفاصيله بامانة . وهو اذ يقبل اللغة كطبيعة ، يجعـل منها طبيعته (« الطبيعـة الثانيـة ») وتنفسه ونفَسه . وينتهي بهـا الامر الى اطاعته ، والى الذوبان في أكثر نزواته سريـة ، وفي نبض دمه وارتعاشة اعصابه ، والى ان تصبح « شيئه ». انه يزودهـا بحرية تحرك حتى يبـدو وكأنـه يخترع المادة الصوتية نفسها ، كما لـو ان احداً قبلـه لـم يستعمل كلمـة بسمة ، وكلمة صيف ، وكلمة خاصرة ،وكلمة بلّوط . انه يعيد وضع هذا الماضي كله بصيغة الحاضر ، ويمنح الوهم بانه يجسد اصل الفرنسية ـ ضرورة مدركة جيداً ، ومصبحة حرية . وهذا اشبه بضرورة اخذ تتـابـع تاريخ (محليّ ، معيّن) ليمكن وقفه واطلاقـه من جديد : نشاط ثوري محسوس . وانه يجب المضي حتى آخر فكـرة « وطـن » للافضاء الى العالمي العام . الى اكثف طبقة فيلغة معينة ، لجعلهـا أثيرية وشبيهـة بتنهدة ودمعة وبسمة ،كما هـو حاضر في جميع اللغات ، وعلى جميع الوجوهالبشرية.

مع لغة الاسبرنتو ، لن يبقى بعد شيء اساسيللايصال. والافضاء الى العالمـي العام بالغاء الحدود ، هوذا الوهـم المناقض للجدلية ، وهـو اردأ السطحيات ، والافعـوان الخرافي الذي يجب تقطيعه . ان اللغـة الرياضية لغة بـلا

حدود ولا اوطـان ،من اجل هـــذا ليس لهـا بالدقـــة ما تقولـه .

« موقد ، منزل » ـ كلمة غريبة ينبغي ان تُحفظ عـن ظهر قلب وتردّد مئة مرة . فربما ذات يوم . .

الفاصل غير المحتمـل

مناجيات نفس مغتاظة ، اعلانات ، تجـارب بيانات .
انك تبدأ نصوصا قاطعـة وغاضبة ، ولا تنهي واحدا منها . وتقفز دفعـة واحدة الى الصيغـة النهائية . ذلـــك لان السينمـا ، وبشكل عام ، العالم الخيالي لا يمثّلان الا بداية الاعمال الحقيقيـة وشرارتها ، او خاتمتها وحلهـــا . ان الاندفاع الاولي والسقوط همـا كل ما نعرفه من ابطـــال القصص الخيالية والمخلوقات الروائية ، وهم من اجل ذلـك يسحروننا . انهم عظمـاء حتى في السفالة ، لانهم مبتورون ومخفّفون من تلك المدة الفظيعـة المضجـرة التـي تربـط بالنسبة الينـا اللحظة الافتتاحية باللحظة الختامية . هنـا يكمـن الجهد ، والعمل القاسي ، وهنـا تتميز الكائنـــات الجادة من سواهـا بأن ليس في هذا القطاع من الوسط ، بالذات ، ما يفعله المرء لكي يتميز . لا جمهور ولا عقاب ،فهو حاجز دبق كئيب . حيـن يكتب شخص ، في السينمـا ، رسالة مـا ، فهـو يبدأها او يضع لهـا نقطة الختام . وان المرء ليـود ان يفعل مثل ذلك ، وان لا تكـون لرسائلنـا الا جملـة اولى وجملة وداع . حـركاتنا ومنشآتنا وآثارنـــا المكتوبة علامتي تعجّب بين طرف وطرف ، بلا شيء فـــي

الوسط ـ حلول صورة مكـان اخرى تدريجيـا مـن اللقاء حتى الفراق ، من النظرة الاولى المتبادلة حتى الاخيـــرة المهجورة ، من التجند في الجيش ، مع البسمة المجيدة ،حتى السقوط في ميدان الشرف ، مع عناق العلم او القبضــة مرفوعة في الهواء . ان المؤثر الرخيص يقوم على مونتاجات وقتية من هذا النوع . وان كل مــن يملـك بعض الخيـال وعادة ارتياد السينمـا او مطالعة الروايات ، يسعى غريزيا الى الاختصار ، والى القفز عن المشاهد التي لا اهمية لهـا ،وان يعيـد مباشرة ربط اللحظات الجميلة ، وان يحذف بلا شفقة من المدة اللامجدية التي تفصل بين الفصول الجديرة بالتنويه او بالاعادة . ولكنه لا يستطيع ذلك ، فالحياة ليست فيلمـا ولا كتاب مغامرات . واذ ذاك يتألم ، ويعاني خجل من يجر ساقه ، خجل الاعرج الذي لا ينجح في اللحاق بالآخريـن ، الخياليين ، السريعين ، اولئك الذيـن يكتبون دفعة واحدة « الدولة والثورة » وبعد ذلك مباشرة يسلبون مصرفـا او يجرّدون شرطيـا من سلاحه ، ثم ما يلبثون ان يضاجعـوا سيدة جميلة جدا ، ويجدون انفسهم بعد ذلك بصحبة سيد ذكي جدا ، متبادلين احاديث ساحرة وموجزةوسريعة .

ويبدو لـي ان الآخرين وحدهم يملكون مثل هـــذه الامتيازات . حين افكر بصديق ، برفيق بعيد او قـريب ، اتصوره طائرا على هذا النحو بينما انا ازحف علـى الارض في هذه المحاولات القذرة البطيئة لاقطع هذا الزمن الـذيلا ينتهي والذي يفصل حركة عن اخرى ولاشد احداثا مفككـة بعضهـا الى بعض . احداث لا تقع ابدا مع ذلـك ـ علـى الاقل كما كان ينبغي للمخيلة ان تغيرها ـ احداث لا تصـل

الا مشوهة ، معكرة ، عائمة ، مضحكة ومتذبذبة ، تكـاد لا تُلحظ في اللحظة نفسها ، ويكـاد يكون تحقيق هويتهـا مستحيـلا (لا تتحقق الهويـة آلا في الخيالي ، انه الاسقاط الخيالي ـ بشكل استباق او ذكرى ، في منظور الرغبة او في استعادية الاختبار ، ولكـن على مسافة ما دائمـا ، علـى شاشـة ـ الاسقاط الخيالي الذي يمنح شيئـا او امرأة او جملة ملفوظة حدودهـا بـل كثافتهـا ، وشكلهـا بـل كينونتهـا) .

ان للغائبيـن امتياز ان يعيشوا من اجلنـا ككائنـات روائيـة بملء الزمن ، بلا نفايات النوم والغذاء والكساء ، وبلا هذه الفواصل التـي هي نصيبنا ، نحـن المساكين الذيـن يملكـون كل يوم اربعـا وعشريـن ساعـة من الحيـاة البيولوجية وبضع دقائق من الحياة الحقيقية ، والذين يجب عليهم ان يدفعوا كل يوم الفرق ، الساعات الثلاث والعشرين ونيفـا .

ان ما يسمى « حقيقيا » بالنسبة لفرد ، هو هـذه الحقبة من حياته المتطابقـة مع الفكرة التي كوّنهـا عـن الحياة ، حين يُحسّ حياته ترتفع وتتساوى ، ذات لحظة ، مع جوهره الحميمي ، تنتزع نفسها مـن نفسها ، تتخفّف ، تصبح تضحيتها الذاتية المتهللة . بالنسبة لكاتب ، ان يكتب. وبالنسبة لثوري ، ان يناضل ويقاتل . وبالنسبة لعاشق ،ان يحـب ، ان يستطيـع مـاديـا ان يحـب . وبالنسبة لريـاضيّ ، ان يخترع ويحـل مسائـل ، الـخ . واذا كانت القضية الجوهرية معرفة ما يستطيع رجـل ان يؤثره على حياته الخاصة (من المؤسف ان يكون كاثوليكيا ،

وفوق ذلك انكليزيا ، من عثر على هذه العبارة ، تشارلز مورغان ، بالرغم من ان الواقعة تشهد لصالح المسيحيين ، واقعة ان المسيحيين يستطيعون ان يطرحوا على انفسهم قضية مماثلة ، وهو ما يجعلهم بالنسبة الينا اخويين)، فان لحظة السعادة او الحقيقة هي اللحظة المفارقة التي نستطيع فيها ان نمارس ملكاتنا الحيوية لصالح القيم التي نضحي من اجلها بحياتنا المادية ، عند الحاجة . مفارقة ودائرة مفرغة مناسبة : ان عليّ لاحقق هذه القيم المفضّلة على حياتي ان اعيش ، والا فانها ستفلت مني . لكي اعرف لحظات السعادة هذه النادرة ، هذه الشرارات من النشاط التي ليس فيها بعد شيء فائض عن اللزوم والتي يمتص فيها الوجود كما هو نفسه فجأة بلا خسائر ولا نفايات في الوجود كما ينبغي ان يكون ، حيث تصبح جميع الاجزاء الميتة ، البطن والاحشاء والارتباكات والهموم والوان التعب والتخلي والترهل ، قابلة للاحتراق ، وحيث تغذي النار وتستنفد قواها وهي تفرقع ، فتصبح نورا وحرارة وعملا ، لحظات ينتقل فيها ما يصنع ضعفنا عادة الى خدمة قوتنا التصعيدية ــ لكي اعرف هذه اللحظات ، يجب ان اعاني الوحل اليومي . دائرة مفرغة مناسبة اكثر مما ينبغي .

ان الدقيقة السعيدة ، او دقيقة الحقيقة ، هي التي تصالح المثال مع المعاش ، الخيالي مع الواقعي ، التخفيف الجذل للصورة مع الكثافة التي تشدّنا عادة الى انفسنا ، الغرابة الساحرة لدى الذين يرتسمون في البعيد مع مخالطة الذين يعاشَرون عن قرب ، بين اللحم والجلد ، في جميع الايام منذ يوم مولدهم . ان الشقاء ، يعني الامر

المألوف في الحياة ، هو ان يجد المرء نفسه مرتبكا مع الخيالي (ان نقص الكينونة او قدرة التحرّك = شقاء ،على طريقة سبينوزا) .

ان الذين يتحدث عنهم الناس ، اولئك المجهولون المشهورون ، واولئك الذين نحبهم او نخشاهم ، الاصدقاء الفائبون ، جميع الكواكب التي تخصنا ، والكواكب التابعة اللاملوّنة ، تلمع كالنجوم . ذلك انهم ، على غرار مخلوقات الفن ، يعيشون من اجلنا دائما بذروة كينونتهم ، ناشطين بلا انقطاع ، في تساوق متصل مع ما يكوّن في نظرنا فرديتهم ، قيمتهم الفريدة (هذه الطريقة في التحدث والابتسام وتلك المشية والقامة والعادة ولون الشعر) . ولان الآخرين يعيشون في الخيالي ، فان لهم من الحقيقة اكثر الف مرة مما لنا من الحقيقة من اجل انفسنا .

ان السينما الكبيرة والرواية الكلاسيكية الكبيرة لا توفران اي انفراج ، بل على العكس ، توفران تجربة كثافة لا حقّ لنا بها . انهما تشدان ثانية خيوط لحمتنا ، تلك الخيوط التي ترتخي في الحياة « العادية » بصيغة المتكلم الفرد . انهما تقتطعان (بضرورة تقنية ، فلا يمكن قول كل شيء ولا تصوير كل شيء في زمن لا متناه) اللحظات ذات المغزى ، وتقطعان المدد الحيوانية،البيولوجية — فان الانسان لا يصوّر في اثناء نومه ، فما عسى تنفع هذه الساعات الثماني من الجمود التي لا يجري فيها شيء ، بالنسبة اليه ؟ من اجل هذا ، يصبح كل وجه خيالي كائنا استثنائيا ، حتى ولو كان وجه حارس بناية . ومن هنا، مصدر شعور الذل المبهم لدى المشاهدين في السينما حين

يعودون الى ضوء النهار . ان الحياة تحدث « توقفا »لدى الخروج من القاعات المظلمة . فالزمن يتراخى ، وتفقد الكائنات حدودها ، فتصبح بلا شكل ، لا متناهية ، وغير مرغّبة .

شكرا ، رفاق !

لعلك لن تفهم الا يهتمّ بك احد في الخارج ، ولكن الواقع انك تجد اكثر استعصاء على الفهم جميع علامات التضامن هذه ، ومساعي المجهولين تلك . ما عساك تكون بالنسبة للبوليفيين ، ذلك هو السؤال الذي تخيفك قليلا الاجوبة التي ترد عليه هنا في هذه اللحظة ، لانك تعرف ان لا بد ان يصحب هذا السؤال السؤال المعكوس: وما عسى البوليفيين ان يكونوا بالنسبة اليك ؟ — ولست متأكدا كثيرا من الاجوبة التي ينبغي ان ترد عليه. وعلى اي حال، فأن يتحمل هذا العدد الكبير من الرفاق مشقة اخراجك من هنا، مشقة مساعدة عجل(*) مثلك (هم لا يعرفون ، اما انت فتعرف) فذلك ما يبلبلك . فاما انهم ضحايا احتيال او خطأ كبير، اذ ينشغلون بك، واما ان يكون قسط هام من التضامن السياسي متعلقا بالاحتيال او بالخطأ الكبير ، اذ يبرز ان الذين « يَشغل بهم » هم بالحقيقة عجول . ان هذا في الحالتين يدعو الى التأمّل .

(*) المعنى المجازي «للعجل» بالفرنسية ،هو الكسول البليد (هـ.م).

« التعرّف بالآثار » . لماذا يعرف المرء جاره خيرا من نفسه ، ولماذا يعرفنـا الجار خيرا ممـا نستطيع نحـن ان نفعل ؟ لان كل فـرد هو بالنسبة لنفسه ملتحـم بالوسط وغير مرئيّ عند الاطراف ، متماسك في الداخل ، متناثـر ودقيق في الخارج . ان المرء لا يستطيع ان يكشف آثـاره الخاصة : الرائحة ، الايمائيات ، الكلام ، الاشياء التي يحيط بهـا نفسه ، الحركات او النظرات التي تفلت . ان تعبيراتنا تبدو لنـا لا مبالية ، قابلة للانعكاس ، فيوضا انتقالية ممكنة النقض لجوهر وحقيقة مكتسبة ونواة خام اعطيت لنا مـرة والى الابد ، استقرارا لا يمكـن ان يضعه احد موضـع السؤال : ان شخصيتنا الحميمة هي « قَبليّتنا » ، الفرضية الاساسيـة . اما لدى الآخر ، فالنواة هي التـي لا تُرى ، وليس لنا تجاهها اي يقين ، فهي تبدو اشبه بسؤال مطروح، مسألـة للحلّ ، فراغ للملء . وليس لنـا لملء هذا الغيـاب وتحديده ، ولاخراج الكنز ، وسيلة الا تشمم آثاره ، ومراقبة هذه الآثار كمـا تبدو ، واتباع الدرب . انه الطريق الصالح. ان المرء يربح لانه ينطلق في الظلام ، مجردا ، وبلا يقين .

ان مجهولا يعـود فجأة الى منزلي ، هو غائب ينبغـي تحديده ، وتحقيق هوية آثاره وكلامه وطريقة ملبسه وقيامه. حتى اذا كـان هنا ، بديهيـة كثيفـة ومظلمـة ، فسيكون لطخة مظلمة . والحال اننـا دائما هنا ، من سوء حظنا . فمن المستحيـل ان نتغيب ، ان نذهب فنتنزّه في مكـان آخر . ولانني بالنسبة لنفسي حضور بديهي ، فاني اظل فـي نظر

نفسي سرا . ولاني اعتبر نفسي تلقائيـا موضوع ما افعل ، صاحب « حياتي » ، لا افهم شيئا مما افعل ، وتشكّل حياتي الحاضرة والماضيـة في نظر نفسي طلسما عويصا .

واذ اعتمد على هذه الماهيـة البديهيـة ، واذ احتفظ لنفسي بالبسمة الصغيرة الماكرة ، بسمة من اتخذ ضماناته وهو يعرف ما عسى يحدث بعد ذلك ، فانني لا استطيع ، في آخر المطاف،ان اماهـي (اي ان اسمّي واصنف وألبس بالكلمة الصحيحة) قسمات طبعي الاشدّ الفـة ، والاكثـر بروزا ، تلك التي يعرفهـا جار السلّم عـن كثب . وليس يجدي كذلك ان انظر الى نفسي او افاجيء نفسي في مرآة: فاني اسحب نسخـة ثانية من الوان يقيني المزيفـة ، ولا اشرح نفسي لنفسـي .

واذن ، فان الآخر هو بالنسبة اليك غياب ثمين . فاذا حرثت صحبته ، واذا عاشرت باستمرار نقاط الاستفهام هذه الاعجازيـة ، واذا لـم تخش ان تمد رأسك اولا في هـذه الآبار ، فبوسعك ان ترى ذات يوم صديقا قديمـا ينبثق على غير انتظار ، ذلك الطيف الغريب الشبيه بالشريك المتواطيء الذي لا تعرف منه عمليـا غير الاسم واللقب وتاريخ الولادة، وليس من شيء آخـر .

انك تقرأ على شفاههم ما كنت تود ان تقوله . وقبل ان يفتحوا فمهم ، لم تكـن تجد كلماتك .

انهم ينطقون عوضا عنك . ومدهش كم يستطيعون ان يتكلموا صائبيـن . انك ترى في اعينهم ما كانت عيناك انت تنظران دون ان تريا منذ سنوات .

ان مــن يخسر نفسه يربحها . اذا كنت تبحث عــن نفسك ، وما ابأسه من بحث، فتوجه اليهم، وغب عن النظر، فستقع على لقى عظيمة بالاستماع اليهــم ، وبمصاحبتهم ، وبانتظارهم .

انهم يملكون جميع المفاتيح ، ويحملون الكلمات الصائبة التــي ستحررك وستخلصك من جميع ادعاءاتك الطفوليــة اذ تحدّدك ، اذ « تسمّيك » فحسب . هذا كل شيء . كلمات من لا شيء ، كلمات مستعملة ، كلمات كل يوم التي لن تجدها ابــدا وحــدك .

لا تبحث عن المصاعب حيث لا مصاعب . اسألهم فقط عن المفاتيح . فاذا بدوت مثابرا ، مخلصا ،متيقظا ، خدومــا، امينا ، اخويا ، فسينتهي بهم الامر الى ان يعطوك المفاتيح .

انهم يضيئونك من امام . فما ان يمضوا ، حتى يكــون الليــل . ومنذ ان خلّفوك ، قبل اشهر ، وراءهم ، وانــت تتلمّس في الفراغ . وحين يعودون ، ينفتح الباب ، ويعود النهار ، وانت تنتظرهم هذا النهار فيمــا انت تكتب هــذا في الظــلام لتخدع انتظــارك .

ان الكلمة لهم ، ولك انت الهذر والحشو .

الكلمة لهم هم ــ خدم المطاعم ، مراقبــي الباصات، المتسكعين ، المارة ، جيران الطعام ، الاصدقاء ، المهاجمين ، المجهولين ، الصحفيين،اطفال حديقة اللكمسبورغ ، عمّــال المرفأ القديم ، نساء ضائعــات وعائدات ، مناضلين غفــل الاسماء ، مرصودين مستقبلا للقتل ، محادثين مجانيّين ، وسطاء ثوريين ، مهرّبي اخوة على الحدود ، مستضيفين ، وجوه تلمح في الليل ، اخوة ماضين ومقبلين ، رفاق واصدقاء

كمـا يصفهم في بدء الاذاعـة راديو بكيـن او راديو هافانا . . المعاصرين ، المتطوّعين طـوال الوقت ، الاشداء ، ذوي الكتلة الواحـدة ، الاحياء الذين لا يكتبـون شيئـا ويصلحـون لشـيء مـا .

اما انت ، الركام الفازيّ الذي لا طعم له ولا يصلح لشيء وليس على يقين من انه يعيش ، الكاتب الرديء المشتاق الـى نسخة ، فليس لك في هذه اللحظة ما تفعله معهـم ، وليس لديك اذن مـا تقوله وانت مع ذلك لا تفرغ من قوله ، منـذ ثلاثة اعوام ، على نحـو مبهم وباطل .

بل ليس لك احد تتحدث معه . أحد ، هو اكثر جدا من ظلك . حيـن تحاول ان تنشطر ليكون لك صاحب ، فأنت تضاعف الضجر والنفور ضعفين ، وذلك لا يُصلح شيئـا .

ان الكلمـات ـ الـدروب لا تُتعلّم ، فهـي تنبثـق بالاتفاق عند الاتصال بالآخرين ، عند منعطف كتاب ، جريـدة لافتة ، مزحة ، لا علاقة لها اطلاقـا مع مـا نبحث عنـه ، مع المجهول الذي يقلقنا غياب اوصافه منذ فترة مـن الزمن ، المجهول الذي كـان على طرف لساننا والذي كـان يتهرب من الكلمـات وهو يوحي لنـا بضيق مبلبل .

ولان المرايا لا تحتمل مفاجئات ولا مصادفات ، ولاننـا نعرف سلفـا من ذا الذي ينتظرنـا على المرآة حين نذهب لننحني فوقها ، فهي لا تقدّم لنـا الا شقة لحم فظّة ومظلمة ـ وجهنا . وبالاضافة الى ذلك ، فان كل امر هام يجري عبر العالم يبرز على طول الجدران العمياء . ان كل مـا يأتـي ليقلب ترتيبا ثابتا ومعتبرا مكسوبا ، ويحـرك حمأ القعر ، ويمزّق السطوح الناعمة ـ من الوان القتل والعشق والجنون

والاحداث والولادات ، الخ ـ انمـا ينبثق في ظهرنا ويبغتنا من خلف . ان الكلمـات المرصودة لنـا قبل سواها انما تنطلق وكأنهـا لا تخاطب شخصا معينا ، انمـا يوجهـهـا مجهولون الى آخريـن سوانـا . والاحداث التي تعنينا عن كثب انمـا تقع في الاروقة ، بينمـا نكرّس انفسنا على المسرح لتسليـة المتفرجين وتسليـة انفسنا .

كلمة بالمصادفة ، ولكن ليس ثمة من مصادفة ، ليس من لقاء لا يكـون موعدا ، وليس من مارّ في الشارع لا يرسـل لك اشارات تواطؤ ، حتى ولو لـم يكـن ذلك الا بعـد ان تستطيع فهمها وتعرّفها ، حتى ولو كان متسكعـو « مالت لوريدس بريغ » ذكرى ادبيـة : فانك لن تتذكرهم لو تـم ينطـق « ريلكه » بالحقيقـة . كنت تشتهي شمامة من غير ان تعرف ذلك ، فهذه هي بائعـة بطيخ . وكنت تفكر بالجدي، فاذا بك تسمع جرس قطيع يمرّ في الشارع . وتفكر بصديق، فتأتيك رسالة على التوّ . وبشعار اعلاني ، فتمر بالسيارة امام لافتة تؤكـد لـك ان « ووندر » لا يبلى الا بالاستعمال . ان الاحياء والاموات يرسلون بلا انقطاع اكثر رسائلك سرّية، ولكـن على نحـو سخيف ونزوي ، بتبديل الرموز واطوال الموجات . ومهما فعلت فأنت موصول بهم جميعـا ، وانت باق على الاصغاء حتى حين لا تريد ان تسمع شيئا ، تتلقـى منهم مـا ينبغي لك ان تقوله . وأنت لا تفهم دائمـا ، فالرموز تفوتك ، وتقرأ الرسائل تـفـا بالوسائل الممكنة ، ولكنك لن تكـون ابدا اصمّ بما فيه الكفايـة بحيث لا تشعر بانهـم ينقلون الرسائل اتفاقا ، كما يبدو عليهم ذلك . ان بلاداتك يعرفونهـا خيرا منـك . جمّع كل هذه الارسالات التي تصلك

عبر العينين والاذنين ، في كل ساعــة من النهار ، دلّ عليها، جد التركيب المخبأ ، وسيكون لك مصطلحك ، اللغة التــي ستسعى عبثا الى تأليفها بواسطة «لاروس» صغير . ان رجلا يموت على بعــد عشرة آلاف كيلومتر من هنا ، هو رسالة . والنظرة التي ترميك بهــا مجهولة ، وقهقهة في الغرفـــة المجاورة ، واللازمة التي يدندن بها الحارس ، والنشرة السرية التي تنتقل الى يدك ـ كلهــا تبليغات اخرى ، تتف للتركيب. ان مــا ينبغي ان ترسله ، ينبغي لــك اولا ان تتلقاه . ومــا ينبغي ان تتلقّاه ، لا بد لــك غالبا من ان تحتجزه . واذن ، فليس ثمة من تكاسل . جميع الهوائيات منصوبة باللـــون الاحمر . ان مصيبتك الحالية ، اللامعقولة الآن ، تأتي من انك لا تتلقى ولا تحتجز شيئا منذ ثلاثة اعوام ـ فالجبناء يحتجزون حتى رسائلك ويتلقونهــا بدلا عنك ! ومن هنا الجفاف . فاذا فُصل التيار عنك ، فليس عندك ما تبثه . لانك تكون مقطوعا عن الاحياء . على انك تستطيع بعدُ القراءة ، فلديك كتب ، وزهاء خمسين مرمدة مأتمية ، متوازيات سطوح تستريــح فيهــا علامــات مطفأة للقراءة والانعاش . انك اذن ترســل شيئا ثقافيا ، كتبيا ، بتشبّع جنائزي يسبب لك الغثيــان .

ان كلمة بريئة تحدث الفجوة فــي الديكــور ، تمزّق قماشة الخلفية ، تقسرك على ان تولــي الجمهــور ظهــرك ، وتسائمك فتحــة على المستقبل . ولكن المستقبل كان فــي الخلف ، في ظهرك . ان الكلمة المفتاح ، الكلمــة الفصّــال هي دائما تذكير ، تأبُّه . ان مجهولا ما اذ يلمس بكلمة مــا ، ومن غير ان يعرف ، نقطــة مــا حساسة من شخصيتنا ، يشفينا . وذلك يؤلم في اللحظــة نفسها ، يجرح الكبرياء،

بل لعلّ ذلك ان يُطلق نوبة غضب ، هجوما معاكسا ، ولكنه الالم الذي يحدثه الكحول بدرجة التسعين على الجرح ،وفي ذلك فأل خير . مثال ذلك ، حين تقرأ في مستهل ملاحظة عن «سانت ـ بوف» انه كان ، علىغرار جميع العقول النقدية المجرّدة من قوة الخلق ، يعاني من تقلبه ومن عدم استقراره ،الخ . ومثال اكثر خطورة ،هو حين يأتي اول سخيف ليكتب في اول كتاب محلي رديء ، بصدد « شي غيفارا » ان الثورة لا تُصدّر ، كما يعلم الجميع ، الخ .

صوت الفصّال : كان هذا آذن . امر في غاية الغباوة . صبياني . كان على طرف لسانك هذه الكلمة الاولى من كتاب الالفباء . كنت تدور حولها ،وكنت تحترق . حتى ليظن المرء ان بديهيات كتاب الالفباء تختبيء في قعر الذاكرة ،وانها مشدودة فيما بينها بالرصاص ، وانها لا تصعد بسهولة الى السطح . وما كان لك ان تعثر على هذا وحدك ، لانه كان ابسط الاشياء . ان اية كلمة نادرة ، اية كلمة عالمة لم ترعشك كما ارعشتك هذه ، ولم تخلّف ما خلفته من دوار طفيف . « لغة قاعديّة » : ان جميع اسرار حياتك توجد مكشوفة فيكتاب فرنسي تجاري موجز لوكلاء متجولين اجانب، يرغبون في ان يتعلموا خلال ثمانية ايام قدرا كافيا من اللغة السداسية ليتدبروا امورهم التجارية .وفي نهاية المطاف ، لا يكون مصطلحك التعبيري الا اقليما صغيرا من هذه اللغة المشتركة ، وجميع اسرارك الحميمة تتحدث الفرنسية . غريب انت عن نفسك ،وفي الغربة عشت اطول مما ينبغي ، في الغربة اخذوك وسجنوك. ولكنك عبر ذلك كله لا تسعى الا الى العودة للوطن . الى بيتالاسرة، الى

المدرسة . الى انفباء احلامك الطفولية المعصومة عن الخطأ . ولن تجد في الجانب الاسباني او الانكليزي ما تمزّق به الديكور وترفع الاستار . يجب ان تعود الى شعبك ، الى لغته اليومية ، تلك التي تصلح لسائقي الشاحنات ليضجوا بها وهم ينقلون سلال الصيد الى « الهال » ، وللعشاق ليتكاتبوا بها حين يتباعدون او تفصلهم حرب او رحيل او خدمة عسكرية ، ولمدبرات المنازل في حي « باب الفانف » ليتبادلن بها التحية ، ولآباء الاسر ليرووا في المساء لاطفالهم قصة « بلانش نيج » . ان هؤلاء هم الذين يملكون مفاتيحك .

اذا لم تكن الثورة دينا ، عند ذاك ..

بعبارات مجردة ، وبالتالي سخيفة ، فان القضية الوحيدة الكبرى التي يصطدم (او ينسحق) عندها كل من التقى او يلتقي يوميا او سيلتقي ذات يوم معضلة ان يعيش او ان يموت ، يمكن ان تتحدد كما يلي :

ان المرء ثوري لانه يحب الحياة ، ولانه يحب الحياة يتعرّض طوعا للموت . وارومة المادية التاريخية تقوم على رفض كل ايمان بتسام خلقي او ميتافيزيقي . اننا نجد من « ابيقور » حتى « لوكريس » ، ومن « غولياردس » حتى « جان دومونغ » و من « رواية الوردة » حتى « غارغانتوا » ، ومن « ديدرو » حتى « رستيف » ومن « زولا » حتى « رينوار » ـ نجد الوريد الديموقراطي ، الفوضوي ، المتفائل والطبيعويّ الذي يميّز الغرب . كثافة

الاجسام ، سحر النور ، حس السعادة ، تمجيد الاشكال والمظهر والجسد والطبيعة (وكلها تفترض حرية الاخلاق التي لا تنفصل عن حرية الفكر) . اسرة كبيرة في صراع دائم مع كواشف اللاحياة : التقشّف المسيحي ، تراجع الزواجر، تشاؤمية امثال سان برنارد ، مع احتقاره للجسد وللاحساس وللارضي . هذه المثالية الكاشفة والرجعية ، نرفضها لاكثر من سبب : باسم العلم ، في وجه الوهم الايديولوجي ، وباسم العالم الواقعي في وجه الخيال الديني، وباسم التقدم التاريخي في وجه الانغماس في «الابدي» . ولكننا اولا وقبل كل شيء ، نرفضه « غريزيا » وباسم الغريزة ، وهي طريقة مادية للقبض على الحياة .

ان الدين (سواء اتخذ شكل الجسد - القبر لدى اليونان او التناسخ لدى الهندوس او النيرفانا البوذية او الجنة المسيحية) هو معين على الموت . واذن، فان الديني مثبت بجسم الحيوان الوحيد الذي يعرف انه سيموت ، ونظرية لاهوتية هي وحدها التي تستطيع تبرير اخلاقية للتضحية . فكيف يمكن تأسيس اخلاقية من هذا الطراز يتطلبها الصراع الثوري ، على اخلاقية للسعادة يتطلبها كل شيء آخر ؟ حين يموت انسان مادي ، فهو يموت كليا . واذا كان من سوء حظه ان يكون واضحا واعيا ، فهو يعلم مقدما انه محكوم بالعدم حتى بين اهله واصدقائه ، لان التاريخ بلا ذاكرة ، وهو يعلم ان انطلاقة الحياة ستنبثق مرة اخرى غدا على عذابه المخبأ . ولكي ينمو البشر في سلام ، وفي ثقة بالانسان وبالارض ، ولكن تُنقذ السعادة ، فيجب ان يطرد منها كل يوم الشقاء والحرب - على غرار مجتمع

يحجب عن نظر الجمهور مرضاه وممسوخيه ويحبسهم في الظلام : المستشفيات والمصحات والسجون والمنشآت المتخصصة ، حتى لا يراهم بعد .

ان الفاشية هي المرحلة القصوى من المثالية الارتكاسية (بالرغم من زيناتها النيتشوية) . ان صرختها العميقة هي صرخة « ميلان استراي » في « سالامانك » : « فليحي الموت ! » وفيها وفق الى ايجاد نظرية متجانسة مع تطبيقه . انه حين يُعدم اعداءه ، يطبّق قيمه ، بلا طلاق ولا تناقض حميم . اما نحن ، فنشعر ان « الباسيوناريا » — لا شك في ان اسبانيا تذهب الى عمق الاشياء ، في الاتجاهين — قد اصابت الهدف بشعارها « الافضل ان يموت المرء واقفا من ان يعيش راكعا » . ولكن لنتذكر آخر كلمات « مارسيل رايمان » الشيوعي في وجه النازيين « فلتحيى الحياة ! » .

ان حس" الكرامة هذا قيمة اعتباطية تماما في نظر العالِم . حتى وان كنا نعرف ان ليس ثمة مجتمع بلا رباط ايديولوجي ولا اخلاقية عامة او خاصة ، ولا مجموعة من التركيبات الخيالية المسماة « عقائد » ، فنحن نعرف ايضا وهن هذه التشكيلات الايديولوجية . ان مثل التوسر وغرامشكي ، ومثل علموي" وتاريخوي" ، لاسباب متعارضة ، يلتقيان مع ذلك في انهما لا يستطيعان ان يحملا على محمل الجد" هذه الوقائع الثقافية ، هذه البنى الفوقية . **هلْ يستطيع المرء ، اذا كان « التوسريا » ان يموت من اجل** لا معرفة،من اجل تمثّل غير ملائم لعلاقات الانتاج الاجتماعية؟

واذا كان « غرامشكيا » ، هل يستطيع ان يموت من اجل نسبي ، قيمة انتقالية ، غد باطل ؟ ومع ذلك ، فان الجميع من الجانبين يموتون كما ينبغي تماما . واذن ؟

واذن ، لئن كان اختيار الموت الطوعي هو دائما غير معقول، فيجب اصطناع سبب غير معقول . ونحن العقلانيين في النظرية ، لا بد انا صوفيون ، لا لشيء الا لنضع تطبيقنا على مستوى نظريتنا . فليقع العقل في حياتنا تحت شكل غير معقول ! ان يعيش الناس عقلانيين ويموتوا مؤمنين: تناقض عجيب بالنسبة للذين يأتون من قارة تنحط كأوروبا ويعيشون انحطاطهم بلا تعلة . ان انبثاق الانفصال ،وانفكاك الوجود الفردي عن الاسطورة الجماعية ، والالتحام الشخصي وموضوعه ــ وبالاختصار ، نهاية الانسجام ــ هي التي وضعت هذا التناقض على جدول الاعمال . ولكن هذه مكتسبات لا تنعكس ، فنحن لا نستطيع ان ننكرها . لا نستطيع ان ننكر الا انطلاقا منها . ان هذا الطلاق هو مسقط رأسنا ، ففيه اذن ينبغي ان نموت ــ حتى ولو كان لا بد من ان يحدث ذلك في المنفى ، بعيدا جدا ، بين مؤمنين منسجمين يلتصقون بموتهم التصاقهم بحياتهم .

اذا كفت الاسطورة ــ سواء كانت « الآخرة » او« حس التاريخ » او « الافتداء » ــ عن ان تكون رسولا وما يشبه الجاذبية الارضية وثقل الحياة ، فان المرء يوشك ان يحطم رأسه ، الا ان يخترع اسطورة ملازمة . ان علينا ان نخترع دينا بلا تسام ، او « تساميا للحالي » اذا لم يكن في هذه الكلمات تنافر مفرط . تسام قائم ليس بعد على

حسّ التاريخ (كما لو ان ثمة « تاريخا » شاملا او «تاريخا» وحيدا للجميع !) بل على مغزى كل عمل من اعمالنا ، بتواضع . ينبغي للمرء ان يناضل ما وسعه ذلك ليفهم فهما شموليا التطور التاريخي ، من غير ان يخشى التعرّض للتفتّت والانفجار والانكسار . ان علينا ان نعيد اختراع « الاصلاح »: فكّر دائما بنفسك ، من غير وسطاء ، وبلا ايقونات ، ومن غير جمع راكع حولك . احمل حياتك على ذراعك ، ولا تخضع الا لالهك الداخليّ ، وليس ثمة ما هو مؤكد ابدا . ولكن من عساه يكون شجاعا الى هذا الحدّ ليناضل في مثل هذا العَوز ؟

مرحى لوثر !

ان ما لا تدمجه سوف يفتّتك في النهاية . تلك كانت مهارة « لوثر » الكبيرة . فلقد رأى الكنيسة الرومانية على وشك ان تتحلّل في الدعارة والفساد .. ورأى التجارة بصكوك الغفران . ولكي يحبط سلطان الجنس والمال ، اباح هو نفسه للبروتستانت ان يمارسوا الربا ، ببضعة شروط ، وللقسس أن يتزوّجوا رسميا ، وذلك نموذج للسياسة الحكيمة ، وذلك هو السبب في ان البروتستانتية تتمتع ،منذ اربعة قرون ، بصحة جيدة .

الامبراطور يعبث

جنون بونابرتي دوريّ : سمة من سمات الشخصية، ولكنها كذلك سمة سياسية . انه اغراء العدم ، دوريّ

كالموجة ــ رغبة في التخلّي عن كل شيء ، وان يُقال لكل شيء « طز ! »، وان ينسحب المرء في صمت . وذلك بديهي لدى « ديغول » . ان الطموح بمقدار ما يهدف الى انعلاء ، يسقط الى الاسفل . وهذه الالوان من الضعف والخور هي التي تضفي على المطامح الكبرى نبلها ، وتجعلها ، على هذا النحو ، قادرة على احتقار نفسها وعلى التجرّدمن نفسها احيانا . ان اسوأ ما يتصف به الوصولي ليس انه يطير على مستوى منخفض ،بل انه يقوم بذلك باستمرار . انعدام الهدنة او الراحة في حفلة مطاردة المراكز والمهن و« الوضع » ، لا بدّ ان ينتهي باستنفاد قوى المسكين الذي هو طريدة اكثر مما هو صياد . ان الوان الضعف البونابارتية، تلك الانغمارات الموقتة في تساؤلات « ما جدوى ذلك ؟ » تراكم القوّة وتجمّع الطاقة لدى السياسي الكبير : فهي تسمح له ان يقفز ثانية ، وهو يتخذ فيها استعداده ، فيعود الى العمل ، مبلّلا ومجدّدا . واذ اعتاد نابوليون السلطة ، فقد فقد فيها حماسته تدريجيا ، وفقد مع الحماسة القوة والضراوة في الدفاع عنها كما اكتسبها . كان هو الامبراطور يمارس السياسة بمضاجعة ماري ــ لويز : كان يوهن قواه ، بسبب من انعدام المناوبة . ويمارس السياسة كذلك وهو يملي مراسيمه ونشراته . ولكن النقيب بونابرت كان يعبث ويتلّهى وهو يؤلف « كليون واوجيني » او « القناع النبيّ » . وقد مثلّت « ديزيريه كلاري » ، او « جوزفين » فيما بعد ، النسيان والاغراء والغطس في البعيد ــ فكان ثمة مجال لان يبرز من جديد وهو اقوى . كتب بونابرت من « اتكون » يوم ١٠ شباط ، الى جوزفين

يقول : « لم أحسّ قط بمثل الضجر الذي احسسته في هذه الحرب البشعة » . وحين خطب « ديزيريه » ، عام ٩٤، طلب الى « بوريين » : « ابحث لي عن مُلك صغير في وادي « ايون » الصغير الذي تملكه . سأشتريه حين اجد مالا . انني اريد ان اعتزل فيه » . انه يحسن القبض على الاغراء الندبيّ او الرعوي كمركّب للقوة ، وكغذاء للسيطرة ، وكدعامة للنشاط . ان النقيضة تلتصق بالدعوى بكل ما في اختلافهما من قوة — كل الطاقة التخالفيّة التي يستطيع ان يطلقها زوج متعارض . لكي نعيش سعداء ، فلنعش مختبئين ، أليس كذلك ياجنرال ؟ انه ما كان له ان يشعر بهذا الميل الى « اوسيان » والى الخراف والاغنيات ، ولا ان يشعر بهذه الضراوة للعودة ثانية الى رائحة جوزفين المتروكة في باريس ، لو لم يكن متعجلا على هذا النحو لربح معارك ايطاليا والفراغ منها .

وعلى غرار سفاهات « سانت جوست » المراهق ، استطاعت اندفاعات بونابرت الصغير وحبوطاته ان تلعب دورها كذلك بصفتها امتحان اجتياز وتعزيما محرّرا . فهي بتصنّعها الاستسلام لشيطانها المعاكس والخضوع لاغرائها السرّي ، تتعزّى مرة والى الابد ، وتتخلّص دفعة واحدة من الوسواس المخجل . ان كوخ القشّ في الريف ، والكآبة عند ركن الموقد مع المحبوبة وكثير من الاطفال والايرادات والجلاجل — ان ما لا يتصف بأية صفة مجيدة يمكن ان يدعم حلما بالمجد ، كما يدعم الليل النهار ، والنوم اليقظة . وهكذا يحمي التصريف المسبّق ، حين ينطلق ، من كل عودة للمكبوت .

ان المزاج ، لدى كل بونابرتي ، يترك صداه في السياسي ، ما دام غير مرتبط بايديولوجية وبطبقة اجتماعية معينة وبتنظيم خاص . ان الحزب يضفي على السلوك استمرارية ويقينية رتيبة ونوعا من وحدة الاسلوب واللهجة والتصرف لا يستطيع ان يدركها من يريد ان يضع نفسه فوق الاحزاب والمنشآت والمصالح الطبقية . والميزة الكبرى لمنشأة او منظمة جماعية هي انها لا تتوقف على ارتفاعات فرد أو انخفاضاته ، ولا على حياة رجل واحد . وان عليها ان تتماسك في الحياة متجاوزة جميع هذه الاحداث العارضة ، وهذه الحيوات الخاصة . وان تحتفظ بسرعة الرحلة على مستوى ثابت يسمح بالمضي بعيدا عبر المد والجزر وضروب الجموح والعواصف والاحباط . ان المدى الطويل هو حسنة الحزب الفريدة . اما الباقي ، فيشكل الفقاعة التي تأتي فتنفجر على السطح بلحظة ، بعد عام او عشرة : مغامرون ، ثوريون ، بورجوازيون صغار حانقون ، الخ . اما السيئة في هذه الحسنة : فهي قائمة الحساب للدفع . . ويستطيع المرء ان يتصور انها ثقيلة .

ان ما ينبغي كبحه هو السعادة ــ ولكنها في نهاية المطاف سعادة دون سعادة النضال. ان الحب البريء تتجاوزه غريزيا متعة أقوى تدفع ضريبتها فورا : المشاجرة .

الى مفاتيحك ، ايها القفال !

طوال ثلاثين عاما ، جعلتك اسماء نكرة تتعثر . لقد منعك نقص في مفردات اللغة من ان تتصرف ببصيرة ، من

ان تكون ما انت . لكي تعيش على نحو صحيح ، جدْ الآن الكلمـة الصحيحـة . واذا اردت ان تعيش في الاستثناء، فأخضع كبرياءك لجميع تفاهات الاقوال التي سُبقت اليها. لست كجميع الناس الا نقطة تقاطع بيـن اسماء نوع وصفات جنس . اقطع ، قلّص ، طوّق . أطّر حياتك ، ضعهـا علـى ارضيّـة اللغـة الفرنسية . فليس في احاسيسك اكثر مما في المعجم . « انت ؟ اكثر الكائنات فرادة ؟» دعني اضحك، ايهـا الجنس الدون ، النوع الاكثر ابتذالا : اليس ثمـــة الا كائنـات فريدة ؟ ولكـن لكي نعرف مـا يتفردون به،ليس لنـا من وسيلة اخرى غير وضعهم في انواع عامة ، وغيـر تصنيفهم ، بمقارنات ومقاربـات متتالية ، تحت كلمـات ـــ تصـوّرات .

كنت تحاول ان تتعزّى من ضيق ينتابك ، وانت فـي السنة الاولى بدار المعلميـن في « اولم » ، فقال لك المبـرّز المعيد : « انت تتحدث دائمـا عن « التصوّر » ، ولكن ما هو « التصوّر » في حقيقة الامر ؟ فأجبته : ـــ الم تقرأ «كانت»؟ قال ـــ هيه .. بانحراف .. قلت : « بيغريف » ، بالالمانية » قلتهـا بالتشديد على « الغين » من جوف حلقك . وردّد هو : « بيغريف ، بيغريف » وكان يفتح كفّه ويغلقهـا ببعض التشنّج . كان اشبه بملقط عقرب ، حتى انـك احسست بضيق ان ترى « التصوّر » يُغلق كماشاته القشرويّة علـى طرائده الشاذّة . ولما لـم يكـن العقرب المذكور مفرطـــا بالرقة ، فهنـاك دائما اضرار في الداخل : غضاريف محطّمة، نزيف داخلي ، بعض المزايـا الثانوية المتواضعة وعدد مـن

التفاصيل الفردية المخفيّة . وتجاه الحركات المختلفة والانفعالات واضطرابات القلب والشارع ، فان قوى المنطق تضغط كقوى النظام . فاذا اريد ادخال النظام الى سوق العالم الحسّاس ، الخام ، فلا يمكن اظهار حساسيةمفرطة . ان هذا هو الجانب الشّرطي من التجريد ، عربة التصوّر السجنيّة .

انك تعرف من ذلك اكثر قليلا مما كنت تعرف عام ١٩٦١ ، ولكن سرّ « العقل الاول » لم ين يقلقك او ينفرّك . (لو انك ولدت في « بروفانس » وكنت تستطيع ان تكتب صفحة واحدة ك « جيونو » ، ولو كنت تعرف ان تميّز بالرائحة ، وانت مغمض عينيك ، نبتة الزعتر ، واكليل الجبل ، فلست بحاجة ان تكون « روسويا » وان تتحسّر على الطبيعة الهاربة الضائعة المنزلقة كالحيّة بين اصابع الرموز والاشارات) . وبالاجمال ، فينبغي ان تتدرّب عى ان تسمّي نفسك باسمك ــ القطة قطة . ليس من اليسير ان تعتاد هذه التسميات التي تثبت طبيعتك ، كما يثبت الحشراتي فراشته تحت الزجاج . غُزّ الدبوس في جسمك ،واصطف في مجموعتك ، وفي قدرك ، وفي نوعك . سمّ على الفور افعالك الخاصة لكي تبثّ فيها نظاما ولتعرف ما عساها تشبه ، والى اية اساءات اخرى « تزوّجك » ، اساءات كانت اسماؤها سابقا معروفة لديك ، وفاعلوها محدّدين منذ وقت طويل ، وعواقبها محتملة من قبل الجميع . درس تواضع : ان المرء هو دائما قريب احد ما ، نوع من شيء ما .

ان قراءة الملاحظات في طبعات لينين السوفياتية هي تدريب جيّد . أية نعمة ، هو هذا الجزء الاول من « الاعما المختارة » . ان علم النبات هذا اللطيف والمفترس يجعل اندر الازهار اكثرها ابتذالا . « نيتشه ، فردريك (١٨٤٤ – ١٩٠٠) فيلسوف الماني مثالي ، احد الرواد الايديولوجيين للفاشية » او « آن المدرسة الوضعية ، اذ تضع نفسها فوق المادية والمثالية ، هي في الواقع ضرب من المثالية الذاتية » . وهكذا دواليك . هناك نقطة الضعف عندك . ان موجزات الكتب المعدّة للاغبياء ، على طريقة ستالين – جدانوف ، تزعجك لاسباب جيدة ورديئة . انك لا تستطيع ان تصمّم على الايمان بأن المرء متحرر امام حياة او عمل حين يكون قد صنّفهما ، وثبتهما في نوعهما، ظهرا لظهر مع شقيقاتهما التوائم . انك تتلوّى ضحكا حين ترى المثالية الذاتانية او الانتهازية البورجوازية – الصغيرة توفدان الى هذه الدنيا رجالهما المشطرّين ، سارتر او ليون بلوم ، بيركلي او مارتوف ، كل منهم بقبعته الكسول وعلى ظهره لوحة بيته – الامّ .

تغلّب على غثيانك ولا تترقق . ان هذه السخافات الدوغماتية خطأها انها اذكى من موعوظيها . فهي تمضي باسرع مما ينبغي الى النتائج . ان الفهرس ينطق دفعة واحدة بكلمة التاريخ الدقيقة ، وهو يخطيء في هذا . فحقيقة تسمية ما تكمن في جهدها وسيرورتها وانتاجها الذاتي ، وليس في نتيجتها . ان « جبل المتسلّق الابيض » لا علاقة له بالجبل الذي تضعك حوّامة على قمته . والادراك هو كاليسوعيين : انه يمضي بألف دورة وحيل . وعلى عبثية

الحياة اللذيذة ان تفلق فمها وهي تكتشف في نهايةالمطاف نقطة انطلاقها . ان مشقة الحياة هي في ان يقتل المرء نفسه اذ يكتشف بديهيات عمرها مئات السنين وهي لا تستحق مشقة ان تكرس لها حياة برمتها . ان حكمة العالم كله لا تفعل خيرا من ان تصف الصفحات الوردية لمعجم « لاروس » الصغير او لائحة الامثال المحلية . فليكن. ولكن المرء لن يفلت من حتميّة تغيير التوجيه المدرسي بأن يحفظ هذه الامثال او تلك الصفحات عن ظهر قلب وهو في الخامسة عشرة . وربما كان صحيحا ، بعد كل حساب، ان نيتشه فاشيّ ، وان سارتر نوع من المثالي الديكارتي وان الرسم التجريدي نتيجة طبيعية للانحطاط الغربي . ولكن ما هو يقينيّ ان كل شيء كامن في « ما بعد » — كل شيء .

كان نيتشه في شبابه ، اذا رجعنا الى نصوصه الاولى ، يجهل كل شيء عن التعسّف اللغوي ما دام يكشف في اللغة استعارة تعسّفية تماما للصورة الذهنية التي هي نفسها نسخة من اثارة عصبية اصلية . ان هذه التجريبية العجيبة مفرطة الطيبة . ان الكلمة هي الاولى ،والصورة « الملائمة » هي الثانية . اننا نعرف الخانات الفارغة للغة قبل ان نعرف ما ينبغي ان نضع فيها ، نحن المدرسين ، جِمال الثقافة ، الذين ينطلقون في ما لا يوصف بغزارة كلامية يقف المرء امامها عاجزا . ان جميع دقائق القول متوفرة لنا لدى الخروج من « المدرسة » ،وكل شيء غير قابل للقول . انجيوبنا وافواهنا مليئة بالكلمات الكبيرة

والصغيرة المستمدة من التاريخ ومن النصوص الكبرى، فليس ثمة كلمة تاريخية او لمؤلف مضطجعة على الدفاتر منذ الفجر اليوناني اللاتيني الا ونستطيع ايرادها ، ونحن نتلمّس الاشياء تلمّس العميان في حياتنا ، ونتعثر في ضروب سوء الفهم والاغلاط والهفوات وتوهّم خطأ المعلومات . شأن المديني في عطلة نهاية الاسبوع : نشوات ثرثارة في الخضرة ، مُتع ووجه حفيّ بشوش ، ولكن هناك دائماً ذلك الرعب المعذّب الذي يرافق اسئلته : « ما اسم هذا ؟ » ان جرذ المدن يعرف كلمة « مرّان »، وكلمة « دردار » ،وكلمة « سنط » ، ولكنه يُصاب دائماً بما يشبه الغيبوبة امام الشجرة المعنية . انه يستطيع ان يصنع قصائد بالمرّان او بالسنط ، ولكنه لا يتعرّفها اذا تعثّر بها في الحقول . اننا نعرف نباتات البلد على اطراف الاصابع قبل ان نكون قد قطفنا زهرة لؤلؤ في حفرة ، فنحن علماء نباتيون في المكتبات . وليس اللائحة اصناف السمك من اسرار بعد تجاهنا حين لا نكون قد اصطدنا شبّوطاً في البركة المجاورة . ولقد كان مصنع الاسلحة في « سانت اتيان » يرسل لنا لائحته السنوية ، ولكننا لم نكن نجرؤ على ان نأخذ بارودة طفل من منصّة معرض . وقد خلق « ايلوهيم »، في نهاية الاسبوع ، الزواحف والاسماك ، والطيور والاشجار، ثم جعلها تجري امام عين آدم المندهشة ، وهكذا تلقّى كل مخلوق اسمه . وهذا المنطق التوزيعي ، الذي كان من لطفه ان منح الانسان الاشياء قبل اسمها ، اختفى مع جنة « عدن » . ان « آدم » الذي يقصد المدرسة ، « آدم » حامل البكالوريا يعدو القهقرى . وان المدرس يُحسن المحاكمة

او حلّ المعادلات او كتابة المباحث بثلاثة اقسام . شأنه في ذلك شأن ماركسييّ المدرسة الذين يسلسلون القضايا ويستنتجون بعضها من بعض دون ان يصعقوا انفسهم اطلاقا.

لعب اولاد ، لعب خطرة .

كنت احسن،انا كذلك ، كتابة مباحث جميلة عن المغامرية والانتهازية عبر العصور ، مع استشهادات وامثال تاريخية وتحليلات للجوهر وتركيبات ، وكنت اسرد دراسات عن التصوّر اللينيني « للحظة الحالية » و « الوضع الثوري » و« التسوية » ، الخ ، لانني اعرف نصوصي كالآخرين. كنت العب بزهر النرد او بتعقيد اسلاك لم أكن اعرف انها كانت كهربائية . حتى اليوم الذي احدثت فيه « معرفتي » تماسا او انقطاع تيار مع « فعلي » ، فوقع تفريغ كهربائي جميل بين قدميّ . ويبدو ان الاطفال يتعلمون على هذا النحو الاّ يضعوا بعدُ اصابعهم في مناشب التيّار .

ان يُحاكم المرء امر يسير ، والامر الصعب هو ان« يحكم » على الفور : ان يجد سريعا نقاط التقاطع بين شبكة كلماته وسيولة مسلكه ، بين شبكة اللينينية النظرية وارتجالاته يوما فيوما .

ان المرء لا يعرف ان يُحب ، لانه يطلب من اول فتاة قادمة جميع مزايا البطلة ، ويطلب من اول عملية فسق جميع خصائص « الحب » الكبير . ان المرء يثرثر كثيرا وهو في الخامسة عشرة ، فهو اذن يحدد الامور تحديدا سيئا . ينبغي ترك الكلمات تأتي الى الفم عذبة ، بالارتجال ، وفق

المزاج او الجوّ ، وترك المواقف تتكلم وحدها ، وربما يولد من الفسق آنذاك حبّ ، وسيتعلّم ، وهو يترعرع ، الفباء العشق ، وان ينطق بها جملا طريّة بسيطة كحركات كل يوم وان يغنّي ، من يدري ، كما لا يغنّي أحد . ولكن موكب الخصائص عندنا مفرط التعجّل ليجد ما يحط عليه ، كسرب من الجراد على الساحل . ومن هنا ارتباك المدرس حين يُترك في العالم فجأة ، وحماقاته في الصالة، وضربات كوعه الحانقة على اعلى المدفأة . ان المراهق يدفع ثمن تراجع الرمزيّ بالتشنّجات .

محبوبتي ، مُسمّاتي ، مميّزتي . ان امرأة كنت تعرفها من غير ان تعرفها ليست بعدُ هي نفسها ، وستعود هي نفسها اذا وجدت المفتاح الصالح الذي سيفتحها لك . ان وصفا ما يردّ لها جسدا ، ويعزّيك من رجفات الذاكرة وما يفضي اليه المُبهم من نزع الملكية . ان لطير الواق السائد هنا السمك السمين والسمك الهزيل ، كالكلاب والقطط ، ولحم البقر ولحم العجل ، والخيار المخلّل والفلفل الحلو الاحمر . ولكن « هذه » المرأة التي تنتمي الى طبقة الهزيلين لن تنتمي اليك شخصيا الا بعد ان تكون قد اخترت بين المشيقة ، والرشيقة ، والرهيفة ، والنحيفة ، والضعيفة ، والهزيلة ، والضامرة ، والنحيلة ، والدقيقة ، والرقيقة — ليس هذا تلاعبا بالكلام ، بل هو انحياز يُتخذ لمدى الحياة، التزام حبّ . انك اذا وجّهت طلبا للقيادة العسكرية بصدد نظام اعتقالك ، فلن تستطيع ان تحدّد لهجته «الصحيحة» اذا جهلت الفروق بين الالتماس ، والعريضة ، والطلب ، والاقتراح ، والتوجّه ، والاسترحام ، والاخطار ، والانذار

والبلاغ النهائي . ولكي تقدّر هذه الفروق ، فلا مفرّ لك اولا من ان تعرف هذه الكلمات . وان تتساءل ، لدى كل مبادرة : « ما عسى يكون اسم هذا ،وما الذي افعله ؟ واية عبارة ينبغي ان استعمل اذا وجب عليّ ان اعرضه كتابة ؟ »

المصيبة ، هي ان حبّك لا يبرز فورا باسمه : انه يصعد من باب الخدمة ، بالسرّ . والانتهازية والثورية اليسارية والطائفية لا تتنزّه هي الاخرى امام بابنا على شكل الرجال ـ المشطّرين . فلا بدّ للمرء من ان يكدّ ليكتشف اسماء هذه الاطياف ، بداهة ومنذ الازل . لتحصل على الاتصال بين الكلمة الكبيرة والشيء الصغير ، ذلك الاتصال الذي يهزّك كالشرارة ، ويوقظك مذعورا .

والسعادة ، هي حين تستطيع ان تسمّي ما تراه وتفعله وتحسّ به ، وتعلّبه في خانة الكلمة الصائبة وتسمع صوت الفصّال ناجزا ، وقرقعة المفتاح الذي يدخل صائبا في القفل ، بعد ان تكون قد جرّبت في القفل ، على غير طائل ،حزمة المفاتيح غير الصالحة ـ تلك الرعشة الصغيرة اللذيذة التي تدلّك على ان هذه هي التركيبة الجيدة . ان جزءا من العالم ، بفرق مليمتر واحد او كلمة واحدة ،هو بعد الآن في متناولك ، محدّد الماهية ومعادا الى مكانه ، محرّرا من ظلاله ومن اهتزازه ، مردودا الى الحياة ، الحياة الحقيقية المشرقة والمتميّزة .

ليس ثمة من كلمة لا تفتح بابا او قلبا او لغزا . ذلك ان القلوب والالغاز مصنوعة هي بالذات من الكلمات ،

مجمّعة في نظام ما . ومن هنا كانت الاقتباسات والتكييفات الاعجــازيّة ، والقرابات الاختيارية التي تشدّ المعجم ، في كل لغــة ، الى جوهر الاشياء .

ان العالم هو كوكبة من الخلايا الصغيرة مُقفل عليها مع سجين خلف الباب الذي يموت في الليل والصمت ، كوكبــة من الحيوات المطفأة التي تحتاج الى انعاش . وهناك دائما ، في مكــان ما من المعجم ، في اعماق قلبك ، كلمة ترقد بانتظار ان تُطلق سراح سجين .

انتفض ، وايقظهــا .

كاميري ، آذار - حزيران ١٩٧٠

هذا الكتاب

في اثناء الحرب البوليفية ، اعتقلت السلطات ، بعد مقتل تشي غيفارا ، الكاتب والمناضل الفرنسي ريجيس دوبريه وحكمت عليه بالسجن لمدة عشرين عاما . ولكن انقلابا حدث عام ١٩٧٠ خَفف عن دوبريه قيود الزنزانة في « كاميري » فسُمح له بأن يقرأ ويكتب ...

وهذا الكتاب هو ثمرة افكاره وتأملاته في السجن ، وفي كثير من مقاطعه يخاطب الكاتب نفسه ، متحدّثا عن كثير من هموم المناضلين والمثقفين ، دون ان ينسى انه ينتمي في اصله الى « البورجوازية الصغيرة » ..

انه في سجنه ، يعيش في صحراء تبعد الوف الاميال عن اوروبا ، وداخل اربعة جدران يكاد يعتبر نفسه جزءا منها ، فيلتزم صمتا يتكوّن جرحه من الكلمات ..

ان السجن هنا هو لحظة الحقيقة وقد امتدّت على سنوات ..

الثمن ٧٠٠ ق . ل . او ما يعادلها .